مَوْسُوعَة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الخامس

الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى

تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

دار الحكمة
لندن

الإيــمان بكـتب اللّه سـبحانه وتعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب اللّه

الكتاب الخامس

الإيــمان بكـتـب اللّه سـبحـانه وتعالى

تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية
١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ
إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ
بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

الإِهداء

إلى الذين يبتغون فقه الإِسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ لِيُجَسِّدُوه في حياتهم الشخصية والأُسَريَّة والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابةً» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، **(في صورة كتاب في ثمانية مجلدات «موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلاً»)** في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق)** بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: **(الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)** تحول في هذه الموسوعة الى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: **(الإيمان برسل الله وأنبيائه)** فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة الى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى...

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنْتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بمقضياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وبقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها الى غيره.

ثم ان الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّة أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا الى الإلتزام بدين الله القيّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصِّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها الى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات الى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليها في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه الى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها الى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١/ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ـ العراق

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

Black plate (15,1)

تقديم

إنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلاَمُ الله، وَخَيْرَ الْهَدِي هَدْيُ مُحَمَّد، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّار.

لما أهبط الله العزيز الحكيم كلاً من: (آدم وحوّاء) من جانب، و(إبليس) من جانب آخر، من الجنة الى الأرض، جرّاء مالرتكبوه من المعصية التي دفعوا ضريبتها سريعاً، وعدهم ربهم الكريم أن يمدهم في حياتهم الإبتلائية على الأرض، بهدايته وتوجيهه، وذلك بغية تَمَكُّنِهِم من تمضية حياتهم، بصورة تُمَكِّنُهُم من العودة الى الجنة السماوية التي بوّءهم

الله فيها من قبل، ويستحقون المكانة الرفيعة التي منحهم إيّاها، كما قال عزوجل: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

ومنذ أن استقرَّ أبوي الإنس والجن وذريتهما على الأرض، بدأ الرب الكريم الحكيم: تنفيذاً لوعده، ورحمةً بخلقه، بإرسال الأنبياء والرسل الكرام «عليهم السلام»، وإنزال كتبه ورسالاته اليهم، وكلفهم تبليغها الى الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقد خصّصنا هذا الكتاب الخامس من موسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله) للحديث عن كتب الله ورسالاته المباركة، التي أتحف الله الهادي بها الجن والإنس، من خلال أنبيائه ورسله الكرام، كي لايكون لأحدٍ عُذر عندالله يوم القيامة، في عدم سلوكه صراطه المستقيم، الموصل الى رضوانه وجنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي بحث موضوع كتب الله ورسالاته الهادية، والذي هو من ضمن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به، حصرنا أنفسنا داخل دائرة نصوص الوحي المعصوم المتجسِّد في كتاب الله الكريم، وبعض من نصوص السنّة النبوية التي صحّ سَنَدُها عند العلماء المختصين، اذ الخروج من دائرة نصوص الوحي عند بحث أي موضوع، يقع ضمن نطاق عالم الغيب، لاينتج عنه الاّ العثار والضلال والبوار، لأن الله سبحانه وتعالى حصر علم الغيب في نفسه، ومن يُطْلِعُهُ هو عليه، من الرسل المصطفين «عليهم السلام» كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

٧/رجب/١٤٣٦هـ
٢٣/نيسان/٢٠١٥م
أربيل

تمهيد

الإيـمان بكتب الله تبارك وتعالى، ركنٌ عظيم آخر من أركان الإيـمان، وترتيبه هو الثالث إذا روعي في ترتيب أركان الإيـمان، التدرُّج المنطقي، وذلك لأن الله تعالى جعل بعض ملائكته الكرام رُسُلاً وسفراء بينه وبين رسله وأنبيـائه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ومن الواضح أن أولئك الرسل السفرة الكرام البـررة، إنـما يأتون بكتب الله ورسالاته الحاوية لهداه ودينه الحق، لأهل الأرض من إنس وجنّ.

وقد رتب سبحانه، أركانَ الإيمان ـ باستثناء الإيمان باليوم الآخر ـ في الآية (٢٨٥) من (البقرة) بالترتيب الذي ذكرناه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ . . .﴾.

وسنتحدث عن الإيمان بكتب الله الحكيم ﷻ في خمسة فصول:

الفصل الأول: معنى الإيمان بكتب الله تبارك وتعالـى.

الفصل الثاني: حكمة إنزال الله تعالـى الكتب إلى الإنس والجن.

الفصل الثالث: عدد كتب الله الحكيم ـ جلّ وعلا ـ وأسـماؤها.

الفصل الرابع: سبع حقائق يجب الإعتقاد بها حول كتب الله العليم.

الفصل الخامس: القرآن العظيم آخر كتب الله سبحانه وتعالـى لأهل الأرض.

ونبـدأ بتوفيق الله الوهاب بالفصل الأول:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الأول

معنى الإيمان بكتب الله تبارك وتعالى

ونقول باختصار:

الإيـمان بكتب الله تعالى، هو التصديق بحقانية كل كتب الله ورسالاته التـي أنزلها على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، من (آدم) إلى النبي الخاتم (محمد)، على جميعهم الصلوات والبركات والسلام، ثم التعامل معها وفق ما أمر الله تعالى به من التلاوة الحقة، والتدبر العميق، والفهم الصحيح، والإستسلام التام، لأوامرها ونواهيها، والإتباع الكامل لجميع أحكامها في ضوء سنن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والسلام ـ أجمعين، الذين جَسَّدوا حَقَائِقَ كُتُبِ الله وتعاليمها وأحكامها في حياتهم بأحسن ما يكون وأَتَمِّهِ.

ومن البَيِّن الجلي أن مَنْ آمن بكتب الله تبارك وتعالى حَقَّ الإيـمان، استغنى بها عن غيرها، وَعَلِمَ علمَ اليقين أن الهداية الحقيقية التي تستقيم بها حياةُ الخلق، وينالون بها السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي، محصورة في كتب الله المباركة الحكيمة فحسب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الثـاني

حِكْمَةُ إنزال الله تعالى الكُتُبِ إلى الإنس والجن

لقد ذكرنا في الفصل الثالث من الكتاب الأول، أن الله تعالى عندما أصدر أمره بإهباط (آدم وزوجه) ـ عليهما السلام ـ من جانب، و(إبليس) من جانب آخر، من السماء إلى الأرض، عقوبةً لهم على ما صدر منهم من خطأ وعصيان، وعَدَهُمْ جميعاً أن يُنْزِل إليهم هُداه، كي يتبيَّن ـ في ميدان الواقع والعمل ـ مَنْ يتَّبِع هُداه ويرغب إلى مولاه ـ جلّ وعلا ـ، ممن يزيغ عن الهدى ويَتَّبعُ هواه، كما قال تعالى:

١) ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾ [البقرة].

٢) ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه].

إذاً:

إنزالُ الله الحكيم جلَّ شأنه كُتُبَه ورسالاته المتضمِّنَةِ لهداه للإنس والجن، إنما هو إنْجازٌ وتحقيق لوعد سابق، وَعَدَ به الثَّقَلَيْن المتَمَثِّلَيْنِ في آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ وذريَّتهما، وإبليس اللعين وذريَّتِه.

وإنما وعد الله الثقلين (الإنس والجن) أن يرسل لهم هداه، لعلمه ـ وهو علاّم الغيوب ـ أنهم بدون هدايته وإرشاده، لا يتمكنان من الحياة على الأرض بالصورة التي يرضاها هو سبحانه، ومن ثم تكون سبباً لنجاحهم في ابتلاء الله واختباره لهم في الحياة الأرضية المؤقتة، التي تترتب عليها حياةُ خلودٍ أبدي، سعيدة أو شقية!

ومن الجليِّ أن غير هذا لا يُتَوَقَّعُ من الله الخالق الحكيم والرب الكريم، الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء: ﴿... وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ...﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والذي لم يخلق شيئاً إلا وهداه إلى مسيره، ووجَّهه وجهته، والغاية التي خلقه لتحقيقها، كما قال تعالى على لسان نبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في جواب فرعون الذي طالبه أن يعرِّف به ربَّه الذي أرسله هو وأخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

أجل!

إن الحكمة من إنزال الله كتبه الحاوية لهدايته إلى الإنس والجن هي:

إن هذه الحياة الأرضية للإنس والجن، لا يرضى الله لهم أن يُمْضُوها كيفما اتفق وحسبما يهوون!، بل لا يرضى لهم إلا الحياةَ التي تُحَقِّقُ لهم رضوانَ الله وفضله، في حياة الآخرة الخالدة الأبدية[1]، وتلك الحياة ـ أي الحياة المطلوبة المرضية لله ـ هي حياة العبادة لله، والسير وفق شرعه وهداه، لِذا لَطَفَ بهم اللطف اللائق به، وتَفَضَّل عليهم بإنزال كتبه القيمة، وإرسال رسله الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، كي لا يكون لأحدٍ منهم عُذْرٌ في الآخرة، عندما يساق إلى جهنم، يَتذرَّعُ ويَتَحَجَّجُ به، كما قال تعالى:

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ .... ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

(١) وقبلها السعادة الدنيوية، ولكنها ليست شيئاً يذكر بجنب نعيم الآخرة.

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

ولهذا يحتجُّ على الكفار الجهنميين على لسان خَزَنَةِ جهنم، بأنه أرسل إليهم الرسل الذين تَلَوْا عليهم آيات الله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ...﴾ [الزمر: ٧١].

نعم لا يرضى الله الرحمن الرحيم لعبيده من الجن والإنس، إلا الحياة الطيبة الطاهرة، في ظِلِّ هدايته وَوِفْقَ شريعته الحكيمة، ومن المستحيل أن يستقيم الإنسان في ذات نفسه، وفي علاقته مع ربّه، وتعامله مع غيره، إلا عندما يستمسك بكتاب الله الحكيم، ويسلك صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير].

وبما أن الإنس والجن عند إعراضهم عن ذكر الله وانحرافهم عن صراطه المستقيم، يفقدون مقامهم الرفيع الذي حباهم الله به: مقامَ العبادة الإختيارية لله تعالى، ويَسْفُلون إلى أدنى الدركات، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين]، ويصيرون إلى حالة يسوّون فيها أَنْفُسَهُم بالحيوانات والبهائم، كما قال تعالى: ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، لذا فإهمال الله تعالى الإنس والجن، وعدمُ إنزال كتبه ورسالاته الهادية لهم، شيءٌ لا يليق بالله جل شأنه ورحمته وحكمته وكرمه ولطفه، ولهذا فقد اعتبر الله تعالى، إنكارَ بعض الكفرة إنزالَه للكتب، أفْظَعَ وأشنَعَ أنواع سوء الأدب مع الله وإساءَةَ الظن به، وقَرَنَهُ بالشرك، الذنب العظيم الذي لا يغفره الله أبداً، والدليل على هذا:

أن الله تعالى ذكر جملة: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴾ في ثلاثة مواضع في كتابه الحكيم، مرتين في معرض الحديث عن الشرك بالله تعالى، وهما:

١) الآيتان (٧٣ و٧٤) من (الحج): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

٢) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٦، ٦٧].

ومرة ثالثة في معرض الرد على الكفار الذين يُنكرون إنزال الله للكتب، إذ يقول تعالى في الآية (٩١) من (الأنعام):

٣) ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

ومعنى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ أي: لم يُعظِّموه حقَّ عَظَمَتِهِ، ولم يُجِلُّوه كما ينبغي لجلاله.

وَعَلَيْهِ:

فعدم إنزال الله الكُتُبَ الهادية للجن والإنس، شيءٌ بعيد عن الله تعالى، ولا يليق به أبداً، لذا فالذين يفكرون بمثل هذا التفكير المعوج، أولئك لم يعرفوا الله تعالى، ولم يقْدِرُوه قَدْرَهُ، وهم من هذه الناحية في مصاف أهل الشرك.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الثالث

عدد كتب الله الحكيم
ـ جلّ وعلا ـ وأسماؤها

لم يُذْكَرْ في كتاب الله الحكيم المنزل على خاتم النبيين (محمد) ﷺ عَدَدُ الكتب التي أنزلها الله على رسله وأنبيائه الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، ولكنه ذكر عدداً من أولئك الكرام ـ عليهم السلام ـ بأسمائهم وبقية الأنبياء بدون ذكر أسمائهم، وبيَّن أنهم قد أنزل الله تعالى إليهم كتبه ورسالاته، كما قال تعالى:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

وفي آية أخرى شبَّه سبحانه إيحاءه للنبي الخاتم ﷺ بإيحائه إلى كل الأنبياء الآخرين نوح عليه السلام فمن بعده من رسل الله وأنبيائه الكرام عليهم السلام، حيث قال:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء].

وهذا يعني:

أن الله تعالى قد أنزل على كل الأنبياء والرسل السابقين ـ عليهم السلام ـ مثلما أنزله على خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كل حسب اقتضاء الظروف والأحوال التي كان فيها مجتمعه، الذي أرسل إليهم وبعث فيهم.

وأسماء الكتب التي ورد ذكرها في القرآن، بالإضافة إلى القرآن العظيم نفسه، هي هذه الخمسة:

١) صحف إبراهيم:

ولم يردْ ذكرُ (صحف إبراهيم) ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى].

٢) التوراة:

والتوراة هو الكتاب الذي أنزله تعالى على موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكانت مكتوبة من الله تعالى على ألواح، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ . . .﴾ [الأعراف].

وقد ذكر الله تعالى التوراة في مواضع كثيرة، منها الآية (٤٤) من (المائدة):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ . . .﴾ [المائدة: ٤٤].

٣) الزبور:

والزبور هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه داود عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿. . . وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ٥٥].

٤) الإنجيل:

والإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله العليم على عيسى عليه السلام، كما

قال تعالـى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ. . .﴾ [الحديد: ٢٧].

٥) القـرآن:

وهو الكتاب الربانـي الأخير الذي أنزله على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ، والذي سنتحدث عنه في الفصل الخامس، الذي يشكل معظم هذا الكتاب الخامس.

ومن الواضح أن عدم ورود ذكر الكتب الربانية الأخرى، ورسالاته التـي أنزلها على أنبيائه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، لا يعني أن كتب الله منحصرة في هذه الكتب الخمسة المذكورة أسماؤها، كلا، ولكن كتاب الله الحكيم لا يذكر إلا ما تَمُسُّ إليه الحاجـة، وقد ورد في بعض الأحاديث، بأن عدد الكتب الربانيـة التي أنزلـها في تاريخ حياة البشرية على الأرض، على أنبيـائه ورسـله ـ عليهـم الصلاة والسلام ـ هـو مائة كتاب وأربعة كتب (١٠٤)، كما جاء في (صحيح ابن حِبّان) رحمه الله تعالـى[١].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) وهذا هو نص المقصود من الحديث: (عن أبي ذر الغفاري ﷺ أنه سأل النبيَّ ﷺ: كم كتاباً أَنزلَ الله؟ قال: «**مائة كتاب وأربعة كتب**. . .») صحيح ابن حبان: ٣٦١.

الفصل الـرابع

سِـتُّ حَقَائِقَ يجبُ الإعتقـادُ بها حول كتب اللّٰه العظيم

تدلُّ آيـة أو أكثر من كتاب الله، على كُلّ من تلك الحقائق الست، كما سنرى من خلال عرضها في المباحث السِّتة الآتية:

المبحث الأول: كُتب الله ﷻ كلّها في قِمَّة الكمال الذي يليق بكلام الله.

المبحث الثاني: أنزل الله تعالى كل كتاب من كتبه كافياً ووافياً لهداية المجتمع الذي أنزله فيه، في كل نواحي حياتهم الفرديَّة، والجماعيَّة، بحيث يستغنون به عن غيره.

المبحث الثالث: نَوَّع الله كُتُبهُ من حيث أحكامُها الجزئيَّة، كي يكون كل منها متطابقاً مع الأوضاع والأحوال الخاصَّة للمجتمع الذي أنزله فيه.

المبحث الرابع: جوهر كُتب الله المنزلة على جميع الأنبياء والرسل، واحدٌ وثابت لم يتغير، من حيث الأساس والأصول الكليَّة التي بنى الله تعالى عليها دينه الحق.

المبحث الخامس: كُتب الله تعالى من حيث الواقع الفعلي لم يَسْلم منها من التحريف غير القرآن العظيم.

المبحث السادس: إنَّ الكُتب السابقة حتى لو بقيت سالمة، لما كانت كافية ووافية في أحكامها التفصيليَّة للمجتمع البشري الحالي.

المبحث الأول

كتب الله ﷻ كلّها فـي قِمَّة الكمال الذي يليق بكلام الله

وهذه حقيقة بديهية جلية، إذ كتب الله تعالى هي كلامه الحكيم، وكلام الله كله في مستوىً واحد، من حيث كونه كلام الله، وقد قال تعالى واصفاً كلمته التي يقصد بـها كلامه، وحديثه الذي أنزله على خلقه:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام].

كما نرى وصف الله كلامه بثلاث صفات:

١) الصـدق التـام.

٢) العـدل التـام.

٣) عدم تطـرُّق التبـدُّل إليـه.

والحـكمة من هذا التعريف الوجيز الحكيـم، من الله تعالى لكلامه المبارك، هي:

أن كتاب الله وكلامه عموماً، إما خَبَرٌ، وإما حُكْمٌ، وخبـر الله صدق كله لا خلاف فيه، وحكمه عَدْلٌ كله لا جور فيه، والكلام الصادق العدل لا يمكن أن يطرأ عليه التبدُّل والتغيُّـر، لأن الكلام إنما يعرض له التبدل والتغير بسبب:

أولاً: تصادمه مع الواقع، لاشـتماله على الكذب.

ثانيـاً: تصادمه مع المصلحة، لاشتماله على ما هو ظلم وجور.

ولكن:

الكلام الذي ليس في أخباره غير الصدق المطابق للواقع والحقيقة، وليس في أحكامه غير العدل الموافق للمصلحة والمُحَقِّق لها، فمثل هذا الكلام لا يمكن أن يطرأ عليه التبدل والتغير.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثاني

أنزل الله تعالـى كل كتاب من كتبه كافياً ووافياً لهداية المجتمع الذي أنزله فيه، فـي كل نواحي حياتهم الفردية، والجماعية، بحيث يستغنون به عن غيـره

وهذه أيضاً حقيقـة بديهية يقتضيها كمالُ علم الله وحكمتـه ورحمتـه وسائر صفاته العلى جل شأنه، ويقول سبحانه وتعالـى بـهذا الصدد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ...﴾ [الحديد: ٢٥].

إذاً: ما من رسول من رُسُلِ الله الكرام، إلا وأعطاه الله تعالـى البينـة (المعجزة) التـي تُثْبِتُ صِدْقَهُ، والكتاب والميزان الذين يهدي بـهما المجتمع ويُقيمُ فيه القسط، بالمفهوم الواسع لكلمة القسط.

وهذا الموضوع سنعالجه فـي الكتاب السادس، المخصَّص لبحث الإيمان برُسل الله الكرام ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بإذن الله.

المبحث الثالث

نَوَّع الله كُتُبَهُ من حيث أحكامُها الجزئية، كي يكون كل منها متطابقاً مع الأوضاع والأحوال الخاصة للمجتمع الذي أنزله فيه

وهذه كذلك حقيقة تقتضيها بديهة العقل وطبيعة الحياة البشرية المتغيرة المتطورة، وقال سبحانه في هذا المجال: ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وهذا ـ أي اختلاف الشرائع والمناهج حسب طبيعة المجتمعات البشرية، في مراحلها المتغيرة المتطورة ـ في مجال بعض الأحكام التفصيلية الجزئية فقط، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**الأَنْبِياءُ أُخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٤٤٣)، وَأَحْمَد برقم: (٩٢٥٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه) أي: انَّ دينهم ومنهجهم في أصوله الكلِّية وأساسياتِهِ واحد، وإن وجِدتْ فروقٌ في بعض التفاصيل والجزئيات.

المبحث الرابع

جَوهر كُتُب الله المنزلة على جميع الأنبياء والرسل، واحِدٌ وثابِتٌ لم يتغيَّـرْ، من حيث الأساس والأصول الكليِّة التي بَنى الله تعالـى عليها دينَهُ الحق

وهذا هو المقصود بالآية المباركة:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى].

أجل:

ان كل الكتب الربّانية الحاوية لشرائع الله المنزلة على أنبيائه ورسله ـ عليهم السلام ـ هي واحدة من حيث الأساس والأصول الكلية لهداية الله ودين الحق، ولهذا فمن الخطأ استعمال كلمة (الأديان السماوية)، لأن الله تعالى لم يُنْزِلْ على كل أنبيائه ورسله إلّا ديناً واحداً، وهو دينه الحق القَيِّم، ولكن هناك شرائع مختلفة (متنوعة) واجهت بها الأنبياء والرسل الكرام ـ عليهم السلام ـ مجتمعاتهم المختلفة ومشكلاتها المتنوعة وأحوالها المتغيرة المتطورة، ولهذا فيصح استعمال كلمة: (الشرائع الربانية أو السماوية) لأنها فِعْلاً كانت شرائع، ولم تكن شريعة واحدة، وكانت مناهج متعددة، ولم تكن منهاجاً واحداً.

ومَثَلُ الشرائع في هذا المجال مع دين الله الحق، كمثل السواقي والجداول التي تتفرع كلها عن نهر كبير واحد، ولكن تتجه نحو مسارات شتى، فهي واحدة من حيث الأصل والمَعين، ولكنها متعددة من حيث الإتجاه والخصوصيات الجزئية.

هذا كله من حيث المَبدأ، أي من حيث النظر إلى الكتب الربانية كما هي عليه، ومن حيث الحقيقة التي أنزلها الله بها.

وهذا هو المقصود بقوله تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ...﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وبقوله تعالى: ﴿... وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ...﴾ [الشورى: ١٥].

وبقوله: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الخامس

كتب الله تعالى من حيث الواقِعُ الفعليُّ، لم يَسْلَمْ منها من التحريف، غيرُ القرآن العظيم

أَجَلْ إِنَّ الكتب السابقة على القرآن، لم يَسْلَمْ أي منها من التحريف والتغيير والنسيان والإخفاء، فلا يوجَدُ غير القرآن، كتاب يوثق به ويطمئن إليه، بأنه كتاب الله الذي أنزله على الحقيقة:

والدليل القاطع على كون تلك الكتب كلها غير سالمة من التحريف والتغيير والنسيان والإخفاء، نوضِّحُه في البحث التالي:

برهانان لإثبات تحريف كتب أهل الكتاب

البرهان الأول: إخبار الله تعالى به في كتابه الخاتم:

كما قال تعالى بالنسبة لليهود وتغييرهم وتحريفهم لكتبهم عامةً والتوراة خاصة، أو نسيانهم لقسم منها: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ . . .﴾ [المائدة].

وقال تعالى في معرض الحديث عن نسيان النصارى قسماً مما أوحاهُ الله تعالى إلى نبيهم عيسى عليه السلام: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ. . .﴾ [المائدة: ١٤].

وقال جل شأنه عن إخفاء كلتا الطائفتين كثيراً من حقائق التوراة والإنجيل: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ. . .﴾ [المائدة: ١٥].

ولكن لم يُشِرْ كتاب الله الحكيم إلى كتب الطوائف الدينية الأخرى التي تَدَّعي الإنتساب إلى بعض الأنبياء، أو من يعتبرونهم أنبياء، كالصابئة والمجوس وغيرهما، وربّما السبب في ذلك، هو عدم وجود تلك الكتب

أصلاً (من حيث الحقيقة لا من حيث الواقع)، أو اندراسها وعدم وجود شيء منها، تُشَمُّ منه رائحةُ الوحي.

هذا بالنسبة للدليل الأول الذي هو كافٍ، لإثبات المطلوب، لأهل الإيمان، وكذلك لغيرهم من ذوي العقل والإنصاف.

ولكن نُضيفُ إليه دليلاً ثانياً، زيادةً في الإثبات والإيضاح، وإفحاماً لليهود والنصارى الذين ينكرون حقيقة كون كتبهم، مُحرَّفةً، في جوانب كثيرة منها:

البرهان الثاني: واقع الكتب الحالية التي بيد أهل الكتاب (اليهود والنصارى):

أَجلْ، إن واقع الكتب الحالية، التي يدَّعي اليهود والنصارى كونَها سالِمَةً من التغيير والتحريف، وخاصة (التوراة) و(الإنجيل)، لهو خير دليل على ما قلناهُ، لكلّ من يميز بين الحق والباطل والغَثّ والسّمين.

والآن نمثل لتلك التحريفات التي دخلت في كل من التوراة والإنجيل أمثلة من الأفكار والتصورات الخاطئة والخرافية، التي لا تليق لا من قريب ولا من بعيد، بوحي الله المعصوم.

ولكن نُنَبِّه مسبقاً على حقيقتين:

الأولى: ليست الأمثلة التي نذكرها من الكتابين المذكورين للبرهنة على تحريفهما، سوى أمثلة قليلة جداً، بالنسبة لما فيهما من الأباطيل والخرافات.

الثانية: بالرغم من وجود دَخَلٍ كثير في ما يُسَمَّى بـ(الكتاب المقدس) بِكِلا قسميه: العهد القديم والعهد الجديد، ولكن توجد فيهما أيضاً أشياء كثيرة يستسيغها العقل، وَتَنْسَجِمُ مع كتاب الله الحكيم، ولكن كلُّ ما فيهما مما هو حق أو يشبهُ الحق، ففي كتاب الله ما هو أفضل منه بكثير والمسلمون مستغنون بكتاب الله العظيم المعصوم عن أيّ كتاب آخر.

والآن إلى الأمثلة التي ننقلها من كل من الكتابين، ونبدأ بالعهد القديم (التوراة):

أ ـ أمثلة من التحريفات الواقعة في العهد القديم[١]

١) وَصْفُ الله تعالى بالتَّعَبِ والإستراحة منه:

كما صُرِّحَ به في الإصحاح الثاني من (سفر التكوين) حيث قال ما نصُّهُ:

(١) اعتمدتُ في اقتباس هذه الأمثلة على ما يسمى بـ(الكتاب المقدس)، ولكي تكون صورة ذلك الكتاب واضحة في الأذهان، على لسان أهله، أَقتطف من مقدمته ما يلي: (الكتاب المقدس هو كلام الله الذي أعلن فيه عن مَحبَّتِهِ وتدبيراتِهِ للبشر، كما أوضح فيه الطريق إلى الحياة الأبدية والخلود، وهو يسمى (الكتاب) لأنه يضم مجلدين كبيرين يتكونان من ستةٍ وستين سِفْراً، ومع ذلك فهو كتاب مُتَرابطٌ، ويسمى (المقدس) لأنه كلام الله القدوس.
ويضم (الكتاب المقدس) كتابي (العهد القديم) الذي كتب أصلاً باللغة العبرية، و(العهد الجديد) الذي كتب أصلاً باليونانية، وترجما إلى لغات ولهجات كثيرة تزيد على الألفين ومنها اللغة العربية.
ويشتمل الكتابان معاً كلام الله الذي أوحى بِهِ إلى نحو أربعين من أنبيائه القديسين الذين تلقَّوا الوحي خلال ما يقرب من ألف وستمائة سنة، بدءاً من النبي موسى الذي أوحى الله له بالتوراة، وحتى الرسول يوحنا الذي أوحى الله له بسفر الرؤيا ـ آخر أسفار الكتاب ـ..
..وفي كتاب (العهد القديم) يروي لنا الوحي المقدس قصة الخليقة وتاريخ البدايات الأولى، ويُرينا كيف سقط الإنسان في معصية الله، ثم يحدثنا عن دعوة الله لأبينا إبراهيم ونسله ويكشف لنا من خلال تاريخ شعب بني إسرائيل، عن الصراع الدائر بين دعوة الخير التي بعث الله بها عن طريق الأنبياء والرسل، وبين دوافع الشر التي امتلأت بها نفوس البشر وطبيعتهم الساقطة.
...أما كتاب (العهد الجديد) فيتناول سيرة حياة وتعاليم ومعجزات السيد المسيح وكذلك أعمال وأقوال تلاميذه القديسين، وما أوحى به الله إليهم من رسائل، ويسمى العهد الجديد (الإنجيل) وهي كلمة معرَّبة عن أصل يوناني تحمل معنى (البُشْرى) أو الخَبَر السارّ، لأنه يحدثنا عن الطريق المضمون للنجاة من عقاب الخطيئة ونوال الحياة الأبدية..). =

(وفي اليوم السابع أتم الله عمله الذي قام به، فاستراح فيه من جميع مَنْ عَمِلَهُ، وبارك الله اليوم السابع وقَدَّسَهُ، لأنه استراح فيه من جميع أعمال الخلق)[1].

ومعلوم أن وصف الله تعالى بالاستراحة بعد العمل! يعني وَصْفُهُ بالتَّعَبِ، إذْ لا يستريح إلا الـمُتْعَبُ!

ووصف الله تعالى نَفْسَه في كتابِهِ المبين الذي لم تصله يد التحريف، بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وكذلك نفى عن نفسه التعب بعد خلق السموات والأرض في ستة أيام (أي ست مراحل زمنية): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق].

٢) وصف الله تعالى بالمشي في الجنة، وسماع آدم وحواء لصوت مَشْيِهِ:

كما جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين:

(ثم سَمِعَ الزوجان صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النَّهار)[2].

وهذا تجسيم لله تعالى وتشبيه له بالمخلوقين، ولكن الله تعالى لا يشبه شيئاً، إذ لا شيء إلا وهو مخلوق له، والخالق غير المخلوق من كل الوجوه، قال تعالى واصفاً نَفْسَه في كتابِهِ الحكيم: ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

= ملاحظة: النسخة التي اعتمدت عليها من (الكتاب المقدس)، هي باللغتين العربية والإنجليزية معاً، طبعة سنة (١٩٩٩)، وعدد صفحاتها (١٨٨٣ صفحة)، وقد قرأتها من الجلد إلى الجلد كي أكون على بصيرة مِنْ أمره.

(١) ص٢، من (الكتاب المقدس).

(٢) المصدر المذكور، ص٤.

٣) القول بأن الله تعالى لم يكن يرى آدم بعد اختبائه منه في الجنة إثر أكله من الشجرة المحظورة:

كما جاء في الإصحاح السابق:

(فاختبأ من حضرة الرب الإله بين شجر الجنّة، فنادى الرب الإله آدم: أين أنت؟! فأجاب: سمعتُ صوتَك في الجنّة فاختبأتُ خشيةً منك لأني عريان)[1].

والله سبحانه أعلم وأعظم وأجل من أن لا يرى مخلوقاته وتَخْفى عليه أحوالهم، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣].

٤) نسبة الجهل إلى الله تعالى، وأنّه كان لا يعلم أن آدم أكل من الشجرة حتى سأله:

كما جاء في الإصحاح السابق أيضاً[2]:

(فسأله: من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟! فأجاب آدم، إنها المرأة التي جعلتها رفيقة لي هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة فأكلت).

ولكن الله تعالى وصف نفسه في كتابه المبين بأنه يعلم خفايا الوجود وخباياه التي لا يعلمها سواه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾ [فاطر].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ...﴾ [النمل: ٦٥].

---

(١) نفس المصدر والصفحة.
(٢) نفس المصدر والصفحة.

٥) نسبة الأَسَف والحُزْنِ إلـى الله بسبب خَلْقه الإنسانَ:

كما جاء فـي الإصحاح السادس من سفر (التكوين):

(ورأى الربُّ أن شَرَّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كلَّ تصوُّر فِكرِ قَلْبِهِ يَتَّسِمُ دائماً بالإثم، فَمَلأَ قَلْبَهُ الأَسَفُ والحُزْنُ لأنه خلق الإنسان)[١].

ومن الجلي أن وصف الله تعالـى بالتأسف والحزن (أي الندم) على خلقه الإنسان، يعني أن الله تعالـى لَمْ يكن يعلم يوم خَلَقَهُ، بأنه سيصير إلـى ما صار إليه!! ومثل هذا التصور تجاه رب العالمين وأحكم الحاكمين، إنـما ينبع من ذهنٍ يتخيل الله تعالـى كبشر، تعتريه الحالات النفسية التـي تعتري البشر، والتي منشأها الضعف والجهل والعجلة وسائر نقاط الضعف التي اعتجنت مع طينة النفس البشرية! سبحانه وتعالـى عما يقولون علواً كبيراً.

٦) القول بأن الله تعالـى قد صارع (يعقوب) طوال الليل إلـى طلوع الفجر، من دون أن يتمكن من الغلبة عليه، بل إن يعقوب أمسك به ولم يُطْلِقْهُ رغم التماسِهِ منه، إلا بعد أن أخذ منه الوعد بأن يباركه:

وهذا ما جاء في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر (التكوين):

(ولما أجازهم وكُلَّ مالَهُ عَبْرَ الوادي وبقي وحده، صارعه إنسانٌ حتى مطلع الفجر، وعندما رأى أنه لم يتغلب على يعقوب ضربه على حُقِّ فخذه وقال له: أطْلِقْني فقد طلع الفجر، فأجابه يعقوب: لا أُطْلِقُكَ حتى تباركني، فسأله: ما اسمك؟ فأجاب: يعقوب، فقال: لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب، بل إسرائيل (ومعناه يجاهد مع الله)، لأنك قد جاهدت مع الله والناس وقدرت، ودعا يعقوب اسم المكان فنيئيل (ومعناه وجه الله) إذ قال: لأنـي شاهدت الله وجهاً لوجهٍ وبقيت حياً...)[٢].

ومن الواضح أن المقصود بـهذا الكلام التافه، هو أن الله تعالى تجسَّد

(١) أنظر: ص ٨.
(٢) أنظر: ص(٥٣ ـ ٥٤).

في صورة رجل وصارع يعقوب! ألا ما أسخفه من قول وأبعده عن الحق، وعن جلال الله وعلوِّ مقامه جل وعلا، فأين هذا التصور السافل لرب العالمين مما وصف به نفسه في كتابه المبين!!

٧) تصوير تعامُل الله تعالى مع الإنس، كتعامل نِدّ مع نِدِّه الذي ينافسه ويحسده ويبغضه، ويسعى لإلحاق الشر والأذى به بشتى الوسائل:

ونكتفي للاستشهاد على هذا التصور الغبي لله تعالى، بإيراد مقتطفين من ذلك الكتاب الذي يسمِّيه اليهود والنصارى بـ(الكتاب المقدس)، كمثالين:

المثال الأول:

جاء في الإصحاح الثالث ـ في نهايته ـ من سِفْر (التكوين) بعد ذِكْر أكل آدم وزوجه من الشجرة الممنوعة، ما يلي:

(ثم قال الرب الإله: ها الإنسانُ قد صار كواحد منّا، يميز بين الخير والشر، وقد يمد يدهُ ويتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه من جنة عدنٍ لِيفْلَحَ الأرضَ التي أُخِذَ من ترابها، وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن وأقام ملائكة الكروبيم وسيفاً نارياً متقلِّباً شرقي الجنة لحراسة الطريق المُفْضِيَة إلى شجرة الحياة)[١].

نسجِّل الملاحظات الآتية باختصار، على هذا الكلام الذي يشبه كل شيء سوى الوحي:

١) جملة: (..ها الإنسان قد صار كواحد مِنّا)، يفهم منها أن الله تعالى معه أرباب وآلهة أخرى، يُدَبِّرون معه شؤون الخلق!

٢) جملة: (يميِّز بين الخير والشرِّ) يعني أن الله تعالى يكره للإنسان أن يُميِّزَ بين الخير والشر، ومن ثم يكره له العلم والمعرفة ويحبِّذ له الجهل!

(١) أنظر: ص (٥).

ولكن القرآن العظيم يبين أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ [البقرة: ٣١].

٣) جملة: (وقد يمد يدهُ ويتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد) يفهم منها أن الله تعالى يكره للإنسان نوال الحياة الأبدية! ولكن القرآن الحكيم كله تشجيع للبشر على الإيمان والعمل الصالح الذي ينال به الحياة الأبدية في جوار الله الكريم، ثم كيف يليق بالله الخالق الكريم الوهاب أن يحسد مخلوقيه على ما ينالونه من خير؟!

٤) جملة: (..فأخرجوه من جنة عدن..) تفيد بأن سبب إخراج الله آدم وزوجه من الجنة، هو تخوّفه سبحانه من أن يأكُلا من شجرة الحياة وبعد ذلك يكسبا الحياة الأبدية، وهذا يعني أن عقوبة الله لآدم وزوجه لم تكن بسبب معصيتهما، بل بِسَبَبِ حسد الله (سبحانه) لهما وتخوُّفه من أن ينالا الحياة الأبدية الخالدة!!

جملة: (وأقام ملائكة الكروبيم وسيفاً نارياً متقلّباً شرقي الجنة..الخ) تفيد وكأن الله تعالى كان في حرب لا هوادة فيها مع آدم وزوجه، ولهذا شدَّد الحراسة بالملائكة وبسيف من النار على طريق شجرة الحياة!!

ألا ما أسْفَه مَنْ كَتَبَ هذا الكلام المتهافت وسمّاهُ كلامَ الله! أوَلَمْ يعلم بأن الناسَ لهم عقول؟!

المثال الثاني:

وفي الإصحاح الحادي عشر من سفر (التكوين) جاء بأن البشر لما تطورّت حياتهُم على الأرض بسبب وحدة لغتهم، وأرادوا أن يبنوا لأنفسهم مدينة وبُرْجاً يبلغ رأسه السماء، نَزلَ الله من السماء وَعدَّد لغاتِهِمْ بُغْيةَ تفريقهم في الأرض، ونكتفي بنقل هذه الجمل: (فقال الربُّ...هيا نَنْزِلْ إليهم ونُبَلْبِلْ لسانهم، حتى لا يفهم بعضهم كلام بعضٍ، وهكذا شَتَّتهم الرب من هناك على سطح الأرض كلها، فَكَفُّوا عن بناء المدينة...)(١).

(١) أنظر: ص (١٥).

٨) نسبة شرب الخمر والسكر والتعرّي إلى نبيّ الله الكريم نوح عليه السلام :

كما جاء في نهاية الإصحاح التاسع من سفر (التكوين):

(واشتغل نوح بالفِلاَحَةِ وغَرَسَ كرْماً، وشرب الخمر فسكر وتعرَّى داخل خَيْمَتِهِ)[(١)].

٩) القول بأن ابنتي لوط عليه السلام أسكرتا أباهما بالخمر، ثم زنيتا معه وحمَلَتا منه، وولدت كل منهما ابناً أصبح فيما بعد أباً لعشيرة كبيرة:

كما جاء في نهاية الإصحاح (١٩) من سفر (التكوين) ونكتفي بنقل ما هو بيت القصيد منه:

(...فقالت الإبنة البِكْرُ لأختها الصغيرة، إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض حولنا رجلٌ يتزوجنا كعادة كل الناس، فتعالي نُسْقِهِ خمْراً ونضطجع معه فلا تنقطع ذرية أبينا...وهكذا حملت الإبنتان كلتاهما من أبيهما...)[(٢)].

١٠) القول بأن يوسف عليه السلام طلب من الأَطِبَّاء المصريّين أنْ يُحنِّطوا جثمان أبيه يعقوب عليه السلام :

كما جاء في بداية الإصحاح (٥٠) من سفر (التكوين) تحت عنوان: (تحنيط جثمان يعقوب):

(فألقى يوسفُ بِنَفْسه على جثمان أبيه وبكى وقَبّله، ثم أمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنِّطوا أباه، وقد استغرق ذلك أربعين يوماً، وهي الأيام المطلوبة لاستكمال التحنيط)[(٣)].

١١) اتهام نبي الله هارون عليه السلام بأنه هو الذي صنع العجل الذهبي

---

(١) انظر: ص (١٣).
(٢) أنظر: ص ٢٧.
(٣) أنظر: ص ٨٦.

واعتبـره إلهًا لبني إسـرائيل، وذلك حيـن غاب موسى عليه السلام فـي المدة التي ذهب فيها لتلقي الألواح:

كـمـا جـاء في الإصـحـاح (٣٢) من سـفـر (الخروج) تـحـت عـنـوان: (هارون يصنع عجل الذهب):

(ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل، اجتمعوا حول هارون وقالوا له: هيّا اصنع لنا إلهاً يَتقدَّمُنا في مسيرنا، لأنّا لا ندري ماذا أصاب هذا الرجل موسى الذي أخرجنا من ديار مصر، فأجابهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبنيكم وأعطوني إياها، فنزعوها من آذانهم وجاؤوا بها إليه، فأخذها منهم وصهرها وصاغ عجلاً، عندئذٍ قالوا: هذه إلهتُك يا إسرائيل التي أخرجتك من ديار مصر...)(١).

ويكفي لدحض هذه الإتـهامات المفتراة التي وجهها مؤلّفوا العهد القديم إلى أولئك الأنبياء الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن نقرأ في كتاب الله المبين المهيمن على الكتب السابقة، بعضَ الآيات التي تتحدث عن الأنبياء والرسل عموماً، وأولئك المُتَّهمين زُوراً خصوصاً:

١) ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

٢) ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج].

٣) ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل].

فالرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ هم حجة الله على الناس، ومن

---

(١) أنظر: ص ١٤٤.

الواضح أن كونهم حُجّةً على الناس يتطلب عصمتهم من المعاصي ـ بالمفهوم المعروف ـ، وإلّا فكيف يقيم الحجة، مَنْ هو في نفسه مُعْوجّاً ومحجوجاً؟!

وكذلك الرسل والأنبياء الكرام ـ عليهم السلام ـ هم صفوة الله الذين اختارهم من بين البشر، كيف إذن يمكن أن يَكون من يصطفيهم الله تعالى مُلَوَّثين بالكبائر التي يتجنَّبها حتى كثيرٌ من أهل الإيمان أو بعضهم، ممن ليسوا بأنبياء ولا يوحى إليهم؟!!

فهل يجوز أن يكون من اختارهم الله واصطفاهم من بين الناس، أسوءَ من بعض أهل الإيمان عملاً، وأدنى منهم منزلة في العبادة والطاعة لله تعالى! سبحانك هذا بهتان عظيم.

هذا بالنسبة لأولئك الكرام المُتَّهمين في التوراة المحرَّفة عموماً، وأمّا بالنسبة لكلٍّ منهم على حدة:

١ ـ أما (نوح) أبو البشر الثاني عليه السلام فقد أثنى عليه ربه العليم الخبير ـ جلّ وعلا ـ في آيات كثيرة، ثناءً ينفي عنه كل ريبة وتهمة، فعلى سبيل المثال قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات].

وهنا نتساءل:

هل يليقُ بنبيٍّ عظيم كنوح عليه السلام الذي وَصَفَهُ الله تعالى بالإيمان الكامل والإحسان التام، وبأنَّه سَلَّم عليه في كل العالمين، أيُّ سُوءٍ يُشِينهُ، كالسُّكْر والتعرِّي؟ اللهم لا، ولكن مؤلِّفي العهد القديم افتروا عليه وكذبوا.

٢ ـ وأما لوط عليه السلام وابنتاه الكريمتان العفيفتان، مثلهما في ذلك مثل

أهل بيت كل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فيكفيهم تزكيةً وتبرئةً، ثناءُ الله تعالى عليهم، كما قال تعالى ـ على سبيل المثال ـ:

١) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء].

٢) ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت].

وأقول:

أوَلا تَعْصِمُ لوطاً عليه السلام وأهْلَ بيته من السُّكْرِ والفَحْشاء والرذائل، النُّبوَّةُ والعلمُ والحكمةُ والصَّلاحُ والدخول في الرحمة؟! وكيف لا! ويعْصِمُ الإيمانُ المجرد ـ أي المجرد من النبوة والعلم والحكمة التي أُوتيها لوط ـ كثيراً من أهل الإيمان، مما هو دون ذلك!

٣) وأما قيام (يوسف) بتحنيط أبيه (يعقوب) ـ عليهما السلام ـ ، مع أن التحنيط لا يتم إلّا بالتمثيل بالجُثَّة أشنع مُثْلَةٍ![1] هذا من جانب، ومن جانب آخر، فالتحنيط له خَلْفِية فكرية وثنية، كما هو واضح لمن يَطَّلِعُ على تاريخه عند المصريين القدماء، وغيرهم من الشعوب الكافرة العابدة للأوثان، فكيف يُحنِّط يوسفُ أباهُ! هل ارتدَّ نبي الله يوسف عليه السلام عن التوحيد وطريق الأنبياء وقلَّد أهْلَ الأوثان، أم أن مُؤَلِّفي العهد القديم يفترون؟! وطالماً أننا لم نسمع بارتداد يوسف عليه السلام وهو محال على الأنبياء جميعاً ـ عليهم السلام ـ، فالجواب الثاني هو المتيقن الذي لا تحوم حوله شائبة الشك، ولنستشهد بآيتين كريمتين على كون يوسف عليه السلام ملتزماً طريق الأنبياء خصوصاً آبائِهِ الكرام (إبراهيم) و(إسحاق) و(يعقوب) ـ عليهم

(١) لأن التحنيط لا يتم الا بإخلاء الجثة من كل أحشائها الداخلية التي فيها رطوبة بدءاً بالمخ وانتهاءاً بالمعدة والأمعاء والكليتين والقلب والكبد، ثم تجفيفها وحشوها بمواد حافظة.

السلام ـ، وعلى كون علماء اليهود كذبة ومفترين على الله ـ إلا من رحم الله منهم وهداهم ـ:

أما بالنسبة لموقف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في اتِّباعه لدين الله الحق وٱقتدائه بآبائه الأنبياء، فقال تعالى على لسانه وهو يحاور رفيقيه السجينين:

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف].

وقال تعالى في معرض الحديث عن تحريف اليهود ـ حسبما يعرف من السياق ـ لكتاب الله الذي أودعهم الله تعالى إياه:

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران].

٤) وأما اتِّهام هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ بصنع العجل الذهبي، كي يعبده بنوا إسرائيل بَدَلاً عن الله رب العالمين، فمن أغرب الإفتراءات وأبعدها من كل نقل صحيح وعقل صريح، إذ كيف يرتكب نبيٌّ كريم ذلك الفعل الذي يَرْبَأُ بِنَفْسِهِ عنه حتى المؤمنُ البسيط؟!

ثم لماذا عاقب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عُبّاد العجل بأن يَقْتُلَهُم الذين لم يعبدوه، وهم (اللّاويّون) الذين طلب منهم موسى أن يأخذوا سيوفهم ويقتلوا عُبّاد العجل، وهم بدورهم نفَّذوا الأمر وقتلوا نحو ثلاثة آلاف رجل في ذلك اليوم ـ كما جاء في التوراة الحالية ـ[1] ولكن لم يعاقب (هارون) الذي كان نائباً عنه فيهم، ثم هو الذي ـ كما تقول التوراة ـ صنع العجل

(١) أنظر: الإصحاح (٣٢) من سفر (الخروج)، ص ١٤٦.

ليعبدوه، مع أن نبي الله موسى عليه السلام كان شديداً في الحق ولا يحابي فيه أحداً؟!

وإذْ زيَّفنا تلك الكذبة الشنيعة اليهودية بتوراتهم نفسها، فلنستمع إلى كتاب الله المبين المهيمن، ماذا يقول بهذا الصدد:

وقد ورد الحديث عن ذلك المَوْقِف في كتاب الله الخاتم في موضعين:

أولاً: سورة (الأعراف) الآيتان (١٥٠ ـ ١٥١)، حيث يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

ثانياً: في سورة (طه) الآيات (٩٠ إلى ٩٤)، كما قال جل شأنه بعد بيان أنّ (السامري) هو الذي صنع العجل الذهبي من حُليٍّ بني إسرائيل الذي قذفوه في النار:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾.

وهذه الآيات تَدُلُّنا في ما نحن بصدده، على ما يلي:

١ ـ أن هارون عليه السلام لم يصنع العجل الذهبي، بل ونَهى قومه أيضاً عن عبادة العجل، مُبيِّناً لهم أنه لا يوجد ربّ وإله سوى الله الرحمن جل شأنه، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾.

٢ ـ ولكن الضالِّين من قومه (بني إسرائيل) لم يستجيبوا له مُتَذرِّعين بانتظار عودة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُصَرِّحين بأنهم سيستمرون في عبادته إلى حين رجوع موسى إليهم: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

٣ ـ وإنما عاتبَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أخاه هارون، لظنه انه قد قَصَّر في الوقوف أمام ذلك الإنحراف، وليس لأنه صنع العجل أو حتى سكت عنه، وهذا واضح في صيغة عتابه وظاهره: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾﴾.

٤ ـ واعتذار هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ في مجموع آيات السورتين، يتمثل في شيئين:

أولاً: كونه وحيداً أمام ذلك الإنحراف وبلا نصير، أو كان أنصاره قلة مستضعفة، ولهذا استضعفه المنحرفون وكادوا أن يقتلوه بسبب وقوفه في وجهه: ﴿. . . إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي. . .﴾ [الأعراف: ١٥٠].

ثانياً: لعلمه بأن التصدّي العملي لذلك الإنحراف سيؤدي إلى حرب أهليةٍ، وخشيته مِنَ أنْ يُعاتِبَهُ أخوه موسى على إشعاله تلك الحرب بدون إذنه: ﴿. . .قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه].

٥ ـ ثم إن (السامري) اعترف لموسى صراحة بأنه هو الذي صنع لهم العجل:

٦ ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾﴾ [طه].

٧ ـ وكذلك قولُ هارون لأخيه موسى ـ عليهما السلام ـ بعد أن جَرَّهُ إليه مُمْسكاً بشعر رأسه ولحيته من فورة غضبه لله تعالى: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ دليل قاطع آخر على براءته، وذلك لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

ليس لهم أعداء شخصيّون، بل أعداؤُهم هم أعداءُ الله تعالى وأعداء دينه، لذا فالمقصود بـ(الأعداء) في قول هارون: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ هم عباد العجل الذهبي الذي صاغه لهم السامري، فالتمس هارون من أخيه الغاضب لله، موسى ـ عليهما السلام ـ ألا يعامله معاملة يفرح بها أعداؤه.

وكذلك مقصود هارون بـ(القوم الظالمين) ليس سوى الضالّين المنحرفين الذين خُدعوا بأكاذيب السامري المضل، وهذا تبرُّؤٌ جَليٌّ دونه الشمس من هارون الحليم عليه السلام من السامري وزمرته الوثنية الضالّة.

٨ ـ وأخيراً:

فدعاء موسى عليه السلام بطلب المغفرة والرحمة له ولأخيه، دليلٌ آخر على أن هارون لم يَتخلّفْ في مواقفه عن أخيه موسى، ولهذا قَرَنَهُ موسى في دعائه بنفسه، حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

وهكذا دافع كتابُ الله الحكيم عن أنبياء الله الكرام وبرّأهم من التُّهَم والافتراءات التي ألصقها بهم زوراً وظلماً، مؤلّفوا العهد القديم.

١٢) خُلوِّ التوراة من أي ذكر للآخرة، وكل ما يتعلق بها من القيامة والجزاء والجنَّة والنار:

وهذا دليل آخر على كون التوراة الحالية دخلتها تحريفات كثيرة، حيث لم يَجْرِ ذكرٌ للآخرة والقيامة والجنة والنار، في كل الأسفار الخمسة التي تتكون منها التوراة، أي: (سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية)[١] ولكن كتاب الله الحكيم الخاتم المهيمن، أثنى على كل من (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأنَّ الله مَيَّزَهُمْ بخصلة ذكرهم الكثير للدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ

(١) أنظر: ص(١ ـ ٣٥٣) من العهد القديم، إذ هذه الصفحات هي التي استغرقتها التوراة من (العهد القديم) البالغ عدد صفحاته (١٤١٩) صفحة، أما البقية فهي كتب أخرى ومن ضمنها (مزامير داود) و(حِكَمُ سليمان) وقصة (أيوب) ـ عليهم السلام ـ .

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص].

وكذلك خاطب الله تعالى عَبْدَه الكليمَ الكريم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول لقاءٍ له مع ربه وكلامه معه، بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

إذن:

أَين ذكر الآخرة والقيامة والجنة والنار ـ الذي بدونه يصبح الدين هيكلاً خاوياً ـ في التوراة الحالية، إن لم تكن يدُ التحريف والإخفاء قامَتْ بِحَذْفِهِ وإخلائها منه، إيغالاً لليهود في التَشَبُّث بالحياة الدنيا واحتضانها، كما هو ديدنهم منذ أمدٍ سحيق؟! كما قال تعالى بهذا الصدد:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة].

ونكتفي للتدليل على تحريف التوراة، بهذه الأمثلة الإثني عشر التي تقدم ذكرها، ولكن وكما قلنا سابقاً: التحريفات الواقعة في التوراة أكثر من هذا بكثير، وهذا كله في التوراة، وأما عندما ننتقل إلى بقية كتب (العهد القديم) والتي هي أربعة وثلاثون كتاباً، فَهُناك حدِّثْ ولا حرج في التحريفات التي فيها إساءات بالغة إلى اسم الوحي والدين، وإلى سمعة الأنبياء والرسل الكرام، وتقرأ فيها ما يقف له شَعْرُ الرأس ويصيبُ الرأسَ بالدوار، ويتعجب المرءُ: كيف جرؤ كاتبوها أن يُطْلِقوا عليها اسمَ الوحي وكلامَ الله ودِينَ الله!

وتوضيحاً للصورة أشير إلى كتابين، أحدهما منسوب إلى أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيِّ الله الصابر الذي ابتلاه الله ونَجَحَ في الإمتحان، وأَثْنى الله تعالى عليه بقولِهِ: (نِعْمَ العَبْدُ)، وثانيهما باسم (نشيد الأَناشيد) منسوب إلى

سليمان عليه السلام نبـي الله الحكيم الذي وصفه الله تعالـى بقولـه: ﴿...نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

١) (كتـاب أيّـوب):

فأما (كتاب أيوب) والذي يتكون من (٤٢)[1] إصحاحاً ويستغرق (٤٣) صفحة، فهو يحتوي على تحريفات، هي كفر صريح، لا يمكن أن تصدر عن مؤمن متوسط الحال، فكيف بنبيٍّ كريم مثل أيوب عليه السلام، وهذه بعض العناوين الرئيسة لتلك الأقوال المفتراة باسم نبـيِّ الله (أيوب)، نكتفي بـها عن الخوض في تفاصيل ذلك الكلام الغريب[2]:

١ ـ (أيوب يُعْلِنُ يوم مولده)[3].

٢ ـ (أيوب يَتَساءلُ: لماذا لَـمْ أمُتْ؟!)[4].

٣ ـ (أيوب يطالِبُ بإثبات ارتكابه الخطيئة)[5].

٤ ـ (أيوب لا يرى رجاءً)[6].

٥ ـ (أيوب يدَّعي البـراءة)[7].

٦ ـ (أيوب يحتجُّ على الله)[8] (أي ينتقده ويعترض عليه).

٧ ـ (أيوب يحتجُّ مرة أخرى على الله)[9].

---

(١) الإصحاح، في اصطلاح أهل الكتاب في مقابل (السورة) عندنا، وكتاب (أيّوب) عليه السلام في (الكتاب المقدس) من ص(٨٣٣ ـ ٨٧٥).

(٢) وكتاب (أيوب) إلى جانب تلك الطامّات التي أشرنا إلى عناوين بعضها، كذلك يحتوي على بعض جمل مفيدة، يستسيغها العقل، وتوافق النقل كسائر الكتب الأخرى.

(٣) أنظر: ص ٨٣٥.

(٤) نفس الصفحة.

(٥) أنظر: ص ٨٣٩.

(٦) نفس الصفحة.

(٧) أنظر: ص ٨٤١.

(٨) أنظر: ص ٨٤٢.

(٩) أنظر: ص ٨٤٣.

٨ ـ (أيوب يدَّعي أن غضب الله عليه)[١]. (أي إن الله سخط عليه ومقته).

وهذه هي العناوين فَحَسْبُ، وما تحتها أشنع، ومن الواضح أن هذه الأقوال كلها كفر أو قريب منه، وحاشا لعبد الله الصَّفيِّ أيوب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتكلم بمثل هذا الكلام أو شبهه، ولكنه الإفتراء والكذب اليهودي.

وأما حقيقة موقف أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في الإبتلاء الذي امتحنه الله الحكيم به، فهو ما يوضِّحه قولُه تعالى في وحيه الخاتم المعصوم:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

ومحالٌ أنْ يتفوَّه عبد مؤمن وصابرٌ وأوّاب (أي رَجّاع إلى الله) وقبل كل ذلك وفوقه (نَبِيٌّ)، بمثل هذا الكلام الذي افتراه عليه المفترون.

٢)كتاب نشيد الأناشيد لسليمان:

وأما هذا الكتاب الذي نُسِب إلى نبيِّ الله الحكيم (سليمان) ويتكون من (٨) إصحاحات في ثماني صفحات[٢]، والذي هو حوار حارّ بين عاشقين (رجل وامرأة) فهو ـ كما أرى ـ من أغرب ما في (الكتاب المقدس) وأبعده عن الوحي والنبوة والدين!

والإنسان يأخذُهُ العَجَبُ: ما هو الدافع الذي دفع مؤلِّفي (العهد القديم) إلى افتراء هذا الكلام الرَّخيص باسم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي الله الكريم الحكيم الذي سَخَّر الله له من بين كل أنبيائه الكرام ـ عليهم السلام ـ الجِنَّ

(١) أنظر: ص ٨٤٩.

(٢) أنظر: ص (١٠٣١ ـ ١٠٣٨).

والرِّيحَ والطيـرَ!! ثـم ما هي الفلسفة التـي يحتوي عليها مثل هذا الكلام الذي يدور كله حول:

إعجاب كُلّ من فتـى وفتـاة أحدهما بجسد الآخر والهيام به عشقاً وولهاً، وَتَـمَنِّي لو أنه يتسنـىَّ له اللِّقاء به واحتضانه!

هل يمكن أن يتكلم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهم أرزَنُ الناس خُلُقاً وأرجحهم عقلاً وأزكاهم نفساً، بـمثل هذا الكلام الذي لا يصدر إلَّا من مُراهق، وقع في غرامٍ سَلَبَه لُبَّه؟! أللّهم لا.

وإذا كان سليمان ﷺ هو ما يُصَوِّره (العهد القديم) من خلال كتاب (نشيد الأناشيد) والحوار الساخن الجاري بين (الـمُحِبّ) و(الـمحبوبة)[١]:

فلننظر من هو سليمان ﷺ ابن نبـي الله داود ﷺ في ضوء كتاب الله المبين، ووحيه المعصوم:

قال سبحانه وتعالى:

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٣ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾ [ص].

أجل:

هذا هو سليمان بن داود ﷺ نبـي الله الكريـم، الموصوف من لدن رب العالمين العليـم الخبيـر بـ(نعم العبد)[٢] و(أوّاب) والموعود بـ(زُلفى وحسـن مآب)!

---

(١) هاتان الكلمتان هـما عنوانا الحوار، وتكـرَّرَتا أربعـاً وعشرين مرة!

(٢) أجل إن سليمان ﷺ في كتاب الله المحفوظ هو (نعم العبد) وأما في (العهد القديم)=

ونختم هذا الموضوع بـهذا الكلام الذي جاء في كتاب (إرمياء) الذي يَعُدُّهُ (العهد القديم) نبيـاً من الأنبيـاء، في الإصحاح (٨) منه[١]، حيث يخاطب علماء اليهود قائلاً: (كيف تَدَّعون أنكم حكماء! ولديكم شريعة الرَّبِّ بينما حَوَّلَها قَلَمُ الكتبة المخادِعُ إلى أكذوبة!!) وهذه إدانة واضحة من (العهد القديم) لنفسه بأن قد وقع فيه التحريفُ وحَوَّلَهُ إلى أكذوبة على حد تعبير (كتاب إرمياء)، ثم لا نَنْسى أن هذا الكلامَ وُبِّخَ به اليهودُ المحرِّفون لكتب الله والـمشوِّهون لسمعة دينه وأنبيـائه، قبل أكثر من (٢٥٠٠) سنة من الآن[٢] والله وحده يعلم كم أضاف (قَلَمُ الكتبـة الـمُخادِع) من الأكاذيب إلى تلك الكتب خلال (٢٥٠٠) سنة الماضية!

ونكتفي بـهذا القدر من إيراد ما في (العهد القديم) من أباطيل وسخافات لا تليق ليس بكتاب الله فحسب، بل ولا حتى بكلام رجل مؤمن عاقل!

وننتقل الآن إلى العهد الجديد، ولكن قبل ذلك نُذَكِّر بحقيقة أشرنا إليها سابقاً:

إنَّ العهد القديم الـمُكوَّن من التوراة وغيرها من الكتب التي ينسبها أهل الكتاب إلى الله وإلى أنبيائه، قاسم مشترك بين اليهود والنصارى، لأن النصارى يَتَبَنَّوْنَ العهد القديم، مثل تبنِّيهم للعهد الجديد، ويعتبرونهما كليهما وحي الله تعالى!

= فقد وصف بأنه كانت له سبعمائة زوجة وثلاثمائة محظية، وأنهن استطعن في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى، وما لبث أن عبد (عَشْتاروت) إلـهة الصَّيدونيين و(ملكوم) إله العَمُّونيين!!

وهذا نص ما جاء في كتاب (ملوك الأول) الإصحاح (١١)، أنظر: ص ٥٧٥.

إذاً: فهذا هو قَدْرُ أنبياء الله الكرام في كتب أهل الكتاب!.

(١) أنظر: ص ١١٣٧، من (الكتاب المقدَّس).

(٢) أخذت هذه المعلومة من الترجمة الكردية للإنجيل (ئينجيلى پيرۆز)، حيث كتب في (ص ٤٨٦) منه تحت عنوان (توضيح المصطلحات): أن (إرمياء) أحد أنبياء الله عاش في القرن السابع قبل الميلاد، ومات بعد سنة (٥٨٧) ق.م.

ب ـ أمثلة من التحريفات الواقعة في العهد الجديد[1]

وقبل الشروع بذكر بعض الأمثلة من التحريفات والأفكار الباطلة التي حُشِّيَ بها ما يسمَّى بـ(العهد الجديد)، نقول:

إن الله تعالى أخبرنا أنه أنزل إنجيلاً واحداً على عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا واضح جداً في كل الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع، مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ...﴾ [المائدة: ١١٠]، ولكن العهد الجديد الذي يعتبره النصارى كلهم كتابهم الدينيَّ ووحي الله المُنزَل ـ بالإضافة إلى العهد القديم ـ يتكون مما يلي:

أولاً: أربعة أناجيل، لكلٍ مِنْ: (متَّى، مَرْقُسْ، لُوقا، يُوحنّا).

ثانياً: أعمال الرسل، الذي كتبه (لوقا) صاحب الإنجيل.

ثالثاً: أربع عشرة رسالة كتبها (بولس) إلى كنائس أو أشخاصٍ.

رابعاً: رسالة، كتبها (يعقوب).

(١) للإطلاع على النصرانية بالإضافة إلى (الكتاب المقدس) الذي تكلمت عنه سابقاً، قرأت كتاب (التفسير التطبيقي للعهد الجديد) البالغ عدد صفحاته مع الفهارس (١٠٩٢)، طبعة سنة ١٩٩٦، وهو أحدث شرح للعهد الجديد ـ فيما أعلم ـ كتبه لفيف من علماء النصارى، يعكس وجهة نظر النصارى حول كتابهم ودينهم في هذا العصر، والأمثلة التي آتي بها أخذتها منه.

خامساً: رسالتان، كتبهما (بطرس).

سادساً: ثلاث رسائل كتبها (يوحَنّا).

سابعاً: رسالة كتبها (يهوذا).

ثامناً: الرؤيا، كتبها (يوحَنّا).

والملاحظ أن الأناجيل الأربعة هي قصص وحكايات يَحْكيها كل من: (متَّى ومَرْقُسْ ولوقا ويوحنّا) عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي في مجموعها تمثل بعض المواقف والأقوال المنسوبة إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فالأناجيل الأربعة ـ حسب تَسْمية النصارى، وإلَّا فهي ليست إنجيلاً بالمفهوم القُرآنيِّ ـ ليست سوى ذكريات أو مُذكِّرات كتبها الأشخاص الأربعة الذين اشتهرت الأناجيل بأسمائهم.

ولكن أين الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!

والجواب:

ليس لذلك الكتاب الذي هو وحده الإنجيل الذي أوحاه الله إلى عبده ونبيّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وجود ـ حسبما نعلم ـ في هذا العصر وربما منذ زمن سحيق.

نعم لا شك أن بعض ما أوحاه الله إلى عيسى، موجود الآن فيما يسمّى الأناجيل الأربعة[1]، ولكن الذي لا مرية فيه أيضاً هو: أنه يَوجَدُ في تلك الأناجيل كثير من الأباطيل والخرافات التي لم يرسل الله رسله وأنبياءه ومن ضمنهم عيسى ـ عليهم السلام ـ إلَّا لمحاربتها وإزالتها وتطهير القلوب والأذهان منها.

والآن بعد هذا التوضيح حول (الإنجيل) الذي أوحاه إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) وأقصد به المفاهيم والمعاني الصحيحة وخاصة في مجال التعبد لله تعالى والتعامل مع الناس بخلق رفيع، والزهد في الدنيا وإيثار الحياة الطيبة الأبدية في الآخرة عليها، وإن وقع في هذا أيضاً تحريف وإفراط.

و(الأناجيل) التي تُنْسَبُ إلى بعض تلاميذه، نشير إلى بعض الأفكار الباطلة في العهد الجديد (أي الأناجيل الأربعة والكتب والرسائل الأخرى التي تشكل بمجموعها العهد الجديد):

١) ثـالوث: الأب، الإبـن، الروح القـدس:

النصارى يعتقدون أن الله تعالى يتكون من ثلاثة أقانيم وهم: الأب، الإبن، الروح القدس، والأقانيم جمع أقنوم!

وقد ذكرنا سابقاً: ـ في الفصل الأول من الكتاب الأول ـ أنه لا توجد فكرة بالنسبة للعقيدة في الله تعالى، أسخف وأتفه من فكرة الثالوث هذه، إذ هي مع شذوذها عن تعاليم كل الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الذين بعثهم الله تعالى بالتوحيد الخالص، كما بيَّنا ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب ـ أي الكتاب الثالث ـ بالتفصيل، كذلك هي مخالفة للفطر والعقول ومتصادمة معها، إذ هي غير مفهومة إطلاقاً، ولا يستسيغها أي عقل سليم، إذ كيف يكون الله تعالى واحداً ثم يكون ثلاثة في الوقت نفسه[(١)]؟!

---

(١) وههنا أودُّ أن أشيرَ إلى مسألتين في هذا المجال:
الأولـى: إن الأساس الذي بَنى عليه النصارى عقيدتهم الفاسدة القائلة ببنوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تبارك وتعالى الذي يسمّونه (الأب)، وعيسى الذي يسمّونه (الإبن)، هو:
ان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد من أم فقط بلا أب، وبما أنه لا يمكن للإنسان أن يولد إلا من أم وأب، إذاً: فالله تعالى هو أبو (عيسى)!!
وقد أورد (النيسابوري) في كتابه (أسباب النزول) قصة تؤيِّد ما قلناه، وذلك عند حديثه عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران].
قال المفسرون: إن وفد نجران (أي وَفْدُ نصارى نجران) قالوا لرسول الله، مالك تَشْتُم صاحِبَنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد، قال: أجل إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتّول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قطُّ من غير أب؟ فأن كنت صادقاً فأرنا مثله، فأنزل الله ﷻ هذه الآية.
ولا شك أن الآية المباركة جواب مُفْحِمٌ للنصارى، وذلك لأنه إذا كان عدم وجود الأب مُبَرِّراً لانتساب الإنسان إلى الله تعالى بالبُنوَّة، فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أولى بذلك، وذلك=

وقد طالعتُ العهد الجديدَ (متناً) مرتين، و(شرحاً) مرة، لعلّي أجدُ شرحاً وتوضيحاً لتلك الفكرة اللاّمعقولة على لسان أهلها، ولكن دون جدوى، ومن الجليّ أن تحاشي شراح (العهد الجديد) توضيح فكرة الثالوث والأقانيم الثلاثة، لَبُرهانٌ قاطِعٌ على عَجْزهم عن شَرْحها وتَبْيينها بصورة مُسْتَساغةٍ عقلياً، وكيف يستسيغ العقلُ فكرةً تتصادم مع قوانينه البديهية!!

وجدير بالذكر أن النصارى يقصدون بكلمة (الأب)، الله الخالق جل شأنه، وبكلمة (الإبن) عيسى ابن مريم ﷺ، ويقولون هو ابن الله حقيقة! وبكلمة (الروح القدس) شيئاً غامضاً، لا يُدرى تحديداً ما هو! ولكنه كان كهمزة الوصل بين الأب والإبن، وهو ـ كما يزعمون ـ ما زال همزة وصلٍ بين الأب وكل نصراني حقيقي!

= لأن عيسى على الأقل له (أم)، ولكن آدم ليس له أب ولا أم!

والعجيب في أمر عيسى ﷺ أن النصارى يُؤَلّهونه ويقولون هو ابن الله، واليهود يحقرونه ويقولون هو ابن زانية، ويرمون مريم ﷺ بالزنى، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء]! ولكن كلتا الطائفتين على باطل، فالأولى في إفراطٍ والثانية في تفريطٍ، وأما الحق والموقف الصائب فهو الذي أعلنه دين الله الحق على لسان خاتم النبيين وكتاب الله المبين، وهو أن عيسى ليس إلهاً ولا ابناً لله تعالى، وكذلك ليس ابن زانية، بل هو عبد الله ورسولُهُ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم من خلال (جبريل)، وسبب تسمية عيسى (كلمة الله) هو أنه خلق بكلمة الله وأمره مباشرة، وليس عن طريق اجتماع زوجين كسائر الناس!

الثانية: هناك سفسطة يردّدها بعض النصارى ضد الإسلام والمسلمين، مفادها هو:

إذا كان النصارى يقولون: إن الله ثلاثة أقانيم، فالمسلمون يقولون: إن الله تعالى تسعة وتسعون أقنوماً، لأنهم يطلقون عليه تسعة وتسعين اسماً!!

ولا شك إن هذا القول أوهى مِنْ أنْ يُحْوجَنا إلى الرد عليه، لأن المسلمين لا يقولون: إن المسمَّى متعدّد، بل يقولون إن الله تعالى واحد أحدٌ فرد صمدٌ، وأما تعدّد وكثرة أسمائه الحسنى وصفاته العُلى وتعَدُّدها فدليل على عظمته لا غير، وكل أسمائه وصفاته عناوين لخالقيته وربوبيّتِهِ وألوهيته جلّ شأنه، وهذا يختلف كلياً عن قول النصارى، بأن الله تعالى متعدّد في ذاته، إذْ تعدّد الصفات والأسماء شيء، وتعدّد الذات شيء آخر.

يقول شراح (العهد الجديد) بـهذا الصَّدد[١]:

(يقول الرب يسوع: ان الروح القدس يعطي حياة جديدة من السماء، ولكن من هو الروح القدس؟ إن الله أقانيم ثلاثة في واحد: الأب والإبن والروح القدس، قد صار الله بشراً في يسوع، حتى يموت الرب يسوع من أجل خطايانا... وعند صعود الرب يسوع إلى السماء، لـم يَعُـدِ الـمسيح يـحيا على الأرض بالجسد، لكنه وَعَدَ بإرسال الروح القدس، حتى يستمر وجودُه الروحي بين البشـر..).

ثـم الأغرب من كل هذا هو:

أن شراح (العهد الجديد) يُقرُّون بأنَّ عقيدة الثالوث، لم تذكر في الكتاب المقدَّس صراحة!، وهذا هو نصّ ما قالوه في هذا المجال، وذلك شرحاً على هذه الجملة لـ(بولس الرسول) في (الرسالة الثانية لمؤمني كورنثوس):

(سَلِّموا بعضكم على بعض بقُبْلَةٍ طاهرة، جميع القدِّيسين يُسَلِّمون عليكم، ولتكن معكم جميعاً نعمة ربِّنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس)[٢].

فيقولون في الشَّرح:

(يذكر الرسول بولس في بركة الوداعية الأقانيمَ (الثلاثة) الأب والإبن والروح القدس، ومَعَ أن عقيدة الثالوث لا تذكر صراحة في الكتاب المقدس، إلَّا أن آية مثل هذه تثبت أن هذا ما كانوا يؤمنون به)[٣].

---

(١) أنظر: الإصحاح الثالث من (إنجيل يوحنّا)، ص ٣٢٠ من الكتاب المذكور (الشرح).
(٢) أنظر: الإصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الثانية لمؤمني كورنثوس، ص ٦٣١ (المتن).
(٣) أنظر: شرح الرسالة المذكورة لبولس، ص(٦٣٠ ـ ٦٣١).

أَجَلْ: فحتى (العهد الجديد) الـمُحَرَّف، لـم يذكر عقيدة الثالوث النَّصرانية بصراحة ووضوح، وبنـاءً عليه: بَنـى النّصرانيّون عَقيدَتَـهُم الثالوثيـة على مجرَّد ظنون وأوهام، وعلى جُمَلٍ وتعبيرات غامضة تحتمل أكثر من معنى، وهاهُنا من حق كل عاقلٍ أن يتساءل:

أَوَ تُبْنـى العقيدة فـي الله تعالـى على مثل هذا؟!!

ومـما يـجدر ذكره هنا إنصافاً للحـق، هو:

إن (بولس) المُلَقَّبُ بـ(الرسول) والذي يُعتَبَرُ الشخص الثانـي بعد المسيح في النصرانية من حيث الأهمية، وَتُـمثِّل رسائِلَه ثُلُث (العهد الجديد) تقريباً[١]، أجل إن بولس يذكر التوحيد الحق، ويصف الله تعالى كما ينبغي له من التفرّد بالـخالقية والربوبية والعظمـة والـمجد في عدة مواضع من رسائله، ولكن شراح (العهد الجديد) يـمرّون بأقواله الحقة تلك مرَّ الكرام، ولا يُعَلِّقون عليها بشيء!

وهذه أمثلة من أقواله تلـك:

* (فللملـك الأزلـي الله الواحد غيـر المنظور وغير الفانـي الكرامة والمجد إلـى أَبَد الآبدين، آميـن)[٢].

* (فإنَّ الله واحدٌ والوسيط بين الله والناس واحد، وهو الإنسان يسوع الـمسيح...)[٣].

* (...وهذا الظهـور سَـيُتَمِّمُهُ الله فـي وقته الخاص، وهـو السيد الـمبارك الأوحد ملك الـملوك ورب الأرباب، الذي وحده لا فنـاء لـه،

(١) إذ (العهد الجديد) كله ـ حسب النسخة التي اعتمدتها للكتاب المقدس ـ (٤٦٠) صفحة، تستغرق رسائل بولس (١٤٧) صفحة منها، ومن (التفسير التطبيقي) (٣٠١) صفحة من ضمن (٩٤٤).

(٢) الإصحاح الأول من (الرسالة الأولى إلـى تيموثاوس)، ص ٧٣٩، (المتـن).

(٣) الإصحاح الثانـي من نفس الرسـالة السابقة، ص ٧٤٠، (المتـن).

الساكن فـي نورٍ لا يُدْنى منه، الذي لـم يره أيُّ إنسانٍ ولا يقدر أن يراه، له الكرامة والقدرة الأبديـة. آميـن)[1].

ومعلومٌ أن أقوال (بولس الرسول) هذه، يَنْسِفُ كلَّ الأباطيل المبنيَّة على الثالوث وبُنُوَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تعالـى، ولـهذا تحاشاها شراح (الكتاب المقدس) كيـلا يُحْرِجوا أنفُسَهُمْ!

وإلَّا فأين ما قاله بولس بأن الله تعالى واحد أحدٌ، ولم يره أحد، ولا يقدر أن يراه أحَدٌ ـ أي في هذه الحياة ـ وأنه هو وحده الذي لا يفنى... مما يقوله شراح (العهد الجديد)، حيث يقولون:

(ويجب علينا مثل المؤمنيـن في (كولوسي) أن نؤمن بألوهية يسوع المسيح، أي أن يسوع المسيح هو الله، وإلَّا يُصْبِح إيـمانُنا أجوف بلا هدفٍ ولا معنـى، وهذا هو الحق الرئيسيُّ في المسيحية)[2]؟!

إذ من الـواضـح أن بيـن ما قاله (بـولـس) ومـا يـقولـه (شـراح العـهد الجديد) كما بين السماء والأرض!

٢) القـول بأن عيـسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّـما صُلِبَ فـداءً للبـشرية وتكـفيـراً لخطايـاها:

وهذه فكرة خرافية أخرى أبتدعَها النّصارى، وأدخلوها في الدّين الحق الذي جاء به عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كسائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام.

وخلاصتها حسبما يقولها أهلها الضالّون، هي:

(أن الله تعالـى أرسـل عيسـى وهـو ابنـه الـوحيد وتَـجسَّدَ بشـراً، كي يُصْلَب ويقتل على الصّليب تكفيـراً لخطايا ذرية آدم كلها، رحـمةً من الله بالبشر، حيث جعل ابنه الوحيد فداءً لهم، كي ينالوا رحمته وغفرانـه)!!

فعلى سبيل الـمثال، يقول شرّاح (العهد الجديد):

(١) الإصحاح السادس من نفس الرسالة، ص ٧٤٩، (المتـن).
(٢) الإصحاح الأول من الرسالة إلى مؤمني (كولوسي) من بولس، ص ٧٠٠، (الشرح).

(فالمسيح هو رب كل الأرض، وقد مات لأجل خطايا كل الناس)[١].

ويقولون عند التعريف بـ(إنجيل لوقا):

(يصف لوقا كيف دخل ابن الله تاريخ البشرية، فقد عاش يسوع كنموذج مثالي كامل للإنسان، وبعد خدمة كاملة، قدّم ذاته ذبيحةً تامة عن خطاياها حتى نخلص نحن)[٢].

ويقولون:

(يسوع هو قائدنا الكامل ومخلِّصنا، فهو يُقدِّمُ غفراناً لكل مَنْ يقْبَلونه ربّاً وسيِّداً لحياتهم، ويؤمنون أن كُلَّ ما يقوله هو الحق)[٣].

ويقولون:

(وقد صار الله بشراً في يسوع حتى يموت الربُّ يسوع من أجل خطايانا)[٤].

وهذه الفكرة الخرافية التي لا تستند إلى شيء، وإنما هو مجرد قولٍ ووهم، من نوع الأفكار التي مجرّد تصوّرها كافٍ لمعرفة زيْفِها، وإلَّا:

١) كيف يصير الله العظيم الذي ليس كمثله شيء، بشراً؟!

٢) ثم ما علاقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بذنوب غيره، أَوَ لَيْس كل إنسان مسؤولاً عن نفسه؟!، وميزان الله العدل يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر].

ويقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ [فاطر: ١٨]، ويقول: ﴿...وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) الإصحاح (٢٨)، (إنجيل متى) ص ١١٣، (الشرح).

(٢) التعريف بـ(إنجيل لوقا) ص ١٩٦.

(٣) نفس الصفحة السابقة.

(٤) الإصحاح (٣) من (إنجيل يوحنّا) ص ٣٢٠، (الشرح).

٣) ثم نقول: هل إن صَلْبَ عيسى من أجل خطايا البشر، سببٌ لأن يـمحو الله عنهم تلك الخطايا أم لا؟!

فإن قالوا: نعم سبب لتكفيرها عنهم، فهذا يُعْتَبَرُ فتحاً لباب الذنوب والمعاصي، وَجَعْلِ الناس من حلّ في التقيُّد بالشريعة، وعند ذلك لا يبقى للنصرانية وطقوسها أي معنى، وإن قالوا: لا، ليس سبباً، فيقال: إذاً فما هو الفرق بين صلب عيسى وعَدَمِ صلبِهِ، طالما أن الذنوب في الحالين باقية؟!

هذا ومسألة صلب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطئة من أساسها، إذ يقولُ تعالى رداً على اليهود الزاعمين بأنهم قتلوا عيسى صلباً: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

إذاً: قد ألقى الله شَبَهَ عيسى على شخص آخر وأُعْدِمَ مكانه، وأما هو فرفعه الله تعالى إلى السماء، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾.

وهاتان الآيتان وكذلك آيتا (النساء) السابقتان، كلها صريحة وواضحة بأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُقْتَلْ ولم يُصْلَبْ، بل رفعه الله تعالى إليه، أي إلى السماء، وقد جاءت أحاديث نبوته صحيحة أيضاً بهذا.

وربما سبب اختلاط الأمر على النصارى واليهود، هو عدم رؤيتهم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند رفعه إلى السماء، ثم الرجل الذي جَعَلَه الله شبيهاً بعيسى بعد رفع الله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ زادهم لَبْساً وخَلْطاً، وقد أُعْدِمَ وصُلِبَ ذلك الرجل فعلاً، بدلاً منه كما تشير إليه الآيات.

ويبدو أن النصارى إنما تلقّفوا تلك الفكرة (أي كون عيسى مقتولاً

بالصلب) من اليهود ثم أَضْفَوْا عليها، وأضافوا إليها طابعاً عاطفياً، تبريراً لعدم دفاع الله تعالى عن ابنه الوحيد ـ حسب زعمهم الفاسد ـ وَجَلْباً لأنظار الناس وعواطفهم إلى دينهم الذي فدى نبيُّه جميعَ معاصيهم بنفسه!!

ولكن الباطل باطلٌ ولا ينقلب حقاً، ولا ينخدع به العقلاء، وإنْ زَخْرَفَهُ أصحابهُ بأنواع الزخارف.

٣) القول بأن كل السُّلطات السياسية مُرَتَّبة من الله ويجب الخضوع لها، ولا تَجوز مقاومتها مهما كانت:

وهذا ما صرّح به (العهد الجديد) في الإصحاح (١٣) من رسالة (بولس) إلى (مؤمني روما) حيث قال (بولس الرسول) ـ حسبما نسِبَ إليه ـ بالنص، تحت عنوان: (الخضوع للسلطات):

(على كل نفس أن تخضع للسلطات الحاكمة، فلا سلطة إلا من عند الله والسلطات القائمة مُرَتَّبَةٌ من قبل الله، حتى إنَّ مَنْ يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيجلبون العقاب على أنفسهم..)[(١)].

ولا شك أن هذا القول مخالفٌ لكل نقل صحيح وعقل صريح، إذ حسب هذا القول يُعتَبَرُ كل الأنبياء والرسل الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وكذلك العلماء والمجاهدون الذين تصدُّوا للملإِ المستكبرين والطواغيت المتجبِّرين، أمثال: (نمرود) و(فرعون) وغيرهما، خاطئين ومعارضين لترتيب الله!!

ولا شك أن هذا القول أضرُّ قولٍ على الإطلاق بالجماهير المُضْطَهَدةِ المستضعفة من قبل الأنظمة الطاغوتية، وكانت النصارى تُغَذِّي الجماهير الكادحة الرازحة تحت نير القياصرة والملوك والإقطاعيين والبابوات، بمثل هذه الأفكار المُخَدِّرة المنوِّمة تحت كابوس الظلم والإضطهاد في العصور الوسطى، وقبل عصر النهضة الأوربية، ولذا كان نصيبُها ـ بعد

(١) أنظر: ص (٥٥٠) (المتن)، وقد ارتبك الشراح في كيفية تفسير وتبرير هذا (الوحي) العجيب الغريب!! الذي يشبه وحي كل شيء، إلَّا وحي الله الحكيم العزيز.

أن اسـتيقظوا وانتـبهوا ـ أن رماهـا الناس ونبذوها نبـذ النواة! وكان هذا أهم الأسباب التـي دفعت الغرب النصرانـي ومن ضـمنه أمريكا، أن يُبْعِدَ النصـرانية من واقع الحياة، ويَتَبَنَّى اللاّدينيـة (العلمانية ـ سيكولاريزم).

٤) القـول بأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في عشاءِ الفِصْحِ أو العشاء الأخير قال لتلاميذه، بعد أن كسَّر الخبز وشَرِب الخَمْرَ وأعطاهما لهم: كُلوا هذا جسدي وهذا دمي:

كما جاء فـي الإصحاح (٢٦) من (إنـجيل متّـى)، والإصحاح (١٤) من (إنـجيل مَرْقُسْ).

وهذا هو نص ما جاء في (إنـجيل متّـى):

(وبينما كانوا يأكلون أَخَذَ يسوعُ رغيفاً، وبارك وكسَّر وأعْطى التلاميذ وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدي، ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً، اشربوا منها كلكم، فإن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، والذي يُسْفَكُ من أجل كثيـرين لـمغفرة الخطايا، على أنـي أقول لكم: إنـي لا أشرب بعد اليوم من نِتـاجِ الكَرْمَة هذا، حتـى يأتـي اليوم الذي فيـه أَشْرَبُهُ معكم جديداً في ملكوت أبـي)[1].

ولا شك أن هذه فِرْية عظيمة على لسان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ كيف يصبح الخُبْـزُ والخَمْـرُ ـ اللذين يتحـوّلان بعد ساعات إلـى دم وبول وغائطٍ ـ جِسْمَ المسيح ودَمَـهُ، بعد أكل النصارى وشربهم لهما؟! سبحانك هذا بـهتان عظيم، والخبز والخمر ليسا من الأمور المعنوية، حتـى يمكن توجيه القول المنسوب زوراً إلـى المسيح بنحوٍ ما!

هذا كله من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يشرب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الخمر التـي تَذْهَبُ بالعقل، وخاصة فـي وجبته الأخيـرة التـي يترك الدنيا بعدها وينتقل إلـى السماء! هذا ما لا يفعلُهُ مؤمن بسيط، فكيف بِنَبـيّ عظيم مثل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!!

(١) أنظر ص(١٠٠ ـ ١٠١)، وص (١٧٩).

٥) القـول بأن عيسى عليه السلام عاتَبَ الله تعالـى قُبَيْـل موتـه:

كما جاء في كل من (إنـجيل متّى) الإصحاح (٢٧)، و(إنـجيل مرقس) الإصحاح (١٥)، وهذا نصّ ما جاء في (إنـجيل متّى):

(. . . ونحو الساعة الثالثة صرخ يسوع بصوتٍ عظيم: (إيلي، إيلي، لما شبقتني؟) أي: إلـهي، إلـهي، لماذا تركتني؟!)[1].

ولفظ (إنجيل مرقس) هو عين هذا التعبير إلَّا أنه جاء (ألُوي ألُوي) بدل (إيلي إيلي) ويبدو أن كلاً من (ألوي) و(إيلي) كلمة عبرية بـمعنى: إلهي.

ومن الواضح أن هذا أيضاً افتراء على نبـي الله الكريـم عيسى ابن مريـم عليه السلام، وذلك لأن توجيه اللوم والعتاب إلى الله تعالـى كفرٌ، وحاشا لعيسى من الكفر!

ثم نقول: إن هذا الموقف المنسوب زُوراً إلى عيسى، مُتَناقِضٌ مع كل ذلك المديح الذي كالَهُ النصارى للمسيح عليه السلام من كونه ابن الله الوحيد، وكونه مستيقناً إنه سيذهب بعد موته إلى أبيه في السماء. . . إلخ (حسب زعمهم).

وأقول: هناك احتمال أن يكون ذلك القول ـ إنْ صحَّ نقله ـ قول ذلك الرجل الذي ألقى الله تعالى عليه شَبَه عيسى وأُعْدِمُ مكانه بدلاً عنه.

٦) نسبة أقوالٍ إلـى عيسى عليه السلام يُفْهَمُ منها جَزَعُهُ وفَزَعُهُ الشـديد من الموت:

كما جاء في الإصحاح (٢٦) من (إنـجيل متَّى)، والإصحاح (٢٢) من (إنـجيل لوقا):

---

(١) أنظر ص ١١٠، وص ١٨٨، وجدير بالذكر أن كلمة (شبقتني) كلمة (عبرية) وليست عربية، لذا من الخطأ إرجاعها إلى أصل عربي وهو (شبق) الذي يعني شدة الشهوة الجنسية!

(ثـم انـطـلـق وذهـب كـعـادتـه إلـى جـبـل الـزيـتـون وتـبـعـه الـتـلامـيـذ أيضاً. . .وابتعد عنهم مسافةً تقارِب رَمْيَةَ حجر، وركع يصلي قائلاً: (يا أبـي إن شئت أَبْعِدْ عنـِّي هذه الكأس، ولكن لتكون لا مشيئتـي بل مشيئتك، وظهر له مَلاَكٌ من السماء يُشدِّدُهُ. .)[1].

ومن الجليِّ أن هذا أيضاً من مفتريات النصارى على عيسى عليه السلام، إذْ كم من مؤمـنٍ من العلمـاء والـمجتهـدين، مَنْ يواجه الموت والقتل فـي سـبيل الله بصـدر رحب وقلـب ثابـت، فمـا بالك بالأنبيـاء الكـرام ـ عليهم السلام ـ!!

ثـم إن محاولات شرّاح (العهـد الجديد) لتأويل ذلك القول والموقف الذي نسبوه إلى عيسى، ليست بشيء[2].

٧) <u>إتـِّهام عيسى بالعلمانية، وذلك بِنِسْـبَةِ قول (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، إليـه:</u>

وهذا ما جاء في الإصحاح (٢٠) من (إنـجيل لوقا) تحت عنوان (دفع الجزية لقيصر) وهذا هو نَصّـهُ:

(فجعلوا يراقبونه، وبَثُّوا حوله جواسيس يتظاهرون أنّهم أبرار، لكي يمسكوه بكلمةٍ يقولها، فَيُسَلِّموه إلـى قضاء الحاكم وسلطته، فقالوا يسألونه: يا معلِّم! نعلم أنك تتكلم وتعلِّم بالصدق فلا تُراعي مقامات الناس، بل تُعَلِّم طريقَ الله بالحق، أَفَيَحِلُّ لنا أن ندفع الجزية للقيصر أم لا؟!، فأدرك مكرهم وقال لهم: أرونـي ديناراً، لـمن الصورة والنقش عليه؟ فأجابوا: للقيصر، فقال لهم: إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. . .)[3].

---

(١) أنظر: ص ١٠١ وص (٢٩٣ ـ ٢٩٤).
(٢) أنظر: ص ١٠١، وص ٢٩٣ (الشرح).
(٣) أنظر ص (٢٨٤ ـ ٢٨٥)، وكذلك أنظر ص ١٦٨، حيث (إنجيل مرقس) يَنْقُلُ نفس القصة وبنفس الألفاظ تقريباً، وكذلك ص ٨٥، حيث يَنْقُلُ (إنجيل متى) القصة نفسها.

ولا شك أن هذا افتراء آخر على لسان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لأن نتيجة هذا القول هي العلمانية (اللادينية) بعينها، أي حصر دين الله تعالى في مجال التعبُّد الشخصي، وإخلاء ساحة الحياة بكل جوانبها للطواغيت المتألِّهين على البشر، فيُحِلّون لهم، ويُحَرِّمون عليهم ما يشاؤون حسب أهوائهم!

وحاشا ثم حاشا لنبي الله الكريم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقول بتقسيم الناس وشؤون حياتهم بين الله تعالى وبين (قيصر) ويأمرهم بإطاعة كليهما معاً! إذْ هذا هو عين الشرك في كل من:

ربوبية الله، وألوهيته، وولايته، وحاكميته! وهذا مما لا يليق بأيّ مؤمن فاهمٍ لدينه، فكيف بِنَبيِّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ !

وقد لَخَّص عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كغيره من الأنبياء ـ رسالته في تبليغ الناس بأنه: (لا ربَّ لهم سوى الله تعالى، لذا فليعبدوه هو سبحانه وحده)، هذا ما حكاه الله العليم الخبير عنه في كتابه الحكيم في ثلاثة مواضع:

١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران].

٢) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...﴾ [المائدة: ١١٧].

٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف].

وأغلب الظن أن النّصارى ابتدعوا تلك المقولة ونسبوها لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بعد أن تَعرَّضوا للإضطهاد مِنْ قِبَلِ الدولة الرومانية الوثنية، تخفيفاً عن أنفسهم بتحريف دينهم، أي: افتداء أنفسهم بدينهم.

وإلّا فما معنى عبادة الله تعالى وحده واتخاذه وحده ربّاً، إذا أُشْرِكَ به قيصرُ وغير قيصر في الطاعة، وهل العبادة لله تعالى، إلّا الطاعة المطلقة له كما بيّنّا ذلك في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة؟! وجديرٌ بالذكر أنه حتى

الأناجيل الأربعة، تَنْقُلُ في أكثر من موضع عن عيسى عليه السلام، أمره بتجريد الطاعة والعبادة لله تعالى، كما جاء ـ على سبيل المثال ـ في الإصحاح (٤) من (إنجيل لوقا) أن عيسى قال لإبليس بعد أن أمره بالسجود له كي يعطيه ملك الدنيا:

(قد كُتِبَ: للرب إلهك، وإياه وحده تَعبُدْ)[١].

إذاً: فتلك المقولة المنسوبة لعيسى عليه السلام كذب وافتراء عليه، ومحال أن يأمر نَبِيُّ الله عيسى بإطاعة قيصر كافرٍ وثني ظالم يضطهد الجماهير، بأخذ الإتاوات والضرائب المُجْحِفَة منهم، كيف! وهل جاء الأنبياء الكرام إلَّا لتحرير الناس من الظلم والإضطهاد الذي يفرضه الطواغيت والحكام الظلمة المستبدُّون عليهم؟!

ثم هل كان يحدث أي صِدام بل شجارٌ بين الرسل والأنبياء الكرام والطواغيت لو كان قول: (أَعْطوا ما لقيصر لقيصر وأَعطوا ما لله لله) هو شعارَهم؟ كلّا، ولِمَ يَحْدُث الإصطدام، طالما أن الأنبياء ـ حسبما يزعم النصارى ـ يروِّضون الناسَ لطاعة الطواغيت باسم الله والدين، ويعطونهم الشرعية الكاملة؟!

بل الحق الذي لا مرية فيه أن عيسى عليه السلام كغيره من إخوانه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وكما حكاه كتاب الله المبين المهيمن على الكتب كلها عنه، كان يدعو الناس إلى التوحيد، وتجريد العبادة لله تعالى، واتخاذه وحده ربّاً وإلهاً، أي: أن يكون الناس كلهم قيصر وغير قيصر، عباداً لله ومطيعين له وَمُتَّبِعين لنبيِّه وشريعته.

ثم لا شك أن هذه الدعوة التوحيدية المُزلْزِلَة لعروش الطواغيت المستكبرين، هي التي أدَّت بالدولة الرُّومانية الوثنية في وقتها إلى الإقدام على محاولة قتل نبي الله عيسى عليه السلام والتنكيل به، بالتضامن مع اليهود

(١) انظر: ص (٢١٨ ـ ٢١٩).

الحاقدين عليه، وإلّا فالطواغيت لا يُبالون بِـمَنْ لا يتحسَّسون منه الضَّرر لعروشهم!

٨) نسبة القـول: بأنه لا زواج في الجنَّـة (أي لا حياة زوجية فيها) إلـى عيسى عليه السلام:

كما جاء في الإصحاح (٢٠) من (إنـجيل لوقا) وذلك عندما يسأله بعض اليهود (الصَّدُّوقيون) عن امرأة تزوجها سبع إخوة متعاقبين، كلما مات عنها أحدهم تزوجها الآخر، فلمن تكون تلك المرأة في القيامـة؟!

فيجيبهم عيسى ـ حسب زعم الأناجيل ـ بقوله:

(أبناء الزمان الحاضر يُزَوِّجون ويُزَوَّجون، أما الذين حُسِبُوا أهلاً للمشاركة في الزمان الآتـي والقيامة من بين الأموات، فلا يُزَوِّجون ولا يُزَوَّجون... لأنهم يكونون مثل الملائكة..)[1].

وهذا أيضاً من الإفتراءات على لسان عيسى عليه السلام، وقد حاول شرّاح العهد الجديد ترقيع هذا الكلام، دون جدوى، إذْ قوّلوه ما ليس فيه، وأوّلوه بما يُخْرِجُهُ عن محتواه[2]!

٩) نَـسْـبَـةُ أقوالٍ إلـى عـيـسـى فـي مـجـال الـتـعـامـل، مَـآلُـهـا: أن عـيـسـى عليه السلام يـأمـر أتـبـاعـهُ بـالـخـنوع وقـبـول الـضَّـيْـم واسـتـمـراء الـظـلـم والإضطهاد:

كما جاء ـ على سبيل المثال ـ في الإصحاح (٦) من (إنـجيل لوقا) تحت عنوان: (أَحِبُّوا أعداءكم) النص الآتـي على لسان عيسى عليه السلام:

(وأَمَّا لكم أيها السّامعون، فأقول: أحِبّـوا أعداءكـم، أحْسِنوا مُعاملة الذين يُبْغِضونكم، باركوا لاعنيكم، صلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم، ومَنْ ضربك على خدِّك، فأعرِضْ له الخدَّ الآخر أيضاً، ومن انتزع رِداءك، فلا

(١) أنظر: ص ٢٨٥.
(٢) أنظر: ص ٢٨٥، (الشرح).

تمنعْ منه ثوبك أيضاً، أي من طلب منك شيئاً فأعطِهِ، ومن اغتصب مالك فلا تُطالِبْهُ. . .)[1].

ونسجل على هذا الكلام الملاحظات الآتية:

١ ـ من المعلوم أن العفو والصَّفح عن إساءات الناس ـ في مجال التعامل الشخصي ـ طالما لا يؤدِّي إلى تجريء المُسيء وتماديه في الإساءة، يَسَعَهُ الشرعُ الذي بعث الله به الأنبياء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿. . .ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

٢ ـ وكذلك الدعاء لأهل الضلال بالهداية والصلاح، مما يسعه دين الله الحق، كما جاء في (صحيح البخاري) أن رسول الله ﷺ كان يحكي عن أحد الأنبياء أن قومه كانوا يؤذونه وقد أدْمَوْه، فكان يَمْسَحُ الدم عن وجهه ويقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٩٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٧٩٢).

٣ ـ وأما الذي لا يسعه شرعٌ، ولا يستسيغه عَقْلٌ، فهو:

أولاً: حُبُّ الأعداء، إذ أعدى أعدائنا هو إبليس لعنه الله، فكيف نُحبُّهُ؟ وكذلك كيف نُحِبُّ الطواغيت والظلمة والمُضْطَهِدين لنا وللناس؟!

ثم إذا أحبَبْنا أعداءنا ـ بإطلاق ـ فأين بغض أعداء الله وأعداء دينه وعباده ومعاداتهم؟!

وكيف نحبّ الظلمة والكاذبين والأشرار الذين لعنهم الله وملائكته؟!

وعليه: فهذا باطل قطعاً، والأنبياء لا يتكلمون إلَّا بالحق.

ثانياً: وكذلك لا يسع الشَّرْعُ ودينُ الله، الحق الخنُوعَ للظلم

(١) أنظر: ص ٢٢٨.

والإضطهاد، والرضوخَ لِمَنْ يُريدُ شيئاً من ممتلكاتك، فكيف بمن يُريدُ إهانَتَك وتمريغَ كرامتك!

ثالثاً: وكذلك لا يَسَعُ دينُ الله الحق، استعمالَ العفو والصّفح في كل الأحوال بلا استثناء، إن أدّى إلى تجريء المسيء، وتماديه في الظلم والإساءة!

رابعاً: وكذلك خلاف الشرع الحكيم والطبع السّليم، أن يستجيب الإنسان لكل ما يراد منه! وليس هذا في وسع آدمي سليم الطبع، فكيف بالمؤمن الذي يطالبه دينه الحق، أن يحفظ كرامته وشخصيّته، وأن يتمتّع بالعزة والإباء!

وبناءً عليه:

فما لا يسعه الدين الحق الذي أرسل الله تعالى به جميع أنبيائه، والذي هو في أصوله الكلية متفق عليه بينهم، وهو موافق للعقل والفطرة، أجل فما لا يسعه الدين الحق من الكلام المذكور، هو مما افْتُرِيَ على لسان نبيّ الله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو منه براءٌ.

ويصوِّرُ الكلامُ المذكور عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكأنه حَمَلٌ مسكين لم يَغْضَبْ من أحدٍ قطّ، ولم يكلِّمْ أحداً قطّ، إلَّا بكلامٍ حسن! ولكن يوجد كلام كثير في الأناجيل يخالِفُ هذا، ومنه ـ على سبيلٍ المثال ـ ما جاء في الإصحاح (٢٣) من (إنجيل متّى) تحت عنوان: (يسوع يعنِّف الكتبة والفَرِّيسيين) كلام طويل منسوب لعيسى، يخاطب فيه تينك الطائفتين من اليهود بشدة، ويكرّر قوله: (الوَيْلُ لَكُمْ) ثماني مرات، ويستعمل كلاً من الألفاظ والتعبيرات الآتية، مرة أو أَكْثَر[(١)]:

١) أيها الكتبة والفريسيون المرائلون!

٢) أيها القادة العميان!

(١) أنظر: ص (٨٩ ـ ٩٠).

٣) أيها الجهال والعميان!

٤) أيها العميان!

٥) إنكم تُصَفُّونَ الماء من البعوضة، وَتَبْلَعونَ الجَمَلَ!

٦) . . .ولكنكم في الداخل ممتلئون بالرياء والفسق!

٧) . . .فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناءُ قاتلي الأنبياء!

٨) أيها الحيّات، أوكار الأفاعي!

٩) كيف تفلتون من عقاب جهنم؟!

١٠) الحق أقول لكم: إن عقاب ذلك كلِّه سينزل بهذا الجيل!

وكذلك مما يتناقض مع الكلام السابق هو ـ حسبما نُسِبَ إليه ـ طرده الباعة من الهيكل، كما جاء في الإصحاح (١١) من (إنجيل مَرْقُسْ) تحت عنوان: (طرد الباعة من الهيكل).

ما يلي:

(ووصلوا إلى أورُشَليم فدخل يسوع الهيكل، وأخذ يطرد الذين كانوا يبيعون والذين كانوا يشترون في الهيكل، وقلَّب موائِد الصَّيارفة، ومقاعد باعة الحَمَام، ولم يَدَعْ أحداً يمرُّ عبر الهيكل وهو يحمل متاعاً. . .)(١).

وكذلك يناقض ويتصادم معه، قوله ـ حسبما ينسب إليه ـ في الإصحاح (١٢) من إنجيل (لوقا) تحت عنوان: (يسوع والعالم):

(جِئْتُ لأُلقي على الأرض ناراً، فَلَكم أَوَدُّ أن تكون قد اشتعلتْ. . . أتظنّون أني جِئْتُ لأُرسيَ السلام على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل بالأحْرى الإنقسام)(٢).

---

(١) أنظر: ص (١٦٥ ـ ١٦٦).

(٢) أنظر: ص ٢٦١.

ولا يخفى على أَحَدٍ أن تلك الأقوال والمواقف، تَتَنَاقَضُ وتتصادَمُ مع ذلك الكلام الذي نقلْناه أولاً وعلّقنا عليه.

ثـم نَقُـولُ:

ولكن أين النّصارى الغربيّون اليوم وبالأمس، في تعاملهم مع غيرهم وخصوصاً المسلمين، من ذلك الكلام الذي ينسبونه إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ! فياليتهم اكتفوا بِردِّ الظلم بمثله، ولم يتجاوزوا إلى السبق والمبادرة بالظلم والعدوان واغتصاب بلادهم ونهب خيراتهم، علانيةً أحياناً، وتحت شعارات زائفة براقة أحياناً أخرى، وكل ذلك بمباركة البابا والقساوسة، أو على الأقل بسكوتهم الدالّ على الرِّضا!

١٠) وصف تلاميذِ عيسى وحواريِّه كُلِّهم، بالجُبْن والفرار عنْ عيسى والشـكِّ فيـه والخذلان:

كما جاء في الإصحاح (٢٦) من (إنجيل متّى)، والإصحاح (١٤) من (إنجيل مرقس) وذلك تحت عنوان: (القبض على يسوع):

وهذه هي عبارة (متّى):

(عندئذٍ تَرَكَهُ التلاميذُ كلُّهم وهربوا)[١].

وأما عبارة (مرقس) فهي:

(عندئذٍ تركه الجميع وهربوا، وتبعه شابٌّ لا يلبسُ غيـر إزارٍ على عُرْيه فَأَمسكوه، فترك الإزارَ وهرب منهم عرياناً)[٢].

ومما لا شك فيه أن كل هذا من تحريفات النصارى ولا أصل له، والعجيب في الأمر أن النصارى يعتبرون كلّ التلاميذ الإثنـي عشر ـ أي الحواريين حسب مصطلحنا الإسلامي ـ أنبياء وأصحاب وحي، ولكن يصفونهم هكذا بالجبن وخذلان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!

(١) أنظر: ص ١٠٣.
(٢) أنظر: ص ١٨٢.

والدليل على كذب هذا القول، هو أن الله تعالى مَدَح الحواريين ﷺ وأثنى عليهم في أكثر من آية، بأنهم ساندوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وظاهروه ونصروه ولم يتخلّوا عنه، وهذه هي الآيات الواردة بهذا الصدد:

١ ـ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة].

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ...﴾ [الصف: ١٤].

وهذه الآيات واضحة الدلالة على أن حواريِّي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتلاميذه المُقَرَّبين، كانوا مؤمنين حقاً، وكانوا عَضُداً ونصيراً لنبيهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى أن رفعه الله تعالى إلى السماء، وأنقذه من الرومان الظالمين واليهود الحاقدين، ولم يَخذُلوه ولم يُخلُوا ظَهْرَهُ لحظة، خلاف ما جاء في الأناجيل.

وكفى بالحواريين فَخْراً، أن يُثْني عليهم ربُّ العالمين، وتكفيهم شهادةً على إيمانهم وثباتهم وصِدْقهم، أن يأمر الله تعالى أمة خاتم النبيين وفي مقدِّمتها الأصحاب الكرام رضوان الله عليهم، أن يأتسوا بالحواريين الذين نصروا عيسى ابن مريم وساندوه، في نصرهم رسول الله (محمداً) ﷺ ودينَهُ الحق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ...﴾ [الصف: ١٤].

فهل هناك ثناءٌ وتزكيةٌ أعظم من هذا؟!

وفي ختام هذا الموضوع ـ أي إثبات كون كتب اليهود والنصارى دَخَلَ عليها التحريف والتغيير والنسيان والإخفاء ـ أقول:

كل من يَطَّلِعُ عن كَثَبٍ على كتب اليهود والنصارى، ويقف على محتواها، ثم يستقريءُ واقع المجتمعات الغربية الحالي وتاريخها، وكيف نَفَرَتْ من الكنيسة وتعاليمها، ثم رفضت الدين جملة وتفصيلاً، واتجهت بعنفٍ نحو الإلحاد واللاّدينية..الخ، يُدْرِك بوضوح أن السبب الأساس الذي أدّى بِها إلى اتخاذ ذلك الموقف، هو: تلك التحريفات والافتراءات التي شُحِّنَتْ بها كُتُبهم الدينية، تلك الكتب التي كانت يوم أن أنزلها الله تعالى على (موسى وداود وعيسى) ـ عليهم السلام ـ نوراً وبركة وهدىً وفرقاناً، كما وصفها الله تعالى في كتابه المبين المهيمن، ولكن بعد التحريف والتغيير صارت ـ بقدر ما دخلها من تحريف ـ وبالاً وعِبْئاً ثقيلاً عليهم، وبما أن الغربييِّن لم يكن لديهم ـ أي أكثريتهم الساحقة ـ إطّلاعٌ صحيح على كتاب الله الأخير، ونوره المبين، وميزانه الصحيح المهيمن على الكتب السابقة (القرآن العظيم)، لم يستطيعوا أن يُغَرْبِلوا كُتُبَهم المحرَّفة، ويميِّزوا بين الصَّحيح والسقيم فيها، وبالنتيجة رفضوها كلّها وتخلّصوا منها نهائياً.

وهذه هي نتيجة تحريف وحي الله وتغييره بالزيادة والنَّقص، وخَلْطُ الحق بالباطل، كما قال تعالى مُوَبِّخاً أهل الكتاب في هذا المجال:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران]، والمقصود بِلَبْسِهم الحق بالباطل، هو إدخالُ تلك التحريفات التي تحدّثنا عنها، بدين الله تعالى المتمثل في كتبه ووحيه، كما أن المقصود بكتمهم الحق هو إخفاؤهم للبشارة التي ضمّنها الله الحكيم كتبهم، بمجيء النبي الخاتم، ونور الله الأعظم، المصدِّق للكتب السابقة محمد ﷺ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث السادس

الكتُبُ السابقة حتى لو بقيت سالمة، لما كانت كافية ووافية في أحكامها التفصيلية للمجتمع البشري الحالي

أجل إن الكتب السابقة التي أنزلها الله تعالى على الأنبياء السابقين لمحمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعليهم أجمعين، حتى لو بقيت سالِمةً من التغيير والتحريف والنسيان والإخفاء، لما كانت متكافئة ومنسجمة في أحكامها الجزئية التفصيلية، مع أوضاع وأحوال المجتمع البشري في هذه العصور وما بعدها، وذلك ليس لنقصٍ فيها، بل لأن الله تعالى إنما أنزلها لواقع آخر، ولِمراحِلَ أخرى سابقة في حياة المجتمع البشري.

إذاً:

فالكتب السابقة حتى على سبيل فرض وجودها، وبقائها سالمة لَمْ تُمَسّ، ما كانت لتعوِّض عن القرآن، بل البشرية محتاجة إلى كتاب الله الأخير الذي ختم به إيحاءَهُ للبشر، على يد سيّد الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ.

ولهذا جعل الله الحكيم كتابه الأخير (مُصدِّقاً) للكتب السابقة، وهذه خاصية مشتركة بينه وبين كل كُتُب الله تعالى، وكذلك جعله (مُهَيْمناً) عليها، وهذه خاصية انفرد بها هو وحده من بين كل كتب الله، لكونه نازلاً

بعدها كلها، لذا فلا بُـدَّ من أن يقوم بالرقابة والشهادة عليها جميعاً، كما قال تعالى مخاطباً نبيّه الخاتم ﷺ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . .﴾ [المائدة: ٤٨].

حيث وصف الله تعالى كتابه الحكيم الذي أنزله على خاتم النبيين وختم به كتبه ووحيه للبشر، بعد الحديث عن التوراة والإنجيل في الآيات التي قبل هذه الآية، بثلاثة أوصاف:

١ ـ بالحق.

٢ ـ مُصَدِقاً لـما بين يديه من الكتاب.

٣ ـ مهيمناً عليه(١).

١ ـ فالقرآن أنزله الله الحكيم جلَّ شأنه كسائر كتبه الأخرى، حاوياً على الحق المطلق والهدى التام من كل الوجوه، وفي كل جوانب الحياة الفردية والجماعية.

٢ ـ وهو مصدّق لكل الكتب السابقة عليه، أي يعتبرها كلّها صادقة وحقاً، وتصديق القرآن للكتب السابقة، يعني شيئين:

أ) تصديق نزولها من الله تعالى، أي: تصديقها من حيث كونها منزلة من الله تعالى.

ب) تصديق محتواها، أي تصديقها من حيث كونها حاوية على الحق، وهذا أيضاً يعني شيئين:

أولاً: كل كتب الله تعالى من حيث المبدأ والأساس، حاوية على الحق الكلّي المطلق الذي لا يختلف ولا يتنوَّع باختلاف الشرائع وتنوّعها، بل هو ثابت في كل الأحوال وكل الشرائع متفقة عليه، وهذا هو المقصود بالآية الكريمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا

(١) هَيْمَنَ على كذا: سَيطَر عليه وراقَبَهُ وحَفِظَه. المعجم الوسيط، ص١٠٠٥.

بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ...﴾ [الشورى: ١٣].

ثانياً: كل كتابٍ من كتب الله حاوٍ ـ من حيث التفصيل وواقع الحال ـ على ما هو حق وصواب من الأحكام، بالنِّسبة للمجتمع المعيَّن الذي أنزل فيه، والمرحلة الخاصة التي كانت البشرية تـمرُّ بها.

٣ ـ وكذلك هو مهيمن، أي: رقيب وشاهد على الكتب الربانية السّابقة: فَيُصَحِّحُ الإنحرافات التي أحدَثَها النّاسُ فيها، ويبيِّن وَجْهَ الحق في كل ما اختلف فيه أهلُ الكتاب، مـمّا يَلزَمُ بيانهُ وإيضاحُه، كما قال تعالى مخاطباً أهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى في نفس الصَّدد:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل].

وإنَّـمـا قـال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ لأن الله تعالى لـم تَقْتَضِ حكمتُهُ أن يَضَعَ كتابُهُ الحكيـمُ المبيـن، النقاط على الحروف في كل المسائل التـي اختلف فيها أهلُ الكتاب، وانجرفوا فيها مع تيّار التحريف والتشـويه لدين الله وكتابه، واقتصر فقط على ما يُهِمُّ الناسَ تصحيحُهُ، بعد مجيء النبـيِّ الخاتم إلى قيامِ الساعة.

وبناءً عليه:

فكل القضايا والمسائل التـي فيها اختلافٌ بين كتب أهل الكتاب وبين القرآن العظيم، فالقرآن هو الحَكَمُ الذي ينطق بالحق والحُكْم الفصل فيها، لأنه مهيمن عليها جميعاً، وهذه هي الحكمة ـ أو إحدى حِكَمٍ ـ كون القرآن

محفوظاً بحفظ الله الحفيظ، من بين كل الكتب الربانية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وذلك لأن القرآن الحكيم هو آخر كتب الله ووحيه الخاتم، الذي لن يُنْزِلَ الله تعالى بعده كتاباً ووحياً، إذاً: لو لم يكن القرآن محفوظاً من التحريف والتغيير، كيف كان يمكن تصحيح ما يقع فيه من تحريف وإصلاحُهُ!!

وبهذا نختم هذا الفصل الرابع وننتقلُ بإذن الله إلى الفصل الخامس والأخير من هذا الكتاب، والذي يُشَكِّلُ مُعْظَمَ هذا الكتاب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الخـامـس

القرآن العظيم آخر
كتب الله تعالى لأهل الأرض

ستتحدَّث عن القرآن العظيم في خمسة مباحث:

١) أسماء القرآن العظيم.

٢) أوصاف القرآن الكريم.

٣) خصائص القرآن المبين.

٤) إعجاز كتاب الله العزيز.

٥) كيف نتعامل مع كتاب الله الحكيم؟!

ونبدأ بالمبحث الأول بإذن الله وتوفيقه:

المبحث الأول

أسماء القرآن العظيم

سـمَّى الله تبارك وتعالى كتابه الذي أنزله على (محمد) خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين ﷺ (قرآناً وكتاباً وذكراً وفُرْقاناً):

١) القرآن:

وهذا هو الإسم الأشهر لكتاب الله الخاتم، وورد ذكر اسم (القرآن) في آيات كثيرة، منها هذه الآيات:

١ ـ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر].

٢ ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

٣ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

٤ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل].

٢) الكتـاب:

وهذا الإسم بعد اسم (القرآن) الذي هو الإسم العَلَمُ لوحي الله المنزّل على النبي الأمي الخاتم ﷺ، هو الأكثر شهرة، وهو أكثر وروداً حتى من اسم القرآن نفسه.

وهذه بعض الآيات التي ورد فيها لفظ (الكتاب) اسماً لكتاب الله الخاتم:

١ ـ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص].

٣ ـ ﴿...وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

٤ ـ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ...﴾ [إبراهيم: ١].

وقد قَرَن الله تعالى بين اسمي: القرآن والكتاب في مَوْضِعَيْن اثنين:

أولهما: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ [الحجر].

ثانيهما: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النمل].

٣) الذكر:

وهذا الإسم أيضاً كثير الورود في كتاب الله الحكيم، ومن الآيات التي ورد فيها لفظ (الذكر) كاسم للقرآن الكريم:

١ ـ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

٢ ـ ﴿...وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت].

٤ ـ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧﴾ [التكوير].

٤) الفرقـان:

وهذا الإسم هو أقـل الأسـماء الأربعة وروداً في كتاب الله ﷻ، إذْ لـم يَرِدْ كاسم للقرآن إلّا في مَوْضِعَيْن:

١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان].

٢ ـ ﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران].

ومعانـي هذه الأسـماء المباركة باختصار، هي:

١) **القـرآن**: أي الـمقروء أو القراءة، وذلك لأن كتاب الله المبارك يُقرأُ ويتلى بالألسن، قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ⑱﴾ [القيامة].

٢) **الكـتـاب**: أي الـمكـتـوب، لأن القرآن العـظيـم كـما أنه يُـقْـرَأ ويُتْلى، كذلك هو مكتوب ومُـدَوَّن، سـواء من قبل الناس، أو من لدن مُنزِّله الحكيم ـ جلَّ وعلا ـ وملائكته الكرام، كما قال تعالـى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ⑰ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ⑱ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ⑲ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑳﴾ [الواقعة].

٣) **الذكـر**: أي الـمذكِّر، وذلك لأن القرآن يذكِّر الناس بالحقائق التي ركَّز الله تـعالـى أصولـها والإستعداد لـمعرفتها وقبولها في فِطَر النـاس وعقولـهم، أو (الذكر) هُنا بـمعنى البيان، أي البيان الربانـي للبشر فيما يحتاجونه في هذه الحياة.

٤) **الفرقـان**: أي الفارق والفاصل والمُمَيِّز، وذلك لأنه يُفَرِّقُ بين الحق والباطل، ويَفْصِلُ بين الحلال والحرام، ويـميِّز بين المعروف والمنكر[١].

ونـنتقـل الآن إلـى المبحث الثانـي:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٣٤.

المبحث الثانـي

أوصاف القرآن الكريم

وصف الله العظيم الخبير سبحانه وتعالى، كتابَهُ الحكيم بنعوتٍ جليلةٍ وأوصاف عظيمةٍ، تدلُّ على ما لكتاب الله من مقام رفيع وشأن عظيم، وكذلك تدلّ على الآثار والبركات التي يُثْمِرُها ذلك الكتاب الكريم، في المستمسكين به، والمهتدين بهداه المستقيم، والمستنيرين بنوره الـمبين.

وقد حاولت أن أجمع تلك الأوصاف والنعوت الجليلة في الأربعين وصفاً الآتية، ولكنْ لا أدّعي أنّني استقصيتُ كُلَّ ما وصف الله العليم به كتابه الكريم.

١) العظيـم:

كـما قـال تـعـالـى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر]، والمقصود بالسبع الـمثاني هو الآيات السبع في سورة الفاتحة المباركة لأنها تُثَنَّى في الصلوات وتُكَرَّر، أو لأنـها يُثْنى بِها على الله تعالى، والقرآن العظيم هو سور القرآن كلها ومن ضمنها الفاتحة.

٢) كـريـم:

كما قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة].

وكتاب الله ذو كرامةٍ وقدرٍ وشرفٍ، إِذْ هو على قدر قائله جلّ وعلا،

وكذلك هو كريم جواد جَزيلُ العطاءِ لمن يقرأه ويحمله بِصِدْقٍ[١].

٣) مـجيـد:

كما قال الحميد المجيد سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج].

والمجيد هو صاحب المجد والعُلُوّ والسُّؤْدد[٢].

٤ و٥) علـيٌّ، حكيـمٌ:

كما قال المولى عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف].

والعَلِيُّ والعاليُّ هو ذو العلوِّ والرفعة، والحكيم هو ذو الحكمة.

٦) عزيـز:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

والعزيز هو ذو العـزّة الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، وكذلك كتاب الله، ولهذا عَرَّفَهُ سبحانه بعدم تطرق الباطل إليه من أي جهةٍ وبأيِّ وجْهٍ[٣].

٧) عَجَـب:

كما قال تعالى على لسان الجنِّ المؤمنين المتأثِّرين بالقرآن العظيم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن].

والعَجَب مَصْدَر (عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَباً) وهو هنا بـمعنى (عجيب)

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٠٧، لفظ: (كرم).

(٢) المصدر نفسه، ص٧٦٠، ٧٦١، لفظ: (مجد)..

(٣) المصدر نفسه، ص٥٦٣، لفظ: (عَزَّ).

و(العجيب) هو الشيء الذي يُدْهِشُ رائِيَهُ أو سامِعَهُ[1]، ويستعمل للمدح والذم، ويُحَدِّد أحَدَهُما السياقُ، وكتابُ الله مُدْهِشٌ بل محيِّرٌ إلى أقصى حدٍّ.

٨) مُبين:

كما قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف].

والمبين هو الواضح البيِّن في نفسه، والموضِّح المجلِّي لغيره، يقال: (بان الشيء) أي وَضَحَ وظَهَر، ويقال: (أبان الشيءُ: ظهر، وأبانَ فلانٌ قَصْدَه) أي أظهره، لازماً ومتعدِّياً.

٩) مبارك:

كما قال ـ جل وعزَّ ـ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام].

والمبارك هو ذو الخير والبركة[2].

١٠) نور:

كما قال ـ جلّ وعزّ ـ: ﴿...قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥].

والنور واضحٌ في نفسه ومُجَلٍّ لغيره.

١١) حق:

كما قال الحقّ جلّ شأنه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۝٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾ [الزخرف].

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٤٦، لفظ: (عجب).

(٢) المصدر نفسه، ١١٩، لفظ: (برك).

ومعنى (الحق) في أصل اللغة، هو الثابت الراسخ الذي لا يَتَزعْزَعُ ولا يزول[1].

١٢) بُرهان:

كما قال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء].

والبرهان هو الدليل الجليّ الواضح الذي لا يمكن إنكاره[2].

١٣) بيِّنة:

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿... فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ ...﴾ [الأنعام: ١٥٧].

والبيِّنة هي الحجَّة القاطعة الدّافعة التي تُفْحِمُ المقابِلَ وتُسْكِتُهُ[3].

١٤) هُدىً:

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة].

والهدى هو الدلالة على الحق والطريق الصحيح.

١٥) رحمة:

كما قال الرحمن الرحيم تبارك اسمه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل].

---

(١) التعريفات للجرجاني، ص٩٣،٩٤، لفظ: (الحق).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، ص١٢١، لفظ: (بره).
(٣) المصدر نفسه، ص١٥٧، لفظ: (بان).

وسمّى الله تعالى كتابه الكريم رحمةً، لأنه سبب نيل رحمتِهِ ورضوانه.

١٦) موعظة:

كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [يونس: ٥٧].

والموعظة هي كلّ قولٍ يصدر من مُشْفِقٍ يُمْزَجُ فيه الترغيب بالترهيب بغية اتّعاظ الموعوظ.

١٧) شفاء:

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ...﴾ [فصلت: ٤٤].

والشفاء هو زوال الداء، والبُرْءُ من المرض، وعودة الصِّحة والعافية.

١٨) بُشرى:

كما قال جلّ شأنه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل].

والبشرى والبشارة هي كل قول أو خبَرٍ سارّ، يُدْخِلُ السرور في قلب سامعه[1]، وكتاب الله يُبَشِّرُ الإنسان فرداً ومجتمعاً، بكل ما هو خير في الدنيا والآخرة.

١٩) ذكرى:

كما قال تعالى: ﴿...قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾: [الأنعام: ٩٠].

(١) المصدر نفسه، ص١٢٤ ـ ١٢٦، لفظ: (بشر).

والذِّكرى هي سبب التذكُّر والإتِّعاظ، أو كثرة الذكرِ وهو أبلغ من الذِّكر(١).

٢٠و٢١) بشـير ونذيـر:

كـما قـال الله تـعـالـى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . . .﴾ [فـصـلـت: ١ - ٣].

والبشيـر هو الـمبشِّر، أي الـمُخْبِـرُ بالخبـر السارّ، كما أن النذير هو الـمُنْـذِرُ، أي الـمُخْبِـرُ بـما هو مخوف، وكتاب الله يُبَشِّرُ الناس إن أطاعوا ربـهم برحـمته ورضوانه وثوابه، كما ويـخوِّفهم إنْ عَصْـوهُ بغضـبه وسَـخطِه وعِقـابه.

٢٢و٢٣) صِـدْق وعَـدْلٌ:

كـما قـال تـعـالـى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقًا وَعَدۡلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ . . .﴾ [الأنعام: ١١٥].

أي إن كلام الله المبارك أخباره تامَّةٌ في الصِّدق، وأحكامه تامَّةٌ في العدل، فلا كَذِبَ في أخباره، ولا خُلْفَ في وعوده، ولا جَوْرَ في أحكامه أَبداً.

٢٤) روح:

كـما قـال تـعـالـى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ . . .﴾ [الشـورى: ٥٢].

وكما لا يقومُ البَـدَنُ بلا روح بل لا وجود له بدونـها، كذلك القرآن روح الحياة البشـرية ولا تستقيم بدونه أبـداً.

(١) المصدر نفسه، ص٣٢٩، لفظ: (ذكر).

٢٥) مُحْيـي:

كما قال تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ...﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ...﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أجل والله إن كتاب الله لروح وأيَّةُ روح! لا تسري في حياة شخص أو شعب أو أمة إلَّا وحوَّلها بعد أن كانت حياة لهو ولعب واهتمامات هابطة، إلى حياة جِدٍّ وطُهْرٍ وعُلوٍّ همَّةٍ ونُبْلِ مقصدٍ، حياة تليق بالإنسان الذي اختاره الله الحكيم من بين مخلوقاته العلوية والسفلية جميعها، لحمل أمانته الثقيلة والخلافة عنه في الأرض.

٢٦) أحسـن الحديـث:

كما قال جلّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ...﴾ [الزمر: ٢٣].

وكيف لا يكون كلام رب العالمين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين أحسن الحديث؟ بل حُسْنُ كلام الله تعالى حُسْنٌ مطلقٌ وغير متناهٍ في الحُسْن.

٢٧و٢٨) متشـابهاً مثـاني:

كما قال تبارك وتعالى: ﴿...كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ...﴾ [الزمر: ٢٣].

وسَمَّى الله الحكيم كتابه متشابهاً، لأنَّ سورَهُ وآياتِهِ متشابهةٌ بعضها مع بعض، في الروعة والبهاء والعلوّ، كما وسمّاهُ مثاني لأنَ المقاصد العظيمة والمعاني العالية، تُثَنَّى فيه وتتكرَّرُ متنوعة، أو لأنه يشتَمِلُ على حمد الله تعالى والثناء عليه.

٢٩) غيـر ذي عـوج:

كـما قال رب العـالـمين جلّ شأنه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر].

والمقصود بالعوج هنا، هو الإضطراب والإختلاف والإنحراف[1]، وكتاب الله عدل مستقيم ليس فيه اعوجاجٌ وخللٌ البتة، في أي جانب من الجوانب، بل هو في القِمَّة السامِقة من كل الوجوه.

٣٠) تِبْيـانـاً لِّكُـلِّ شَـيْءٍ:

كما قال منـزِّله العليم القدير جلّ وعلا: ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن يتدبر كتاب الله الحكيم المبين، يـجد فيه بيـان كل ما يهمُّ الإنسان في حياته الدنيوية فرداً ومجتمعاً، وآمل أن يَصْلُحَ هذا الكتاب: (الإسلام كما يتجلّى في كتاب الله) بأبوابه الأربعة وهذه الموسوعة بكتبها الإثني عشر، دليلاً من الأدلة بـهذا الصدد.

٣١) تفصـيل كل شـيء:

كما قال تعالـى: ﴿...مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

والمقصود بالتفصيل هنا هو الشرح والبيان والتوضيح، والمقصود بـ(كلّ شيء) هو كل شيء مما يحتاجه الإنسان لهدايَتِهِ الشخصية، وتنظيم حياته الإجتماعية بكل جوانبها.

٣٢و٣٣) أُحكمـت آياته ثـم فصّـلتْ:

كما قال سبحانه وتعالـى: ﴿الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود].

---

(١) المصدر السابق، ص٥٩٢، لفظ: (عوج).

والإحكام الذي وصف الله تعالى به آيات كتابه الكريم، هو القوة والمتانة والبعد عن الضعف والخلل والإختلاف[1]، والتفصيل هو البيان والتوضيح[2]، إذاً:

فآيات كتاب الله الحكيم محكمة ومتينة ومنيعة، وكذلك هي بيِّنة المَعْنَى جَلِيُّهُ، ومن نافلة القول أن وضوح آيات كتاب الله لا يتنافى مع عمق معانيها التي لا يُدْرَكُ لها غور، وكذلك كون آيات الله بيِّنةً، لا يعني أن كل الناس يفهمونها في مستوىً واحدٍ من الفهم!

٣٤و٣٥) مُصدِّق لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنٌ عليه:

كما قال سبحانه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد بيّنا في السابق مفهوم كل من تصديق القرآن للكتب السابقة وهيمنته عليها.

٣٦) قـيِّـمٌ:

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ...﴾ [الكهف: ١ ـ ٢].

والقيم يعني المستقيم العدل الصحيح الذي لا خلل ولا اختلاف فيه أبداً[3].

٣٧) آيـات بيِّنات:

كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت].

(١) المصدر نفسه، ص٢٤٨ ـ ٢٥١، لفظ: (حكم).
(٢) المصدر نفسه، ص٦٣٨، لفظ: (فصل).
(٣) المصباح المنير، ص٢٦٨، لفظ: (قام).

أجل إن كتاب الله الحكيم آياته بيّناتٌ جليات، ولكن لَيْسَ لكل أحد، بل لأهل العلم فهم الذين يفهمون آيات الله الفهم الذي يليق به، ولا نقصد بكلامنا هذا أن غير أهل العلم لا يفهمون كلام الله المبارك أصلاً، بل كل إنسان بإمكانه أن يغترف من بحر كتاب الله، لأن الله تعالى جعل كتابه في متناول الجميع كل بحسبه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: (٢٢)، (٣٢)، (٤٠)]، ولكن شتّان بين من يفهم كلام الله بعمق ويستخرج منه دُرَرَ الحِكَمِ والأحكام، وبين من يَفْهمُهُ فهماً ظاهرياً لفظياً.

٣٨) قول فَصْلٌ:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق].

أجَلْ إن كلام الله الحكيم، فاصلٌ بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والمعروف والمنكر، والصواب والخطأ.. الخ.

٣٩) يهدي للَّتي هي أقوم:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ...﴾ [الإسراء: ٩].

أي: إن القرآن يدلّ الناس على الطريقة التي هي أكثر استقامة وصحّة في كل النواحي: المعرفة والعقيدة، والفكر والثقافة، والعبادة والتقوى، والخلق والأدب، والإقتصاد والسياسة... إلخ.

٤٠) مُخْرِجُ الناس من الظّلمات إلى النور:

كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم].

أجل إن القرآن العظيم يُخْرِجُ الناسَ من كل الظلمات، وفي جميع جوانب حياتهم الفردية والجماعية، إلى النور، نور الهداية الربانية ودينه الحق.

وقد بينا في السابق مفهوم كل من (الظلمات) و(النور)، في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة.

وقد ثبت بالتجربة من خلال أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، ومن قِبَلِ عشرات من الأمم والشعوب والأجيال وآلاف مؤلفة من الأفراد، أن أوصاف كتاب الله الكريم هذه تُثْمِرُ ما يناسبها من الآثار والبركات، فيمن يتلونه حق تلاوته، ويهتدون به ويلتزمون به، ويتناسب ظهورُ تلك الآثار والبركات على المهتدين به والمستمسكين به، طردياً مع مقدار اهتدائهم به، بكل ما لكلمة (الإهتداء) من مفاهيم.

نعم فكتاب الله كريمٌ يهب الكرامة، وحكيمٌ يثمر الحكمة، وعزيزٌ يُعِزُّ صاحبه، وعليّ يُعلّيه، وهدىً يهديه، وشفاء يشْفيه، وذكر يُذَكِّره، وبشير يُبَشِّرهُ، ونور ينوِّره ظاهراً وباطناً، ومبارك يباركه، ومجيد يُعْطيه المَجْدُ، وروح يحييه... الخ.

ولكن كما قلنا: تكون نسبة النَّيل من بركات القرآن العظيم والتنوّر بأنواره، بمقدار نسبة اهتداء الإنسان، فرداً أو مجتمعاً، بهداه، وكلّما بذل الإنسان جهداً أكثر مع كتاب الله، تلاوةً وتدبّراً وتطبيقاً واتباعاً، كافأَهُ كتابُ الله الكريم بنصيب أوفَرَ من بركاته وآثاره وخيراته.

ومَنْ أراد أن يرى مِصْداقَ ما قلناهُ مُجسَّداً أحسن تجسيدٍ في عالم الواقع، فَلْيتأملْ حال العرب قبل نزول القرآن على خاتم الأنبياء (محمد) عليه الصلاة والسلام واهتدائهم به على يده صلوات الله وسلامه عليه، ثم حالهم بعد نزول القرآن وتنوّرهم بأنواره، كي يرى بوضوح وجلاءٍ:

كيف حوّلهم كتابُ الله الكريم المبارك، من قبائل جاهلة متحاربة مُتَشَرْذِمة متخلِّفة في كل نواحي الحياة، وخاضعة لدولتي الروم والفرس، إلى أمة واحدة عزيزة حكيمة فقيهة رشيدة مسيطرة على ثلث العالم آنذاك ـ تقريباً ـ في أقل من ربع قرن من الزمان، وعلى نصف العالم أو أكثر في

غضون مائة عام، وكيف أَنْهَـوْا وجوُدَ إمبـراطورية فارس بالكامل، وشطرٍ كبيـر من إمبـراطورية الروم، أكبـر دولتين متنفِّذتيـن في ذلك العصر، واللَّتَيْـنِ كانتا مَبْنِيَّـتَين على الظلم والإضطهاد واستعباد الشعوب والترف والإسراف، ثم أقاموا (بـمساندة سائر المسلمين من الشعوب الأخرى المهتدية بالإسلام) على أطلالـهما، دولة إسلامية وارفة الظلال، تنشر العلم والهدى والعدل والأمن والفضيلة، فـي البشرية عامة، وفي الأقوام والشعوب التي انضوت تحت لوائها خاصـة.

فوالله إن ذلك التحوّل التاريخي العظيم الذي أحدثـه كتاب الله في حياة البشرية والشعوب عموماً، وفي حياة الشعب العربي خصوصاً، يعتبر معـجزة وأيَّـةُ معـجزة، إذْ من الـمحـال أن يُحْـدِثَ مثلَ ذلك التـحوُّل والإنـقلاب الـجـذريّ المـبارك في حـياة الإنسـان فرداً ومـجمـوعـاً، غَيـرُ كتابِ الله الكريم.

وما زال كتاب الله المبارك مستمراً في إحداث ذلك النوع من التحوّل والتطوّر، إنْ على مستوى الأفراد، أو على مستوى الشـعوب والمجتمعات، وذلك كما قلنا بمقدار ما يحصل لهم من التـأثر بهذا الكتاب الكريم والتفاعل معه والإهتـداء به.

وبهذا نختم هذا المبحث الثانـي، وننتقلُ إلـى المبحث الثالث:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثالث

خصائص القرآن المبين

للقرآن العظيم أربع خصائص ينفرد بها من بين كل الكتب المباركة الربانية الأخرى، التي أنزلها الله تعالى على الأنبياء السابقين على خاتم النَّبيِّين (محمد) ـ صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين ـ، وهي:

الخَصِيصة[1] الأولى: القرآن العظيم شريعة ومعجزة في آنٍ واحد:

أجل إن معجزة خاتم النبيين محمد ﷺ وبيِّنته الوحيدة الّتي تحدّى بها الجِنَّ والإِنس، وجعلها الله تعالى برهاناً على صدقه في نبوَّته، هي القرآن، الذي هو في الوقت نفسه شريعته ومنهاجه أيضاً.

وهذا بخلاف حال الأنبياء السابقين على نَبيِّنا وعليهم الصلاة والسلام أجمعين، حيث كان كُلُّ واحد منهم يُعْطى بيِّنةً ومعجزة مستقلة عن أصل الدين والوحي الذي يُكلَّف به، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ...﴾ [الحديد: ٢٥]، وذلك مثل (ناقة صالح) عَلَيْهِ السَّلَامُ، و(عصى موسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ و(يده البيضاء)، و(إحياء الموتى)، و(إبراءُ الأكمه والأبرص)

(١) خَصيصَة جمع خصائص: الصِّفة التي تُميِّزُ الشيءَ وتُحدِّدُه. المعجم الوسيط، ص٢٣٨.

لـ(عيسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذا الموضوع سنتحدّث عنه لاحقاً في الكتاب السادس الآتـي إن شاء الله تعالـى.

وواضح أنَّ بيّنات الأنبياء السابقين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانت مرهونة بوجودهم وحياتـهم، فلما توفاهم الله تعالـى بعد أداء مُهِـمَّـتِـهُـمْ الرسالية، ذَهَبَتْ تلك المعجزاتُ والبينـات معهم، وإنما بقيت منها أخبارُها فحسب، ولكنَّ معجِزَةَ النَّبـيِّ الخاتم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقيت بعد وفاته، كما كانت وستستمرّ إلـى إن يَشاءُ الله الحكيم.

وحكمة هذا الإختلاف بين معجزة خاتم النبيين ومعجزات إخوانه الأنبياء واضحة، وهي:

بـما أن الأنبياء السابقين ـ عليهم السلام ـ بُعِثَ كلٌّ منهم لمرحلة مُعيَّنة من حياة أهل الأرض ـ جنّاً وإنساً ـ ولمواجهة واقع مجتمع مُعَيَّن، لذا لم يكن هناك داعٍ لاستمرار معجزاتهم بعدهم، ولكن الرسول النبي الأمي الخاتم، أرسله الله تبارك وتعالى للإنس والجن كافة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لذا اقتضت حكمة الله ورحمته، أن تكون معجزته على قدر نبوّته العامة الممتدّة، ورسالته الشاملة الدائمة، كي تَظَلَّ برهاناً، ساطِعاً، وحجة بالغة، على نبوّته ورسالته الخاتمتين.

وقد قال رسـول الله ﷺ بـهذا الصَّدد:

«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيَاً أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٩٨١)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٣٨٣) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ).

الخصيصة الثـانية: القرآن الكريم شريعة الله الخالدة للإنس والجن كافة:

وهذه خاصة أخرى من خَواصِّ[1] كتاب الله الحكيم، إذْ هو مع بيانه

(١) خَاصَة الشيء مَا يَخْتَصُّ بِهِ دون غيره، ج: خَواصّ، وَخَواصُّ العقاقير: قُواها التي تؤثر في الأجسام. المعجم الوسيط، ص٢٣٨.

النبويِّ المتمثل في السنة الشريفة، دينُ الله الحق، ومنهاجه الوحيد الـمُلْزِم للجن والإنس كافة، ما بقيت على هذه الأرض حياة وأحياء، وقد ذكرنا من قبل أن كتب الأنبياء السابقين وشرائعهم، لم تكن على هذه الشاكلة.

وقد أعلن الله الحكيم هذه الحقيقة وبيَّنـها بـجلاء في السُّور المكية قبل المدنيَّة، أي قبل أن يكون لـلإسلام كيان ودولة، وفي الوقت الذي كان الرسول الكريم ﷺ وأصحابه المعدودون ﷺ مستضعفين مضطهدين وكفار قريش وصناديدهم يحيكون المؤامرة تلْوَ الأخرى، ضدَّ رسول الله وأَتباعه ويتربَّصون بـهم الدوائر.

وهذا يُكذِّب تخرُّصات بعض المستشرقين المغرضين وأذنابهم، من المرتدِّين المارقين عن الدِّين الذين يدَّعون بأن رَسُولَ الله ﷺ لم يُعْلِنْ عن عالمية رسالته، إلَّا بعدما استقرَّ في المدينة وصارَتْ له شوكةٌ ودولة!!

ولا شك أنَّ هذا كَذِبٌ مَفْضوح، إذِ الأغلبية الساحقة من الآيات التي تتحدَّث عن عالمية رسالة رسول الله الخاتم ﷺ، من السور المكية، وهذه أمثلة من تلك الآيات:

١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

٢ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

٣ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [سبأ].

٤ ـ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٧﴾ [التكوير].

٥ ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ [ص].

٦ ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ

﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

٧ ـ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم].

وهذه السور: (الفرقان، الأنبياء، سبأ، التكوير، ص، الأعراف، القلم) كلّها مكية النّزول وهناك آيات وسور مكية أخرى، ذُكِرَتْ فيها عالميَّةُ نبوَّةِ خاتم النبيّين واستمرارية رسالته وشموليَّتها، لكن نكتفي بما ذكرنا.

نعم إن القرآن العظيم هو النسخة الأخيرة من الهداية الرّبانية لأهل الأرض كما أن محمداً ﷺ هو النبيُّ الخاتم، وقد ضمَّن الله تعالى القرآن الكريم كُلَّ ما يحتاجه أهل الأرض، في حياتهم المتبقّية على الأرض، لذا لم تدعُ ولا تدعو حاجةٌ إلى بعثة نبيّ آخر، ولا إنزال كتاب آخر، فلا نبيّ بعد محمد ﷺ ولا كتاب بعد القرآن العظيم، إذْ هما كافيان تمام الكفاية، لكل من أراد الإهتداءَ إلى الله، وتمضية حياته الأرضية وفق مرضاته فرداً وجماعة.

والحكمة في جعل نبوّة محمد ﷺ ورسالته عامتين خاتمتين، هي ـ والله هو العليم الحكيم ـ:

أن أهل الأرض (الإنس والجن) في العصور السابقة التي بُعث فيها الرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ، كانوا في مجموعهم ـ في مرحلة ما قبل النضوج والرشد الفكري والإجتماعي الكافي، ولهذا خاطبهم الله الحكيم على قدر مستواهم، وأنزل لهم شرائعَ متناسبة مع مراحل عمرهم، ولكن بعد أن علم الله العليم الخبيرُ، أنـّهم قد بلغوا مستوىً يمكنهم الإجتماعُ على شريعة واحدة تجمع شَمْلهم، وتُرَتِّبُ أمورَهم، وتُنَظِّمُ حياتَهم، وتكوِّن منهم أمة واحدة على تباعد أوطانهم، وتباين أجناسهم وتعدّد انتماءاتهم القومية، حينذاك أرسل لهم نبيّه الخاتم، وأنزل لهم كِتابَهُ الأعظم، ونورَهُ الأتم، الذي يتناسب مع ما بلغوه من نضجٍ وتكامل.

والدليل على ما ذكرنا ـ من عدم بلوغ أهل الأرض النضج الفكري والإِجتماعي الكافي قبل بعثة النبي الخاتم ـ هو:

أن الله تعالـى جعل معجزات وبيِّنات كل الأنبياء والرسل السابقين ـ عليهم السلام ـ معجزات حِسِّية مادّية تتعامل معها الحواس، ولكن جعل معجزة وبيِّنة النبي الخاتم ﷺ، معجزة عِلْميَّةً (بالمفهوم العام الواسع لِكلمة العلم) يتعامل معها العقل والفكر.

وهذه الحقيقة تشير إليها بعض الآيات المباركات، منها:

أولاً: قولـه تعـالـى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام].

حيث يُلْفِتُ الله تبارك وتعالـى أَنظارَ الكفّار المطالبين بآية (أي معجزة كمعجزات الأنبياء السابقين ـ عليهم السلام ـ) إلـى مسألة كون كل الحيوانات الأرضية والهوائية أمماً وجماعات، مثلها مثل الأمم والمجموعات البشرية، وذلك من حيث ترتيبُ أمورها، وتنظيمُ حياتها بنظام ودقة.

وهذا يعني:

أن النبي الخاتم ﷺ لم يُعْطِهِ الله الحكيم آيات مثل آيات ومعجزات من سبقه من الأنبياء[1]، بل أعطاه القرآن الذي يفهمه أهل العقل والعلم والذي يوقظ العقل وينبِّهُهُ أن يسعى لفهم أسرار الخلق وفكِّ ألغازه، كي يطَّلع على آثار ربوبية الله تعالى، من خلال التعرّف على مخلوقاته، ويترك العادة القديـمة، وهي:

التطلُّع على معرفة ربوبية الله وصدق أنبيائه، من خِلال المعجزات الخارقة للعادة، والتي يتعامل معها من خلال حواسه! مثله في ذلك مثل الطفل الذي لا يقتنع إلّا عندما يشاهد ويَلْمَسُ!

ثانيـاً: قولـه تعالـى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا

(١) أي في مجال إثبات نبوَّتِهِ ورسالته، وإلّا فلرسول الله الخاتم ﷺ معجزات كثيرة غير القرآن، كما سنتحدَّث عنها تفصيلاً في الكتاب السابع، ولكن لم يتحدَّ الكفارَ المنكرين بغير القرآن العظيم.

ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

وهنا وفي جواب مطالبة الكفّار بـمعجزات تُعطى للنبـيِّ الخاتم ﷺ كمعجزات الأنبياء السابقين، (وهذا واضح في السياق وتدلّ عليه آيات أخرى كثيرة بـهذا الصدد)، أجل هنا:

١ ـ يأمر الله تعالى رسوله أنْ يبين لهم حقيقة: أنه ما هو سوى نبيّ ينذرهم بوضوح، وليست لَهُ أَيَّةُ يَدٍ في الإتْيان بالآيات التي يقترحونها، بل ذلك من شأن الله تعالى ومن اختصاصه، وليس لغيره فيه دخل: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢ ـ ثم يقول سبحانه وتعالى مُلْفتاً نَظَرهم إلى كون القرآن معجزة كافية ووافية للدلالة على كون محمد ﷺ رسول الله، كيف وهو كلام الله الذي ليس كمثله شيء، إذاً: فليتدبّروه وليفهموه إذا ما أرادوا معجزة وبيِّنة كافية لإثبات صدق النبيِّ الخاتم ﷺ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ والهمزة هنا للإستفهام الإنكاري وللتوبيخ، والمعنى: يجب أن يكتفوا بكتاب الله وكلامه المَتْلوِّ عليهم، لأنه كافٍ ووافٍ بالغرض.

ثم يُعقِّبُ على ما مرَّ ذكره، بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنَّ كتاب الله المعجز، سبب رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، وسب تذكّر واتعاظٍ لأهل الإيمان، وبناءً عليه:

فلا أحدَ بعد كتاب الله المَتْلوِّ المُعْجِز، يحتاج إلى شيء آخر، إذا ما أراد الإيمان الذي ينالُ به رحمةَ الله تعالى، ويجعله يتذكّر ويتعظ ويعرف ربَّه ويعلم وظيفته في هذه الحياة الأرضية.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

حيث ذكر (النيسابوري) في (أسباب النّزول)[1] بسنده إلى ابن عباس ﵄ هذه القصة في سبب نزولها:

«إن المشركين أتوا اليهود فقالوا ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ فقالوا: يُبرِئُ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: أدع لنا ربك يجعل الصفا ذهباً، فأنزل الله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾».

أَجَلْ، فمعجزة (محمد) خاتم النبيين ﷺ هي هذا القرآن الحكيم الذي يُلْفِتُ أنظارَ البشر إلى التأمل والتفكر في خلق الله، والإطّلاع على سننه وأسراره، لذا فتوقع الكفار من النبي ﷺ أن يريهم المعجزاتِ التي أعطيت للأنبياء السابقين توقّع في غير محلِّه، أولاً: لأن رسول الله ﷺ لا دَخْل له في الآيات والمعجزات، بل الآيات عند الله تعالى فقط، وهو الذي يُعْطي منها ما يشاء لمن يشاء، حسبما تقتضيه حكمته البالغة، وثانياً: لأن البشرية جاوزت المرحلة التي تَصْلُحُ لها فيها المعجزات الحسِّية، ودخل في مرحلة يصلح لها نوع آخر من المعجزات، وهو الذي يُدْرَكُ بالعقل والفكر ويُرْشِدُ العقل إلى الإطّلاع على آيات الله المتجلّية ـ لأهل العقل والعلم ـ في الأنفس والآفاق، وذلك هو كتاب الله العظيم الذي أعلن الله تعالى فيه:

بأنه سَيُري الناس آياته في أنفسهم وفي الآفاق، حتى تَتَبَيَّن وتَثْبُتَ لهم حَقَّانيَّةُ كتابِ الله، كما قال:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

وأما الكلام عن الأصول الكليّة التي تُنَظِّمُ الشريعةُ المُتَضَمَّنَةُ في

(١) أنظر: أسباب النزول، ص٧٧، وَأَخْرَجَهُ ابنُ أبي حاتم في تفسيره: ٤٦٥٥، والطبراني في الكبير: ١٢٣٢٢، والواحدي في أسباب النزول وابن مردويه في تفسيره، وأنظر: (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج١، ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

كتاب الله، على أساسها حياةَ المجتمع، في جميع جوانبها، فَمَحلُّهُ المناسب هو الباب الثالث ـ أي الكتب التاسع والعاشر والحادي عشر من هذه الموسوعة ـ بإِذنِ الله.

الخصيصة الثالثة: القرآن محفوظ بحفظ الله العزيز من التحريف وغيره:

وخَصيصَةٌ أخرى من خصائص كتاب الله الحكيم، هي: أن الله تعالى قد تكفَّل بحفظه وصيانته من كل الوجوه، وكفى بالله حفيظاً ووكيلاً، وهذا امتيازٌ خُصَّ به كتابُ الله الحكيم الخاتم من بين كتب الله جميعاً، إذ الكتب الأخرى ـ كما ذكرنا سابقاً ـ لم يبق منها كتابٌ سَلِمَ من التحريف، أو الإخفاء أو النسيان، أو من ثلاثتها معاً!

قال سبحانه وتعالى بصدد تكفُّلِه بنفسه حِفْظَ كتابِهِ الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

وقد استعملت في هذه الآية المباركة أربعة مؤكِّدات على أن الله تعالى سيحفظ القرآن من كل ما يجب أن يحفظ ويصان منه، وهي:

١ ـ (﴿وَإِنَّا﴾) إذْ هو في الأصل (وإنّنا)، و(إنَّ) تُفيدُ التأكيد.

٢ ـ (﴿لَهُۥ﴾) واللام هنا للإختصاص والإهتمام، أي إنَّ حفظنا للقرآن حِفْظٌ خاص به.

٣و٤ ـ (﴿لَحَٰفِظُونَ﴾) واللّام لام التأكيد، و(حافظون) جمع (حافظ) وهو اسم فاعل من الحفظ، والإسم يدل على الثبوت والدّوام.

ومصداق وعد الله تعالى منذُ نزول كتاب الله الحكيم وإلى الآن، أجْلى من الشمس في الظهيرة، وهذا بِحَدِّ ذاته معجزة وأَيَّةُ معجزة!

وقد ذكرنا من قبل أنَّ الحكمة في اختصاص القرآن العظيم بهذه الميزة من بين كتب الله كلها، هي:

أن القرآن هو آخر وحي من الله تعالى لأهل الأرض، ولا ينزل بعده كتاب آخر، كما ولا يُبْعَثُ بعد (محمد) ﷺ نَبيٌّ آخر، لِذا لَزِمَ حسب اقتضاء حكمة الله الحكيم، أن يَظَلَّ القرآنُ مصوناً ومحفوظاً، كي يكون بين يدي أهل الأرض هدى الله وشريْعَتُهُ إلى آخر لحظةٍ يعيشونها في حياتهم الأرضية الإبتلائية هذه، وذلك: ﴿... لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ...﴾ [الأنفال: ٤٢]، أي: كي لا يكون لأحدٍ عذرٌ بعد وحي الله الحكيم المصون، إذا ما انجرف عن طريق الهدى، وانحرف مع الهوى!

وجَليٌّ أن الله الحفيظ جلَّ شأنه، الذي حفظ القرآن العظيم، كان قادراً على حفظ كتبه الأخرى أيضاً، ولكن بما أنها أنزلت لمجتمعات معيَّنة، ولِمراحل مؤقتة، لم يكن هناك داعٍ لحفظها، وفي كتاب الله الأخير لأهل الأرض غِنىً وزيادة، فلا يحتاجونَ معه إلى كتابٍ آخر ولو كان سالماً، كيف ولم يبق منها كتاب سالم!

الخصيصة الرابعة: القرآن الكريم مع تصديقه للكتب السابقة مهيمن عليها جميعاً:

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع سابقاً بمناسبة أخرى، وكذلك هنا اقتضاه المقام، وبينّا أن (التصديق) ممّا تشترك فيه كل الكتب الرّبانية، إذ الرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ يبشِّر السابِقُ منهم باللاّحِقَ، ويصدق اللاّحق منهم السابق، وكذلك الكتب المباركة التي أنزلها عليهم، السابق يبشِّر باللاّحق منها، واللاّحق يصدّق السابق، لأنَّ الجميع خرجت من مِشكاة واحدة.

قال سبحانه وتعالى بهذا الصّدد عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتصديقه للتوراة وصاحبها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتَبْشيره بمجيء خاتم النبيين أحمد صلى الله تعالى عليه وسلم:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ. . . ﴾ [الصف: ٦].

وتصديق القرآن العظيم للكتب السابقة، هو شهادَتُهُ لها بأنها كانت من عند الله تعالى، وليس المقصود به، تصديقَهُ وتأييده لها بمحتوياتها الحالية، والتي قد أخبرنا الله العليم الخبير، بأنه قد التبس فيها الحق بالباطل، وكذلك أخبرنا بأنها قد تَعرَّضت للإخفاء والنسيان والتحريف، كما وضّحنا كلَّ هذا من قبل في آيات الله البيّنات، فلا نعيدها.

وأما هَيْمَنَتُهُ عليها، فهي كونه حاكِماً وحَكَماً عليها، فما اعتبره هو منها صحيحاً، يعتبر صحيحاً، وما لم يوافِقْهُ، فهو ممّا حُرِّفَ وغُيِّرِ، هذا بالنسبة للأساسيات التي لا تختلف عليها الشرائع، وأما بالنسبة للأحكام الجزئية التي اختلفت وتنوَّعت كثيرٌ منها حسب اختلاف أحوال المجتمعات، فهذا النوع حتى إذا لم يُعْتَقَدْ تغييرُه وتحريفُهُ، فهو ـ طالما أنه يخالف القرآن ـ لا يجوز العمل به بعد نزول القرآن، لأن الله تعالى إنما شرعه للمجتمع البشري أو شعبٍ معيَّن منه ـ كبني إسرائيل مثلاً ـ في مرحلة من مراحل حياة البشرية، والتي قد تجاوزتها مسيرَةُ تطوُّر حياتها، لذا لم يبق له مبرِّر بعد أن أنزل الله كتابه الحكيم الكريم، الذي ضمَّنه الأحكام الشرعية التي تحتاجها حياة البشرية في مرحلة بلوغ نضجها ورشدها الفكري والإجتماعي.

وهنا ننهي هذا المبحث الثالث، وننتقلُ إلى المبحث الرابع:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الرابع

إعجاز كتاب الله العزيز

وسنتناول الحديث حول إعجاز كتاب الله العزيز في ثلاثة مطالب:

١) القرآن العظيم هو المعجزة الوحيدة للنبيِّ الخاتم ﷺ لإثبات نبوَّته.

٢) لا يمكن تحديدُ وجْهِ إعجاز القرآن العزيز.

٣) توضيح بعض وجوه إعجاز القرآن العظيم.

ونبدأ بتوفيق الله بالمطلب الأول:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المطلب الأول:
القرآن العظيم هو المعجزة الوحيدة للنبيّ الخاتم ﷺ لإثبات نبوّته

ذكرنا في السابق أن البيّنة الوحيدة التي أقامها رسول الله محمد ﷺ للناس على نبوّته، والمعجزة الوحيدة التي أراهم إياها ـ بإذن الله ـ وتحدّاهُمْ بها، هي القرآن العظيم.

وهذا لا يعني أن معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوّته منحصرة في كتاب الله، وان كان كافياً في هذا المجال، بل وفوق الكفاية لمن اختار الهداية، ولم يكن مُولَعاً بالضلال والغواية، بل شواهد نبوّته كثيرة ومعجزاته الباهرة جدّ غزيرة، وقد ألّف فيها بعضُ العلماء تآليف كبيرة، مثل (دلائل النبوّة) للبيهقي، وسنشير إلى بعضها في الكتاب السابع من هذه الموسوعة، عند الحديث عن براهين نبوّته بإذن الله تعالى.

بل المقصود:

أن خاتم الأنبياء ﷺ لم يلجأ بالإضافة إلى كتاب الله الحكيم، إلى برهان آخر، وذلك كطلب شيء خارق للعادة من الله تعالى، كما كان يطالب به الكفارُ ويُلِحُّون عليه، بل كان يؤكِّدُ دَوْماً كما يأمره ربه، ويجيب المنكرين المطالبين بالمعجزات والخوارق الحسّية، بأنه ليس سوى بشر مثلهم، غير أنه نبيٌّ يوحي الله إليه، وأنه لا يملك ممّا يطالبونه به شيئاً، وأنهم إذا أرادوا الإيمان ورغبوا في الإهتداء، فكتاب الله كافٍ آية وبرهاناً على صدقه في نبوّته.

وهذه بعض الآيات بهذا الصّدد:

١ ـ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ
لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام].

٢ ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ
بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا (٨٨) وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن
كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا (٨٩) وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ
ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا
تَفۡجِيرًا (٩١) أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا
(٩٢) أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ
عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا (٩٣)﴾ [الإسراء].

٣ ـ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ
وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥١)﴾ [العنكبوت].

٤ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي
وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ (٤٣)﴾ [الرعد].

٥ ـ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا (١٠٥) وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ
لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا (١٠٦) قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن
كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ (١٠٩)﴾
[الإسراء].

وكيفية دلالة هذه الآيات على الحقيقة التي عَنْوَنّا بها هذا المطلب، هي بالصورة الآتية باختصار:

أولاً: أما الآية (٥٠) من (الأنعام) فيأمر فيها الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يقول بصراحة ووضوح، للكفار الذين يطالبونه بالآيات، بأنه:

أ ـ لا يقول لهم أن عنده خزائن الله.

ب ـ ولا يقول بأنه مطّلعٌ على الغيوب.

ج ـ ولا يقول بأنه هو مَلَكٌ من الملائكة.

وأما الذي يقوله ويؤكّد عليه فهو:

أنه يَتَّبعُ الدِّينَ الذي يوحيه الله تعالى إليه، من خلال كتابه المبارك.

ثم يأمره سبحانه أن يقول لهم:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام].

والمقصود بهذا السؤال التوبيخي ـ حسبما أفهم منه ـ:

أن يبيِّن رسول الله ﷺ للكفار، بأن أساس نبوّته ومُسْتَنَدَها ليس امتلاكه لتلك الأشياء، بل بيِّنة نبوّته ومُسْتَنَدُها: أنه نتيجة اتّباعه لوحي الله المتمثِّل في كتابه الكريم، صار بصيراً بطريقهِ وعلى بصيرةٍ من ربِّه، في حين هم من جرّاء ابتعادهم عن الوحي، أصبحوا عُمْياً لا يبصرون.

إذن:

فمعجزته وبرهانه على صدقه، هو كتاب الله الذي بصَّره بربِّه وبنفسهِ وجعله على بصيرة ونور تام، في الوقت الذي يَتيْهُ غيره في دياجير الظَّلام.

ثانياً: وفي الآيات (٨٨ إلى ٩٣) من (الإسراء) يأمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يعلن بأنه لو أن الجن والإنس اجتمعوا كلّهم وتساندوا بينهم وتعاونوا على أن يأتوا بمثل القرآن، لعجزوا عنه وفشلوا.

ثم يوضِّح سبحانه وتعالى حقيقةً، أكَّد عليها أكثر من مرَّة في كتابه، حيث ذكرها سبحانه بالإضافة إلى هذا الموضع، في كل من: الآية (٥٤) من (الكهف)، والآية (٥٨) من (الروم)، والآية (٢٧) من (الزمر)، وهي:

أن الله تعالى نوَّع تبيين الحقائق في القرآن بأساليب تعبيرية راقية وكأنها الأمثال السائرة التي يتناقلها الناسُ جيلاً عن جيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ...﴾ [الإسراء: ٨٩]، إذِ المقصود بـ(تصريف الأمثال) أو (ضرب الأمثال) كما في آيات أُخَرَ هو:

التعبير عن المعاني والمقاصد بأسلوب رائع راقٍ، كأسلوب الأمثال التي يتناقلها الناس بينهم، إذْ تتَّسُم الأمثالُ بجزالة التعبير، وَقِلَّةِ الألفاظ وغَزارة المعاني، وعمقها وشمولها وسعتها.

ولا شك أن تشبيه الحقِّ جلَّ شأنه كلامه المبارك في أسلوب تعبيره، بالأمثال، إنّما هو لِمُجرَّد التقريب من فهم المستوى الرفيع الذي يَتبوَّؤُهُ كتاب الله المبين في مجال البيان، إذ الأمثال المتداولة بين الناس - في كل الشعوب - هي أرقى أنواع البيان، وأسمى أساليبهم التعبيرية، وإلّا فأين الثُّريا من الثَّرى، وأين كلام الله الخالق، من كلام الناس المخلوقين!!

ثم يُعَقِّبُ سبحانه على بيان الحقيقة المارّ ذكرها، بقوله: ﴿...فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، أي: لكِنَّ أكثر الناس بالرغم من بيان الحق لهم بأفضل صورة، لم ينْصاعوا له ورفضوه واختاروا الكفر والكفران.

ثم يعدِّد الله تبارك وتعالى مجموعةً من الآيات والخوارق التي طالب بها الكفّارُ المعاندون، واقترحوها على رسول الله ﷺ وجعلوها شرطاً لا بدّ منه، كي يؤمنوا به وبرسالته، وهي:

١ - تفجير عين (ينبوع) من الأرض.

٢ - إيجادُ جَنَّةٍ من النخيل والعِنَبِ، تتفجَّر الأنهار من خلالها.

٣ ـ سقوطُ السماء عليهم على شكل قطعات، لأن (كِسَفاً) أو (كِسْفاً) جمع (كِسْفَة)[١] وهي القطعة من الشيء.

٤ ـ الإتْيان بالله تعالى والملائكة عياناً ومقابلة، أو مجتمعين، (تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً).

٥ ـ امتلاكه ﷺ بيتاً من الذهب.

٦ ـ الصعود في السماء.

٧ ـ الإتْيان بعد الإرتقاء في السماء بكتاب (من الله تعالى إليهم) كي يقرؤوه!

وفي جواب هذه المطالب، يأمر الله تعالى نبيّه الكريم أن يقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء].

ومعنى هذه الجملة أنّني أُنَزِّه الله تعالى ربّي وأُقَدِّسُهُ عن أن أسأله هذه الأشياء وأطالبه بها، إذ لسْت أنا سوى رسولٍ بشرٍ.

وهذا يعني:

أن بيِّنة رسول الله ﷺ ومعجزتُهُ لإثبات دعوى نبوَّته، هي فقط كتاب الله الذي يعجز المخلوقون كلهم عن أن يأتوا بمثله ويُجاروه، والذي نوَّع الله تعالى فيه بيانَ الحقائق بأعلى وأرقى أسلوب تعبيري، كي يؤمن الناس به، وأما تلك الأشياء التي يطالب بها الكفار ـ والتي هي في الحقيقة شروط تعجيزية وذرائع للتهرُّب ـ فهي، أولاً: ليس في وسع رسول الله ﷺ أن يأتي بها، وثانياً: لا يليق بأدب نبيِّ الله الرفيع مع ربِّه العلي العظيم، أن يسأله تلك الأشياء!

ثالثاً: وفي الآيتين (٥٠ ـ ٥١) من (العنكبوت) واللَّتيْن تكلّمنا عنهما من قبل، يأمر سبحانه رسولَه ﷺ أن يقول في جواب مطالبة الكفار إيّاه بالآيات والخوارق: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾،

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٧١١، لفظ: (كسف).

وقد تكرّر بيان هذه الحقيقة ـ أي كون المعجزات من اختصاص الله تعالى وخارج نطاق إرادة الناس، وكون الرسل ـ عليهم السلام ـ مكلّفين بالإنذار ـ في مواضع كثيرة في كتاب الله، وذلك كي يعلم الناس أن الرب ربّ والعبد عَبْدٌ، فلا يتوقَّعوا من عباد الله الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ما ليس في وسعهم ولا يملكونه، بناءً على اعتقاداتهم الفاسدة وتصوراتهم المنحرفة، تجاه من يحسبونهم مقرَّبين من الله تعالى، وقياساً لله تعالى وعباده المقرَّبين منه، على الملوك وحواشيهم!

ثم يُلْفِتُ الله الحكيم أَنظارَهم إلى حقيقة أن القرآن العظيم الذي يُتلى عليهم، لهو برهان كافٍ لمن يبحث عن الحق، وآية باهرة على صدق محمد ﷺ في دعوى نبوَّته، لِذا:

فلا داعي للإستجابة لتلك المطالب التي يقترحها الكفار على رسول الله ﷺ والتي ظاهرها البحث عن الدليل، وباطنها التذرّع للهروب من الحق.

<u>رابعاً</u>: وفي الآية (٤٣) من (الرَّعد) يأمر الله تعالى نبيَّه الخاتم ﷺ أن يقول في جواب الكفار القائلين له: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾:

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وهذا يعني أن يستدِلَّ رسولُ الله ﷺ في الرَّدِّ على الكفار ودحض اتهامهم إياه، بأنه ليس رسول الله، بدليلين:

أولهما: شهادة الله تعالى له.

وثانياً: شهادة العلماء المطَّلعين على كتاب الله.

أما شهادة الله، فتتمثل في إنزاله كتابه الحكيم المعجز عليه، ثم في حفظه له ونصره إياه، وهدايته له وتولِّيه أموره..الخ.

وأما شهادة العلماء المُطَّلعين على كتاب الله، فتتمثل في معرفتهم الدقيقه ـ بناءً على ما جاء في الكتب الربانية السابقة ـ بِنَبيِّ الله الخاتم (محمد / أحمد) ﷺ، كما قال تعالى بهذا الصَّدد:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة].

وعلى هذا المعنى يكون المقصود بـ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ علماء أهل الكتاب المنصفين، والمقصود بـ(الكتاب) هو الكتب السابقة التي بشَّرت بمجيء خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ويمكن أن يكون المقصود بـ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أهل العلم المطَّلعين على أسرار كتاب الله الكريم الخاتم، ومن ثَمَّ فالمقصود بـ(الكتاب) يكون هو القرآن العظيم.

وكلا المعنيين مآلهما واحدٌ، وهو:

أن العارفين بوحي الله وكتابه، سواء السابق أو اللاّحق، طالما لم يخونوا عِلْمهم الذي أودعه الله فيهم كأمانة، سيشهدون بِنُبُوَّة محمد ﷺ.

وعليه:

فبرهان نُبوَّة خاتم النبيين ﷺ بعد شهادة الله تعالى، هو شهادة العلماء العارفين بكتاب الله ووحيه له، وإيمانهم به واتّباعهم له، وبالنتيجة: فمعجزة رسول الله ﷺ الشاهدة على نبوَّته هي: كتاب الله الكريم.

خامساً: وفي الآيات (١٠٥ إلى ١٠٩) من (الإسراء)، يُعْلِنُ سبحانه أنه قد أنزل القرآن إنزالاً حقاً، وأنزله متلبّساً بالحق، ويخاطب الرسولَ ﷺ بأنه لم يرسلْه إلَّا للتبشير والإنذار، ومعنى هذا أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنما وظيفته أن يبشِّر الناس بخيري الدنيا والآخرة، إذا ما آمنوا، وأن يُنْذِرهم بشقاء الدنيا وعذاب الآخرة، إذا اختاروا الكفر.

ثم يصف سبحانه كتابه المبارك بقوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ أي: وهذا الكتاب، قرآنٌ جزَّءْناه ـ إلى سور وآيات ـ كي تقرأه على الناس على مُهْلٍ وتُوءَدَةٍ، وبتأنٍّ ـ كي يسهل عليهم استيعابه ـ وجعلنا إنزالَه مُتدرِّجاً مُنَجَّماً ـ بحسب الحوادث الواقعة ـ.

وبعد هذا التعريف الموجز الجامع لكتابه الحكيم، من حيث محتواه

وكيفية إنزاله ونزوله والغرض منه، يخاطب ربُّ العالمين نبيَّه الكريم، بقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء].

أي:

وخاطب الناس ـ أو الكفار منهم ـ قائلاً: سواء آمنتم بالقرآن أم لم تؤمنوا، فالذين أعطاهم الله العلم ـ بالكتب السابقة ـ قبل نزول القرآن، مَوْقِفُهُم تِجاهَهُ يتمثّل في السقوط ساجدين على جباههم قائلين: نُنَزِّه ربَّنا ـ عن أن يُخْلِفَ الوعد بإرسال الرسول الخاتم، وإنزال القرآن، نوره الأعظم عليه ـ، بل وعد ربنا متحقق ونافذ لا محالة، وها هو قد حَقَّق وَعْدَه وَأَنْجَزه.

ثم يصوِّر موقف أولئك العلماء المنصفين من أهل الكتاب، بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء]، حيث السجود المستمر شكراً وتعظيماً لمنزل القرآن العظيم جلّ شأنه، والبكاء وازدياد الخشوع.

فالقرآن العظيم إذن كافٍ لكي يؤمِنَ برسول الله ﷺ كُلُّ مَنْ عنده علمٌ وإنصاف، من أهل الكتاب السابقين، وكذلك كل من يستمع لتلاوته ويتدبّره ويفهمه ويَطَّلع على أسراره ـ كلٌّ بِحَسَب حالِهِ ـ.

وبما أن القرآن العظيم بيِّنة وافية، ومعجزة كافية، لإثبات نبوَّة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، لذا لم يلتفت أحكم الحاكمين إلى مطالبة الكفار بالآيات الخوارق، والمعجزات الحسية التي أعطاها للأنبياء السابقين، بالرغم من إلحاحهم الشديد، كما تدلّ عليه هذه الآيات التي هي أمثلة فقط في بابها:

١ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام].

٢ - ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس].

٣ - ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود].

٤ - ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد].

٥ - ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد].

٦ - ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنبياء].

٧ - ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء].

٨ - ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام].

وسَنُعَقِّب بإيجاز على كل من هذه الآيات التي تتحدَّث عن موضوع مطالبة الكفّار بالمعجزات الحسّية، والظواهر الخارقة للعادة، لإثبات نبوَّة محمد ﷺ - بزعمهم -:

١) أمّا الآية (٣٧) من (الأنعام) فيحكي فيها ربُّ العزّة سبحانه قول الكفار المطالبين بمعجزة، ثم يأمر نَبيَّهُ ﷺ أن يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، ثم يعقب سبحانه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

والمقصود بـهذا التعقيب على ما أرى: أن أكثر أولئك الكفار لا يعلمون، أنه لا يجوز أن تكون معجزة خاتم الأنبياء، مثل معجزات الأنبياء السابقين، ظاهرةً حسيّةً خارقة للعادة، لأن تلك المعجزات تكون مرهونة بحياة أصحابها، وتنتهي بانتهاء حياتهم، ولكن بـما أن خاتم النبيّين مبعوث للإنس والجن كافة، وإلـى أن تُطْوى صفحة حياة أهل الأرض، إذاً: لَزِمَ حسب حكمة الله الحكيم أن تكون معجزته عامة ومستمرة، وكذلك القرآن العظيم مُعْجِزٌ للجميع وأبدي لا انقطاع له.

٢) وفي الآيـة (٢٠) من (يونس) يأمر الله العليم الحكيم رسوله ﷺ أن يقولَ للكفار الذين كانوا يطالبونه بمُعجزة: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: إنّ إنـزال الآيـات من شأن الله تـعالـى، وشؤون الله العظيم بالنسبة لـي غيبٌ لا أعلمها، لذا فانتظروا متـى يـأذن الله تعالـى بإنزال آية، إن اقتضـته حكمَتُهُ أو لا يأذن بنـزولها إن لـم تـقتضه حكمته، وأنا أيضاً انتظر، ولكن ليس نزول الآيات، بل أوامر الله تعالـى.

٣) وفي الآية (١٢) من (هـود) يـصوّر لـنا سبحانه الحالة النَّفسية للرسول ﷺ في مقابل مطالبة الكفار الملحَّة بإتيانه بالآيات التي كانوا يقترحونها عليه، كنزول كَنْزٍ عليه أو مجيء مَلَكٍ معه، إذ يقول سبحانه: لعلك ـ تحت مطالبتهم وإلحاحهم المستمر ـ تـاركٌ بعضاً ممّا نوحيه إليك ويضيق صدرك في تبليغك إياهم به!

ثـم يـقـول سبـحـانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: إنك لستَ سوى منذرٍ لهم، وأما موضوع الآيات التي يطالبون بها، فهو من اختصاص الله تعالى، وهو على كل شيء وكيل، أي: فهو سبحانه يُدَبِّر ويتولّى شؤون الخلق، كما يتولّى الوكيل تدبير أمور ما وكّل به وجُعِلَت في عُهْدَتِهِ.

٤و٥) وفي الآيتيـن (٧ و٢٧) من (الرَّعد) بعد أن يذكر سبحانه مطالبة الكفار أن ينـزِّل رب محمد ﷺ عليه آيـة، فـي الآية الأولـى يخاطب جلَّ شـأنه نبيـهُ بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾، والمعنـى: أنت أيها

النبـي لَسْتَ سوى نذير، لذا فَأَدِّ وظيفتك ولا تَلْتَفِتْ إلـى مطالباتـهم، إذْ ليس إنْزال الآيات من شأنك.

والمقصود بقوله تعالـى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ هو أن الله تعالـى حسب سُـنتِـهِ الحكيمـة، يُهَـيِّءُ ويرسل لكل قوم هادياً، وأنت هـادٍ لـمن بعثـت إليهم، إذا أرادوا الهداية، والقرآن برهانك ومعجزتك.

وفي الآية الثانية يأمره الله تعالى، أن يقول للكفار المطالبين بنزول آية من الله تعالى تصديقاً لنبيِّه ـ بزعمهم ـ: ﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، ومعنى هذه الجملة الكريـمة ـ كما أرى ـ:

أَنَّ القرآن كافٍ آيةً على صدقي في نبوّتـي، ولـهذا فمن لم يلتفت إليه إعراضاً، أو لـم يؤمن به عناداً، فهو يضلّه الله بعدله، ولكن من أناب إلـى الله وأقبل على كلامه ملتمساً منه الهداية، فَسَيَهْديه الله الكريم بفضله.

٦) وفي الآيات (٥ و٦ و١٠) من (الأنبياء) يقول سبحانه وتعالى في جواب الكفّار الذين كانوا يَكِيلون الإتـهامات جُزافاً للقرآن العظيم بأنه: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ وفي آيات أخرى (أساطير الأولين)، وكذلك كانوا يتهمون رسول الله ﷺ بأنه (افترى القرآن) أو (هو شاعر، وقال القرآن شعراً)، ثم كانوا يطالبون بأن يأتيهم رسولُ الله بـمعجزة على طراز معجزات الأنبياء السابقيـن: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، فيقول سبحانه بعد أن يبيِّـن لـهم عدة حقائق عن الأنبياء السابقين: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء]، أي: إن كنتم من العقلاء الفِهام[١]، فها هو القرآن المنـزّل إليكم، يحتوي على تذكيركم بكل ما تحتاجونه من حقائق، أو يحتوي على بيانـها وتوضيحها ـ لأن كلمة (ذكر) تأتي بـمعنـى التذكير وبـمعنـى البيان ـ، إذاً:

(١) فِهام: جمع فاهم وفَهِم وفهيم، المعجم الوسيط، ص٧٠٤، (الفهم حُسْنُ تصوّر المعنى، وجودة استعداد الذهن للإستنباط).

إن كنتم حقاً عقلاء، فها هو القرآن آية وأَيَّةُ آية، فاقرؤوه وتدبَّروه، وإن عُدِمْتُم العَقْلَ، فلن تُجدِيكم الآيات الأخرى التي تطالبون بها أيضاً.

٧) وفي الآيات (١ إلى ٥) من (الشعراء) يبيِّن سبحانه بداية أنَّ الآيات التي تُتْلى هي آيات كتابٍ واضح لا لُبْسَ فيه، أو مُوَضِّح ومُبَيِّن لكل ما يحتاج الإنسان إلى بيانه.

ثم يعاتب سبحانه رسولَهُ الكريم عتاباً لطيفاً رقيقاً، على مبالغته وإفراطه في الإغتمام بسبب عدم إيمان من لا يؤمن من الكفار، حتى يكاد أن يُهْلِكَ نَفْسَه حِرصاً وإشفاقاً عليهم.

ثم يقول سبحانه مُبيِّناً قدرته المطلقة على إنزال أي نوع من الآيات، ومن ضمنها آية تخضع لها أعناقهم، ويستسلمون مُكْرَهين: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء].

ولكنَّ الله تعالى لم يشأ إنزالَ ذلك النوع من الآيات، لأنّ حكمته الرّبانية اقتضتْ عدم إكراههم وإجبارهم على الإيمان بإنزال آيات مُلجئةٍ للإيمان، بل أراد سبحانه أن يبتليهم وأن يُعْطِيهم الخيار، وأن يُهَيِّءَ أجواءَ امتحان بحيث لا يفقدون فيها الإرادة الحرة، ولا يضطرون إلى اختيار أيٍّ من الإيمان أو الكفر.

ثم يقول سبحانه تنبيهاً على أن القرآن هو البرهان والبينة التي تهديهم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: ولا يأتيهم ذكر جديد حديث العهد بالله تعالى من حيث إنزالُه وإياه، إلّا وهم يَنْفِرُون منه ويستمرّون على إعراضهم، وهذا يفهم منه بوضوح:

أَنَّ تلك الآيات التي يطالبون بها، ليست حَظَّ هذه الأمة المحَّمدية ـ ونقصد بالأمة هنا الأمة المُدْعوَّة، وهي البشرية كلها والجن كلهم، والأمة المستجيبة وهم أهل الإسلام والإيمان فقط ـ من المعجزات على نبوَّة نبيهم ﷺ، بل إنما حظهم من المعجزات، هو:

(ذكر الرحمن) و(قرآنه العظيم) و(كتابه المبين) وهو والله الذي لا إله إلَّا هو نعم الحظ والنصيب، لو كانوا يعلمون!

٨) وفي الآيتين (٣٥و٣٦) من (الأنعام) يخاطب الله العزيز الحكيم رسوله الكريم ﷺ في معرض التسْريَةِ عنه، والتسلية لَهُ من غمومه وهُمومِهِ التي كانت تَحْتَوِشُ قَلْبَهُ الحنونَ الشفيق، بسبب إعراض الكفار عن دعوته المباركة، وعَدَم استجابتهم لها، فيقول له سبحانه لأنه كان يعلم أن رسوله ﷺ وبدافع الحرص على هداية النّاس كان يَودُّ ـ كما هو واضح في هذا السياق وكذلك في سياقات أخرى ـ لو أن الله تعالى أمدَّهُ ببعض الآيات والمعجزات التي كانوا يطالبون بها:

إنْ كان ثَقُلَ على قلبك وعَظُمَ عليك إعراضهم، فهل بوسعك أن تَحْفرَ نفقاً تحت الأرض، أو أَنْ تصعد إلى السماء على سُلَّمٍ فتأتيهم بمعجزة حسبما يطلبون؟!

والمعنى إنَّ الإتيان بالآيات ليس بيدك، لذا فلا تُبالِ بمطالبتهم إياك بها، وأدِّ وظيفتك التي كُلِّفت بها.

ثم يقول سبحانه مبيِّناً أنه انّما أراد من الناس إيماناً اختيارياً، وإلَّا فلو أراد منهم إيماناً إجبارياً، لأجبر الناس كلّهم عليه، ولم يشذّ منهم أحد: ﴿. . .وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ . . .﴾ [الأنعام: ٣٥].

أي لو شاء إكراهَهُم على الإيمان والإهتداء، لَفَعل، ولكنه لم يشأ ذلك، بل شاء أن يبتليهم وأن يُعطيهم حرية الإختيار بين الإيمان والكفر والهدى والضلال، فلذا وُجِدَ فيهم ـ أي في الناس ـ المؤمنون والكفار، والمهتدون وأهل الضَّلال، ولو أنه شاء إجبارهم على الإيمان، لما وُجِدَ فيهم غيرُ أهل الإيمان، كما هو الحال بالنسبة للملائكة.

ثم يقول سبحانه لنبيِّه مُحَذِّراً إيّاه من أن يتّصف ـ ولو بِدافع الرحمة والشفقة والحرص على هداية الناس ـ بشيء من خصال الجهّال:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾!

ثم يقول سبحانه مبيّناً أنّه إنما يستجيب لدعوة الله المباركة التي يَحْمِلُ لواءَها نبيُّه الكريم ﷺ، الذين عندهم الإستعداد لقبول الحق والإستماع إليه، وأما غيرهم الذين يرفضون الحق ولا يرغبون فيه، فهم في حكم الأموات وسيبعثهم الله يوم القيامة، ثم إليه يرجعون للحساب والجزاء الذي يستحقونه: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام].

والآن:

بعد أن تبيَّن لنا بوضوح في ضوء أنوار آيات كتاب الله الحكيم، أن معجزة النبيّ الخاتم والرسول الأعظم ﷺ وآيته الوحيدة وبيِّنتَهُ الفريدة التي أعطاه الله تعالى إياها لإثبات نبوَّته ورسالته، هي: القرآن العظيم، لِنتأملْ ما هي حكمة هذا الأمر؟!

حكمة هذا الأمر ـ كما أرى والله تعالى هو العليم الحكيم ـ هي:

أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بما أنه نبيّ أهل الأرض كافة من الجن والإنس، وإلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَنْ عليها، ودينه الذي أرسله الله به يبقى، ويمتدّ وجود أمته التابعين له إلى قبيل قيام الساعة، لذا لَزِمَ أن تكون آية نبوّته وبيّنتَهُا وشاهد صدقه وبرهان دينه، مستمراً ومتداوماً، وذلك لكي لا تخلو نبوته التي خُتِمَتْ بها النبوّات، ورسالته التي هي نهاية الرسالات الربانية، في يوم من الأيام، عن برهان إثباتها وشهادة صدقها، وإِنَّ في هذا والله العظيم، أعظم الحِكم وأبلغ العِبَر، لمن تدبّر!

أجل فالله الحكيم جلَّ شأنه جعل للنبوّات المرحلية والشرائع المؤقتة على أصحابها الصلوات والبركات والسلام والتحيّة، بيِّناتٍ وبراهين مرحلية ومؤقتة على قدر الحاجة، وكذلك جعل للنبوّة المتداومة والرسالة الباقية والشريعة الخاتمة، آية مستمرّة وبيّنة مُتداومة، ولا ينتظر من حكمة الله البالغة إلَّا أفضل وأكمل التدابير في كلّ الشؤون ومن كل النواحي.

وواضح أنَّ في هذا الأمر ـ أي في كون القرآن الكريم معجزة النبيِّ الخاتم الوحيدة لإثبات نبوَّتِـهِ ـ لَلُطْفاً عظيماً من الله تعالى بأمة النبيِّ الخاتم، وذلك لأنَّ نفس الحُجَّةِ التي كانت بيد النبيِّ الكريم ﷺ لإثبات نبوَّته، هي نفسها بيد كل مسلم من أمته أيضاً!

ولو أن النَّبـيَّ الخاتم ﷺ استدلَّ ببيِّنة أخرى ممّا ينتهي بوفاته، لشعر المسلمون بعده بأنهم قد فقدوا حجة من الحجج التي تُثْبِتُ نبوَّة نبيِّهم ﷺ.

ولكن ـ كما قلنا من قبل أيضاً ـ هذا لا يعني أن رسول الله ﷺ لم تكن له معجزة غير كتاب الله تعالى، كلاّ بل معجزاته كثيرة جداً، ولكن لم يستنِدْ رسولُ الله ﷺ لإثبات نبوته إلى غير كتاب الله الحكيم، وأما معجزاته الأخرى والتي سنشير إليها في الكتاب السابع بإذن الله، إنَّما وَهَبَها الله تعالى له تقويةً لقلوب أهل الإيمان وتثبيتاً لها، وليس لتحدِّي الكفار بها، واثبات النبوّة والرسالة بها.

وبهذا نختم المطلب الأول من المبحث الرابع من الفصل الخامس، وننتقل إلى المطلب الثاني:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المطلب الثاني:
لا يمكن تحديدُ وجـه إعجاز القرآن العزيز

اختلف العلماء وخصوصاً القدماء منهم، رحمهم الله تعالى جميعاً حول موضوع، تحديد وتشخيص وجه الإعجاز في كتاب الله الحكيم وتشخيصه، ولكن لم يختلف منهم اثنان على إعجازه البيانيِّ، وربما حَصَرَهُ بعضهم فيه وحده!

وهذا الرأي والذي كان هو أكثر الآراء رواجاً عند أكثر علمائنا القدماء، وإن كان غريباً ولكن هناك ما هو أغرب منه، وهو الرأي الذي تبنّاه بعض العلماء تجاه تعليل إعجاز القرآن العظيم، ومَفادُهُ:

أَنَّ كون القرآن معجزاً ولا يقدر أحدٌ على مجاراته بأن يأتي بسورة من مثله، ناشيءٌ من (الصَّرف) وليس من كون القرآن في نفسه معجزاً!

والمقصود بـ (الصَّرْف) هو:

أن الله تعالى صَرَفَ قلوب الناس وعقولهم عن مجاراةِ القرآن، ولو أنَّ الله تعالى لم يَصْرِفْ قلوبَ الناس وأذهانهم عن ذلك، لَقَدَرُوا عليه!!

ولكن بعد التأمُّل في بعض آيات الله البيّنات، في هذا المجال، نجدُ فصْلَ الخطاب في الموضوع، فلنتدبرَّ الآيات الآتية:

١ ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ [الإسراء].

٢ ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ [الطور].

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

٤ ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس].

٦ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان].

٧ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

٨ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت].

٩ ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص].

١٠ ـ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ].

١١ ـ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام].

١٢ ـ ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

١٣ ـ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

١٤ ـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ...﴾ [المائدة: ٤٨].

١٥ ـ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

ونقتبس من أنوار هذه الآيات المباركات أضواءَ الحقائق الثماني الآتية، فيما يخصُّ موضوع إعجاز القرآن العزيز، وهل يمكن تحديد وجه إعجازه أم لا؟!:

أولاً: تحدَّى الله العزيز جلَّ شأنه، الجنَّ والإنسَ بكتابه الحكيم، فعجزوا وَفَشِلوا عن مجاراته:

وقد تدرَّج التحدِّي الرباني بكتابه العزيز، إمعاناً في إظهار عجز الطرف المقابل، في ثلاث مراحل:

أ ـ المرحلة الأولى:

أمر الله تعالى نَبيَّه الأمِّيَّ ﷺ أن يعلن للناس وللجنِّ مُدَوِّياً جازِماً، بأنهم لا يستطيعون حتى لَو اجتمعوا كلُّهم وتساندوا وتعاضدوا فيما بينهم على ذلك، كما في كل من الآية (٨٨) من (الإسراء)، والآيتين (٣٣و٣٤) من (الطور).

ب ـ المرحلة الثانية:

وفي هذه المرحلة، خُفِّفَ الطَّلَبُ في التحدِّي من الإتيان بـمثل القرآن كُلِّه، إلى الإتيان بعشر سور مثله، كما في الآيتين (١٣و١٤) من (هود).

ج ـ المرحلة الثالثة:

وفي المرحلة الثالثة، خُفِّفَ الطلب إلى أقصى مداه، وهو الإتيان بسورة واحدة فقط، مثل أَيَّةِ سورةٍ من سُورِ القرآن المباركة، كما في الآية (٢٣) من (البقرة) والآية (٣٨) من (يونس).

ولكن كانت النَّتيجة في المراحل الثلاث ـ بالنسبة للطَّرف المقابل وهم الكفار ـ العَجْزَ عن الإجابة أو الفشل في المحاولة، وهذا منذ نزول القرآن وإلى الآن، وسيظل الأمر هكذا بلا شك إلى آخر الزمان.

ومن الواضح أن هذا التحدِّي القرآني من الله سبحانه وتعالى، أو هذا التحدِّي الرباني بالقرآن، كان في المقام الأول موجَّهاً إلى كفّار العرب بمجموع قبائلهم، وبالأخصّ قبيلة قريش المشهورة المتنفِّذة آنذاك.

ومعلوم لكل دارس لتأريخ العرب، وخصوصاً في الفترة التي بُعِثَ فيها النبيُّ الأميُّ الخاتم ﷺ، أنهم لم يبرزوا ويتميَّزوا في ميدان من ميادين الحياة ونشاطاتها، كما برزوا وتميَّزوا في ميدان الكلام: خطبة وأمثالاً وشعراً وسَجْعاً، ولكنهم وبالرغم من تَفَوُّقهم في ذلك الميدان الذي تحدّاهم كلام الله المبارك فيه، سكتوا جميعاً، ولم يحاولْ أحدٌ منهم أن

يُجَرِّب حَظَّه في الإجابة على ذلك التحدِّي الموجَّه إليهم هم قبل سائر الناس!

وسبب ذلك والتعليل الصَّحيح لذلك المَوْقِف، هو:

أن أهلَ كلِّ فنٍّ وصناعةٍ (أي المتخصِّصين) يُدْرِكون أكثر من غيرهم حدود فَنِّهم ومداه، الذي يمكنهم المباراة والمسابقة فيه، ولَما كان أولئك القوم هم فرسان ميدان الكلام والبيان، وإبداء البلاغة والفصاحة فيه، ثم قارنوا بين القرآن وأنواع كلامهم، وشاهدوا التباين الكبير بين المستويَيْن، أَيْقنوا أن القرآن كلام، ولكنه كلام خاصّ ومن نوعٍ آخر، وله شأن آخر، ولا يمكن الدخولُ معه في حَلَبَةِ المجاراة والمباراة بِحال!

ومن المؤكَّد أنَّ سكوت أولئك المتخصِّصين الذين وجِّه لهم التحدِّي في الميدان الوحيد الذي كانوا يمتازون فيه عن غيرهم من الشعوب، وكان لهم فيه الحَذْقُ التامُّ والمهارة الكافية، هذا بالإضافة إلى شدّة عداوتهم لرسول الله ﷺ الذي كان ـ كما كانوا يقولون ـ يُسَفِّهُ أحلامَ آبائهم، ويَعيبُ آلهتهم، ومن ثمَّ تَوَفُّرُ داعي الإستجابة القوي، كي لا يبدوَ دينُهم ضعيفاً أمام الدين الجديد الذي جاءَهم به (محمد بن عبد الله بن عبد المطلّب) ﷺ، أجل إن سكوتَ أولئك أمام التحدِّي القرآني المتكرِّر، الذي يَقْرَعُ رَسُول الله ﷺ وأصحابهُ به آذانَهم ليل نهار، بتلاوة كتاب الله العزيز على مسامعهم وفي مجالسهم، لأَعْظَمُ برهان على أن القرآن مُعْجِزٌ ولا يُجارى أبداً، وذلك لأن ما عَجَز عنه القوي الماهر المتخصِّص المتمرِّس، فغيره الذي يَفقِدُ تلك المزايا سيكون عنه أَعْجَزَ، بلا شك.

وقد أورد (النيسابوري) في كتابه (أسباب النّزول) في سبب نزول قوله تعالى في سورة (المدثر): ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قصة تُبيِّن لنا مدى حَيْرَةِ وَعَجْزِ كبراء قريش الكافرين تجاه القرآن، ومدى تأثرهم البالغ بأسلوبِهِ المعجز، من حيث البيان الخارجيُّ والمحتوى الداخلي، حيث يقول:

«عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيِّ ﷺ فقرأ

عليه القرآن وكأنه رَقَّ(١) له، فبلغ ذلك أبا جهلٍ فقال له يا عمّ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوك، فإنك أتيتَ مُحمَّداً تتعرَّض لما قِبَلُه، فقال (أي الوليد): قد علمت قريش أنِّي من أكثرها مالاً، قال: فَقُلْ فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكارِهٌ، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالأشعار مِنِّي، ولا أعلم برَجزها وبقصيدها منِّي، والله ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئاً من هذا، والله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنَّه لِمُثْمِرٌ أعلاه، مُغْدِقٌ أسفلُهُ، وأنه ليعلو وما يُعلى، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فَدَعْني حتّى أفكر فيه.... فقال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر]، الآيات كلّها»(٢).

وهاهنا ربَّما يسأل سائل:

إذاً: فلماذا قام (مُسَيلمة الكذاب) بمحاولة مجاراة القرآن، وألَّف بعض الجمل التي ضاهى بها بعض سور القرآن؟!

وقبل الجواب على هذا السؤال نقول:

إذاً: تلك المحاولات التي قام بها (مُسَيلمة الكذاب) وأمثاله والتي كلها باءَتْ بالفشل الذريع، برهان ساطع على بطلان القول بالصَّرف! فها هو مُسَيلمة الكذاب: قام بمحاولة الجواب على التحدِّي القرآني، ولم يَصْرِفِ الله تعالى قَلْبَهُ، ولم يُثْنِ عَزْمَه عن المحاولة، فأين الصّرف إذاً؟!

وجواب السؤال المذكور هو:

إنّما سكت فرسان الكلام والبيان من قريش وغيرهم عن الإجابة على

(١) أي لان قَلْبُهُ للإسلام نتيجة التأثُر.

(٢) (أَخْرَجَهُ الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٥، والبيهقي في شعب الإيمان: ١٣٣، وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ووافقه الذهبي، أنظر: الإستيعاب: ج٣، ص٤٦٧).

تحدِّي القرآن، لأنـهم كانوا حُذّاقاً ومَهَرةً في فن الكلام والبيان، وكانوا يدركون الفرق الهائل والبون الشاسع بين القرآن وبين كلامهم ـ كما صرّح به (الوليد بن المغيرة)، لِذا نَأَواْ بأنفسهم عن المجاراة، ولم يريدوا أن يَفْضَحُوا أنفُسَهُم ويجعلوا من أنفسهم ومحاولاتهم الفاشلة أضحوكةً للناسّ، ولكن مُسَيْلمة وأمثاله لم يكونوا من رجال ذلك الميدان أولاً، وثانياً: وجدوا بيئة خصبة وسوقاً رائجة تروج فيها بضاعتهم السخيفة، فأرادوا أن يحققوا لأنفسهم أغراضاً آنيـة، ولم يهتموا كثيراً بانفضاحهم، وهذا هو دَيْدَنُ أصحاب الباطل المُسْتَغلِّين للبسطاء من الناس وأهل الغوغاء، من كل عصر ومصر.

وخير ما نستدل به في هذا المجال، هو الإستشهاد ببعض جمل مسيلمة الكذاب الذي زعم أنه يباري بها كلام الله الحكيم:

فعلى سبيل المثال أراد ذلك الكذاب أن يضاهي سورة (الفيل) المباركة بهذه الجمل:

(الفيل ما الفيل؟ وما أدراك ما الفيل؟ له أذنان عريضان. وخرطومٌ طويلٌ)

كما نرى:

بالرغم من أنه قَلَّد القرآن من حيث اللفظ الظاهر، وهذا ليس معارضةً ومضاهاةً، بل تقليدٌ ومحاكاة، ولكنه مع ذلك لم تتمخَّضْ محاولته الفاشلة إلَّا عمّا جعله أضحوكة للعقلاء!

هذا وسنبيِّن فيما بعد ـ في المطلب الثالث خصوصاً ـ أن إعجاز كلام الله أعظم وأجلّ وأوسع من أن يكون منحصراً في الجانب البياني، كي تكون مجاراته مَيْسورة وممكنة، حتى لو فرضنا بأنه يوجد من بين أهل الكلام والبيان من يملكون مقدرة بيانية خارقة، تمكنُّهم من الإجابة على التحدّي!

ثانياً: أعلن سبحانه وتعالى مسبقاً أنه لا يمكن مجاراة كلام الله تعالى أبداً:

كما قال تعالى في الآية (٢٤) من (البقرة) بعد توجيه تحدِّيه للناس، أن يأتوا بسورة مثل إحدى سور القرآن، سواء كانت قصيرة أم متوسطة أم طويلة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فإن لم تفعلوا ولم تأتوا بسورة مثل إحدى سور القرآن، واعلموا مسبقاً بأنكم لن تفعلوا ذلك، إذْ ليس في وسعكم، ففي تلك الحالة اجعلوا أنفسكم في حفظ ووقاية من نار جهنّم التي يتكوَّن وقودُها من الناس (الكفرة) والحجارة، والمقصود بهذه الجملة: أنْ يؤمنوا بالقرآن العظيم ومُنَزِّلِهِ الحكيم ومبلغه الكريم صلوات الله وسلامه عليه، لأنه لا يمكن توقِّي النّار إلَّا بالإيمان، ومن الجَلِيِّ أنه لا يمكن لغير الله تعالى أن يُطْلِقَ هذا القولَ، ولكن الله تعالى بما أنه هو نفسه قائل القرآن وخالق الإنسان، كما قال جلّ شأنه: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن]، وهو عليمٌ بكلامه المنزَّل، والمستوى الرفيع الذي هو فيه لفظاً ومعنى، وكذلك هو خبير بالإنسان المخلوق له، وحدود الطاقة البيانية التي منحه إيّاها، فهو سبحانه يعلم ماذا يقول، والمآل الذي تصير إليه الأمور!

ثالثاً: مَكْمَنُ سِرِّ إعجاز القرآن العظيم، هو اشتماله على أسرار السَّموات والأرض، لأنه صدر عن علم الله المحيط المطلق:

وهذا ما بَيَّنَتْهُ كلٌّ من الآية (١٤) من (هود) والآية (٣٩) من (يونس) والآية (٦) من (الفرقان).

وهذا هو توضيح ذلك بإيجاز:

١) أما في الآية (١٤) من (هود) فيقول تعالى بعد توجيه التحدِّي للكفار، بأن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . .﴾ [هود: ١٤].

والخطاب موجَّهٌ للنبيِّ ﷺ ولأَتباعه المؤمنين، فيقول تعالى: إن لم يَسْتَجِب الكفارُ للتحدِّي الموجَّه إليهم، فاعلموا أن عجزهم هو بسبب كون القرآن نازلاً بعلم الله، ومعنى هذا كما أن علم الله تعالى مُطْلَقٌ ولا حدَّ له، كذلك كلامه الصادر عنه هو مثله، فكيف إذن يتسنّى للبشر بعلمهم القليل الجزئي، أن يُجارُوا كلامَ الله الصادر عن علمه المطلق؟!

وبناءً عليه:

صحيحٌ أَنَّ مَكْمَنَ سِرِّ إعجاز القرآن المُعْجِز العزيز، هو كونه نازلاً بعلم الله، ومن ثَمَّ كونه مشتملاً على أسرار الوجود.

٢) وأما في الآية (٣٩) من (يونس) فيُرْجِعُ سبحانه وتعالى سبب عدم إيمان الكفّار بالقرآن العظيم، إلى سببين:

١ ـ عدم اطّلاعهم على ما يحتويه القرآن من علوم ومعارف.

٢ ـ عدم مجيء مآل وعاقبة الحقائق التي أخبر بها القرآن، ممّا يتعلق بالبعث والنشور والحساب والجزاء.

وهذا يعني: أنّ إعجاز كتاب الله يَكْمُنُ في كونه حاوياً علوماً ومعارف ربّانية غير محدودة، وحقائق ثابتة لا شك في مجيئها، لا يعلمها على حقيقتها إلّا الله تعالى، وأَنَّ المطَّلِع على علوم كتاب الله الحكيم، يحصل له من اليقين بكونه كلام الله، مثلَما يحصل له اليقين عند معاينته للحقائق الغيبية الأخروية عند مجيئها، وذلك لأن الله تعالى نَفى الإيمانَ عن الكفار بالقرآن، كما قلنا لسببين:

١ ـ عَدَمُ إدراكهم لما يحتوي عليه من العلم.

٢ ـ عدم مجيء عاقبة ما أخبر به، أي عدم تَحَقُّقِهِ، والمقصود به حقائق القيامة والآخرة.

وبِناءً عليه: فمن حصل له أحدُ هذين الشَّيئين، حصل له بِسببِهِ الإيمانُ بالقرآن، ومن المعلوم أن الثاني (أي تحقُّق وعود القرآن المرتبطة بالآخرة) لن يحصل في هذه النشأة الدنيوية، حسب خطة الله الحكيمة التي

أطْلَعَنا عليها في كتابه، لذا فَلَمْ يبق إلَّا الأول (أي: التعرّف على علوم القرآن ومعارفه التي أودعها إياه مُنزِّلُه الحكيم).

٣) وفي الآية (٦) من (الفرقان) وبعد ذكر اتهامات الكفار الزّائفة للقرآن العظيم الذي يُبَلِّغه النبيُّ الخاتم ﷺ وهي: اعتباره إفكاً (كذباً)، وأساطير الأولين، يقول سبحانه وتعالى لنبيِّه ﷺ كي يبيِّن لهم مصدَرَ القرآن وينبوعه الحق: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾.

أي: لَيس الأمر كما تظنون، أو كما تُوهِمون السُّذَّج والبسطاء، بل المصدر الذي جاء منه القرآن، هو الله تعالى العليم بأسرار السموات والأرض، وإنما أنزله ليكون سبب مغفرته للناس ورحمته بهم.

وعليه: فَسِرُّ إعجاز القرآن، هو أنّ الله تعالى أَوْدَعَهُ أسرار السموات والأرض، لذا فلا يقدر على معارضته ومجاراته، إلَّا من هو مُطَّلِعٌ على أسرار الوجود وخفاياه، ومثل هذا لا وجود له في الخلق، بل لا يعلم أسرار الوجود إلَّا خالقُ الوجود وربُّه ومالكه سبحانه وتعالى، بالنتيجة: لا يمكن معارضة القرآن والتصدِّي للإجابة على تحدِّيه!

رابعاً: لا دخل للنبيِّ محمدٍ ﷺ بأي وجهٍ في القرآن، بل هو مبلِّغ له عن رَبِّه فحسب، والكلام الصادر عن رب البشر، خارج عن نطاق قدرة البشر من كل الوجوه:

وهذه الحقيقة بَيَّنَتْها كل من:

الآيتين (١٥و١٦) من (يونس)، والآيات (٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩) من (العنكبوت)، والآية (٨٦) من (القصص).

وإليك البيان بإيجاز:

١) أما الآيتان (١٥و١٦) من (يونس) فيأمر الله تعالى نَبِيَّه، أن يقول في جواب الكفار الذين طالبوه أن يأتيهم بقرآن آخر، أو أن يُغَيِّر منه مواضع لا تحلو لهم: ﴿...قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ...﴾ [يونس: ١٥]، أي: أن يغيِّر القرآن إمّا كلّياً وإمّا جزئياً!، فأمره سبحانه أن يجيبهم بما يلي:

أ ـ ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ أي: لا يحق لي أَنْ أغيّره من عند نفسي!

ب ـ ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ فأنا لست سوى مُتَّبعٍ لما يوحيه إليَّ ربِّي، فليس لي حق التدخل فيه مُطْلقاً.

ج ـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي: لا أملك حق التدخّل في أمر القرآن تبديلاً وتغييراً، بل وزيادة عليه: أخافُ إن عصيتُ ربِّي في أقلَّ من هذا، عذاب يوم عظيم!

د ـ ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ أي: لو شاءَ الله عَدَم إِنْزالِ كتابِه، لما تَسنَّى لي أَنْ أقرأَهُ عليكم، ومن ثَمَّ لَما أَعْلَمَكُم الله تعالى به، ولَما أَطْلعكم عليه.

هـ ـ ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: فقد مكثْتُ فيكم قبل أن يوحى إليَّ أربعين أو ثلاثة وأربعين عاماً من سِني عمري، أفلا تتفكرون بأنه لو كانت لي يد في القرآن، لما انتظرت كل تلك المدّة الطويلة، من دون أن أكلمِّكم بحرفٍ منه!

ولا شك أن هذه الحجج الربّانية التي علّمها الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ أن يجيب بها الكفار، وخاصة الحجة الأخيرة منها، تَنْسِفُ كل مزاعم الكفار والملاحدة المتشكِّكين، في كون القرآن ربانية المصدر، سواء منهم الغابرين أو المعاصرين.

٢) وأما الآيات (٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩) من (العنكبوت) فيبيِّن فيها العليم الحكيم جلّ شأنه أولاً: أنه أنزل القرآن على نبيّهِ الخاتم، مثلما أوحى إلى من سبقه من الأنبياء ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ، ثم يُبَيِّن أن أهل الكتاب (أي المنصفون) يؤمنون به، وكذلك من الكفار والمشركين الذين لم

يكن لديهم كتاب سماوي، مَنْ يؤمن به، ثم يعلن سبحانه أنه لا يجحدُ بآياته سوى الكافرين الراسخين في الكفر.

والجحود هو إنكارُ الحق، وعدم الإعتراف به بالرغم من معرفته[1]، كما قال تعالى عن فرعون وحاشيته العارفين بحقانية موسى عليه السلام: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾ [النمل: ١٤].

ثم بعد ذلك يبيّن المولى جلّ شأنه، حكمة جعله نبيَّه الخاتم أمِّياً لا يقرأ ولا يكتب: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت].

أي: إنما جعلناك (أمياً) لا تقرأ قبل القرآن أيَّ كتاب، ولم تَخُطَّ بيمينك كتاباً - بل سَطْراً من كتاب -، كي لا يكون هناك أي مجال لتشكك أهل الباطل في أمرك، ولو كنت قارئاً وكاتباً، لكان هناك مجال لارتياب أهل الباطل، وأما الآن فلا مبرِّر لهم أصلاً.

ومن الواضح أن مجرَّد معرفة رسول الله ﷺ القراءة والكتابة، لا يُعلَّلُ به حصولُ القرآن وظاهرته العجيبة المعجزة، إذ القُرّاء والكُتّاب عجزوا كغيرهم عن مجاراةِ القرآن، ولكن كون النبيِّ الخاتم ﷺ أمياً أبعد عن الشبهة، ولهذا جعل الله الحكيم الذي هو في كل شؤونه على صراط مستقيم، نبيَّه الخاتم أمياً ومن قوم أُمِّيين - أي أغلبيتهم الساحقة وأثناء بعثة النبي ﷺ - كما قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ [الجمعة: ٢].

وقال: ﴿...ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣) وأما الآية (٨٦) من (القصص) فيخاطب فيها ربُّ العالمين رسولَهُ قائلاً:

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص١٨٧، لفظ: (جحد).

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي:

لـم تكن ـ يا محمد ﷺ ـ تَأْمُلُ وتَتوقَّعُ أن يوحى إليك القرآنُ، بل نزول القرآن عليك، ليس له سبب سوى رحمة ربك إياك خصوصاً، وأهل الأرض عموماً، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

أَجَل، ليس لَمْ يكن لرسول الله ﷺ أيُّ دخل في القرآن، فَحَسْبُ بَلْ ولم يكن يَفكِّرُ فيه ويَحْلُم به ويتوقعه أيضاً.

وبناءً على ما مرَّ ذكره، نقول:

طالما أن النبيَّ ﷺ ـ وغَيْرَهُ بطريق أَوْلى ـ ليست له يدٌ في القرآن العظيم، بل هو وحي الله الخالص، يَجب أن يكون إعجازه إعجازاً مطلقاً غير محدَّد، وذلك لأن صفات الله كلها مطلقة لا حدود لها، والقرآن هو كلام الله المبارك النابع من علمه المطلق، كما قال تعالى في تسميته القرآن (كلام الله): ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٦].

وقد مرّ ذكر قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ . . .﴾ [هود: ١٤].

خامساً: إنّ أهل العلم وحدهم، يُدْرِكون كما ينبغي عظمة القرآن وحقّانِيّتَهُ:

وهذه الحقيقة صرَّحت بها كل من:

الآية (٦) من (سبأ)، والآية (١١٤) من (الأنعام).

حيث يبيِّن سبحانه وتعالى في آية (سبأ) مخاطباً نبيَّه الكريم ﷺ أن الذين أُوتوا العلم يرون (أي يعلمون علماً يقيناً كالرؤية بالعين) أن القرآن

الذي أنزل إليك، هو وحده الحق، وأنَّه يدلّ الناس على صراط الله العزيز الحميد.

وفي آية (الأنعام) كذلك يخاطب ربُّ العالمين نَبيَّهُ الأمين، مُخْبِراً إياهُ ومُطَمْئِناً: بأن الذين أعطاهم الله كتباً ـ أي أعطى أنبياءَهم الذين بعثوا إلى آبائهم كتباً ـ يعلمون يقيناً أن القرآن مُنَزَّل إليك من ربك بالحق، لذا فلا تَشُكَّنَّ في أمرك بسبب كفر الكافرين وعنادهم، وكذلك من جرّاء إنكار وجحود بعض علماء أهل الكتاب المستيقنين بِنُبوَّتك، والحاسدين لك بسبب فضل الله تعالى عليك ونعمته على قومك ـ إذ كان بين أهل الكتاب وخاصة اليهود وبين القبائل العربية، صراع ونزال ومنافسة قبل الإسلام ـ.

إذاً: العلمُ هو الذي يتيحُ المجالَ للإنسان، أن يطَّلع على عظمة القرآن وحقّانيَّتِهِ، وهذا كما قيل: (إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذَووا الفضل).

والمقصود بالعلم وخاصة في آية (سبأ)، عام يشمل كلَّ أنواع العلم، وسنشير لاحقاً إلى حقيقة أن التعرف على أسرار الخلق، يُجلّي حقّانية كتاب الله وحقائقه التي يتضمَّنها لأهل العلم باستمرار.

سادساً: القرآن فيه بيانُ وتفصيل كل شيءٍ، ممّا يحتاجه أهل الأرض في حياتهم:

وهذه الحقيقة صرَّحت بها الآية (٨٩) من (النحل) والآية (١١١) من (يوسف)، حيث يعلن الله تبارك وتعالى فيهما بأن القرآن (تبيان وتفصيل لكل شيء).

أَجَلْ، كتابُ الله الكريم حاوٍ على كل شيء مِمّا يحتاجُه الجن والإنس في حياتهم الأرضية هذه، ويبيِّن لهم كل ما يُهِمُّهم وَيَتَوَقَّف عليه نجاحُهم في حياتهم الإبتلائية، وينالُونَ نتيجة له ـ أي للنجاح في الإبتلاء ـ السعادة الدنيوية، والحياة الطيبة، والفلاح الأخروي والحياة الخالدة الهَنِيَّة.

ويجب التنبّه هنا إلى أنه ليس المقصود بكلمة (كل شيء) في الآيتين ـ أي في قوله تعالى: ﴿...تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...﴾ [النحل: ٨٩]،

و﴿...وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ...﴾ [يوسف: ١١١] ـ، هو كلَّ شيءٍ بإطلاق، وذلك لأن الإنسان ليس في وسعه أن يعلم كل شيء، وليس بحاجة إلى ذلك، ثم إن الله تعالى إنما سجَّلَ كلَّ شيءٍ وأَحصاهُ فقط، في اللّوح المحفوظ والإمام المبين، كما قال: ﴿...وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢].

بل المقصود بـ(كل شيء) هو كل شيء ممّا يحتاجُ إليه الإنسانُ في حياته الأرضية الإبتلائية، ويتوقف عليه نجاحُه في الإمتحان المفروض عليه، إن أراده ورغب فيه.

سابعاً: القرآن مصدِّق للكتب السابقة بأنها من الله تعالى ومهيمن عليها جميعاً:

كما جاء في الآية (٤٨) من (المائدة) والتي تحدَّثنا عنها سابقاً أيضاً، وبيّناً مفهومَ كلٍّ مِنْ: تصديقِ القرآن العظيم، وَهَيْمَنَتِهِ على الكتب الربانية السابقة.

ومن الواضح أنَّ القرآن الحكيم الذي جعله الله تعالى سراجاً، ينيرُ كلَّ ما يحتاجُهُ الإنس والجنّ في حياتهم الدنيوية بكل جوانبها، وكذلك جعله رقيباً وحَكماً على كل الكتب والشرائع السماوية السابقة، لا يمكن إلَّا أن يكون إعجازه إعجازاً مطلقاً غير محدَّد.

ثامناً: كلّما انكشفَتْ للناس آياتُ الله وأسرارُه المُدْهشة في أنفسهم وفيما حولهم من المخلوقات، ازدادوا اقتناعاً بحقانية كتاب الله تعالى:

وهذه الحقيقة صرّحت بها الآية (٥٣) من (فصلت)، إذْ يُعلنُ فيها رب العالمين سبحانه وتعالى، بأنه سَيُطْلِعُ الناسَ دَوْماً وباستمرار على آياته ـ أي أسراره المدهشة التي تأخذ بالألباب، من الإحكام والإتقان وبديع الصنع، والتي تعتبر علامات دالّة على خالقيته وربوبيّته وأسمائه وصفاته سبحانه ـ، كي يتبيَّن لهم نتيجة ذلك أن كتاب الله الحكيم حق، وهو كلامه المبارك الذي تكلّم به مع البشر، ثم يعقِّبُ سبحانه على هذا بقوله: ﴿...أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ...﴾ [فصلت: ٥٣].

أي: بما أن ربك ـ سبحانه ـ هو على كل شيء شهيد، لأنه هو خالق كل شيء وربُّه ومالكه، لذا فكتابه الحكيم محتوٍ على كل الحقائق والأسرار في الوجود، ممّا له ارتباط بأهل الأرض وحياتهم الإبتلائية.

وجديرٌ بالذكر أن حرف (س) على كلمة (سَنُريهم) حرفُ استقبال، وبناءً عليه: فالآية الكريمة تُفيدُ أن انكشافَ آيات الله في الأنفس والآفاق ـ والآفاق جمع أفق[1] ويقصد بها كل ما حول الإنسان من المخلوقات وخاصة المخلوقات العُلْويّة ـ سيستمرُّ، وذلك لأن الآية تُلوِّح بالمستقبل دوماً، وهذا يعني أن كلَّ مَنْ قرأها، أنْبَأتْهُ بأنه ستنكشف له آياتُ الله لاحقاً.

وسبب تَجلّي حَقّانية كتاب الله تعالى للناس باستمرار، وبمقدار ما يكشف الله تعالى لهم عن آياته في خلقه:

أن الله تعالى أوْدَعَ كتابه حقائِقَ الوجود وأسرارَه، ممّا له ارتباط بحياة أهل الأرض (الجنّ والإنس)، لذا فكلما اكتشف الناس ـ نتيجة التطور العلمي الذي وَفَّرَ الله تعالى لهم أسبابَهُ ـ مَزيداً من الحقائق والأسرار والنظام والإتقان الذي خلق الله العليم القدير به خَلْقَهُ، يجدون مِصْداقَهُ في كتاب الله، كما سنوضّح هذا في المطلب الثالث، وخصوصاً عند الحديث عن الإعجاز العلمي لكتاب الله، ومِن ثَمَّ يزدادون يقيناً، بأنه لا يمكن لهذا القرآن الذي يحتوي على كل هذه الحقائق التي لم يكن يَعْلَمُها أحدٌ، وقت نزول القرآن وما بعده من العصور، إلَّا أن يكون كلام الله الخالق العليم الخبير بكل شيء، ويستيقنون أن مصدر ذلك الخلق الـمُنَظَّم الـمُتْقَن الـمُدْهِش، وذلك الكلامَ المحكم الـمُفَصَّل الـمُعْجِز، واحدٌ، وهو الله الخالق الهادي، كما قال: ﴿... أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٩، لفظ: (أفق).

والآن في ختام هذا البحث، يمكننا الإجابَةُ على السؤال الذي عَنونّا به هذا المطلب:

(لا يمكن تحديد وَجْهُ إعجاز القرآن العزيز) ونقول: نَعَمْ، لا يمكن تحديد وتقييد إعجاز القرآن العظيم كتاب الله العزيز، بوجهٍ أو حتى بوجوهٍ معدودة.

أجل إن القرآن الكريم، بما أنه معجزة النَّبيِّ الخاتم المبعوث رحمة للعالمين، والرسول إلى الإنس والجن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يجب إذن أن يكون مُعجزاً من كل الوجوه وفي كل النواحي، وذلك كي يطَّلع أهلُ كلِّ عصرٍ ومصرٍ، ومن كلِّ الإختصاصات في كتاب الله، على حقائق تجعلهم يقتنعون بأن القرآن العظيم المعجز، هو كتاب الله وكلامه المبارك الذي أنزله على نبيّه الخاتم، كي يكون له ولأمته من بعده ـ في الوقت الذي هو دين ومنهاج ـ بيِّنةً وبرهاناً على نبوَّة محمد خاتم الأنبياء ﷺ وحقانية دينه وشريعته.

ومن الواضح أن كون القرآن الكريم معجزاً من كل الوجوه، لا يعني بالضرورة، أن تنكشف كلُّ وجوه إعجازه ـ التي لا يمكن تحديدها ـ أو حتى جُلّها في كل عصر ولكل المجتمعات، بل يَطَّلِعُ الناسُ على وجوه إعجاز القرآن، حسب حاجتهم وحسب نوعية اهتمام الناس، فمثلاً:

كان (الإعجاز البياني) في كتاب الله هو الأكثر لافِتاً للأنظار، وقت نزول القرآن، وفي المجتمع الذي نزل فيه، وبالنتيجة: صار كتاب الله الحكيم حجةً على أهل ذلك الزمان على الأكثر بسبب إعجازه البياني، وذلك لأن اهتمامَ ذلك المجتمع آنذاك، كان مُنْصَبّاً على فَنِّ الكلام وأساليب البيان والإبداع فيه، فَسَبَقَهُم كتابُ الله في ذلك المجال وبَزَّهم جميعاً.

ولكن في عصرنا الحالي، بما أنَّ اهتمام الناس مُنْصَبٌّ على العلم واكتشاف أسرار الخلق والنواميس الربانية العجيبة المَوْدَعَة فيه، فالجانب العلمي من إعجاز القرآن، هو الأكثر إثارة لانتباههم ولافِتاً لأنظارهم، ومن

ثمَّ يُقيم عليهم كتاب الله الحجة الرسالية للنبيِّ الخاتم ﷺ في هذا الجانب، أكثرَ من غيره من جوانب الإعجاز اللامحدودة فيه.

وهَلُمَّ جرّاً سائر جوانب الإعجاز في كتاب الله، والتي ربَّما لا ندري نحن في زماننا هذا عن أكثرها شيئاً، ولا نشعر بها عندما نَتْلو كتابَ الله أو نستمع إليه، ولكن قد تأتي مراحل أخرى في حياة أهل الأرض، ومجتمعات أخرى فيحتاجون إليها ويكتشفونها فيه، كما أننا نحن الآن نجد في كتاب الله الكريم حقائق واضحة عن الحياة والإنسان والخلق، سبق بها الزمانَ قروناً كثيرة، ولم تكن أسلافُنا مع جلالة قَدْرهم، يجدون تلك الحقائق أو أكثرها في كتاب الله، وما كانوا يشعرون بها وهم يقرؤونه، وحتى لو شَعَر بِبَعْضِها بَعْضُهم، لم يكن بوسعه التصريح بها، لمخالفتها لما ألَفِهُ الناس من تصوّرات.

وأختم هذا المطلب كلَّه بالقول:

إن كلامَ الخالق الرب المالك تبارك وتعالى، لا يمكن إلَّا أن يكون مُعجِزاً إعجازاً مطلقاً غير محدود، وذلك لأنّ كلام الله هو صِفَتُهُ، وصفات الله مطلقة من كل القيود والحدود، فلا قيد يُقيِّدُها، ولا حدَّ تنتهي إليه، فتعالى جِدّه، وتبارك اسمه، ولا إله غيرُهُ.

والآن فإلى المطلب الثالث وموضوع: (توضيح بعض وجوه الإعجاز في كتاب الله) والذي ذهب بِحصّة الأسد في هذا المبحث الرابع، بل في الفصل الخامس كُلِّه:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المطلب الثالث:
توضيح بعض وجوه الإعجاز في القرآن العظيم

بَيّنا في المطلب السابق وأثبتْنا أنّ كتاب الله العزيز مُعْجِزٌ إعجازاً مُطلقاً ولا يمكن تحديد وجه أو وجوه إعجازه، ولكن يطّلع أهلُ كل زمانٍ على وجه أو وجوه من إعجازه، بقَدَر ما تدعو إليه حاجتهم، ولا يتوقف عَطاءُ كتاب الله الكريم المبارك أبداً، وأنّى للمحدود أن يستوعِبَ المطلق اللاّمحدود، فهل يَسَعُ الكوبُ ماءَ البحر، أم هل يمكن إحصاءُ عَدَدِ القَطْر؟! فوالله شأن إعجاز القرآن مع عُقُولنا المحدودة، أعظم وأجل وأكبر من هذا بما لا يُقدَّر!

لذا فنحن هنا لا نتطَّلع إلى أكثر من الإشارة إلى بعض وجوه الإعجاز التي نراها في كتاب الله، بمنظار المعرفة التي نمتلكها نحن أهل هذا العصر، وسنحصر تلك الوجوه في عشرة، وقد يحتوي كل واحد من تلك الوجوه العشرة، أو أغلبها على وجوه أخرى أو فروع كثيرة تتفرَّع منه.

وليست محاولتي هذه إلَّا مُجَرَّد خطوة، وأقصد منها توسيع أفقنا الفكري عند النظر في كتاب الله تعالى عموماً، ولا سِيّما من حَيْثُ إعجازُهُ، وذلك لأننا نظلمُ كتاب الله ونَبْخَسُهُ حقَّهُ أشدَّ البخس، عندما نتصّور أنّ إعجازه هو الإعجاز البياني فحسب، كما كان كثيرٌ من القُدامى يتصورون.

وهذه هي الوجوه العشرة التي أراها أبرز وجوه الإعجاز لكتاب الله في هذا العصر:

١ ـ الإعجاز الروحي.

٢ ـ الإعجاز الفطري.

٣ ـ الإعجاز العقلي.

٤ ـ الإعجاز المعرفي.

٥ ـ الإعجاز التزكَوي.

٦ ـ الإعجاز الـخُلُقي.

٧ ـ الإعجاز الإجتماعي.

٨ ـ الإعجاز التأريخي.

٩ ـ الإعجاز العلمي.

١٠ ـ الإعجاز البياني.

وسنوضِّح باختصارٍ مفهومَ كل من هذه الوجوه العشرة، بِقَدَرِ ما يتسَّع لدينا المجال ويساعد عليه الحال، وكُلَّما رأينا الحاجة تدعو الإتيان بمثال أو أكثر من الآيات المباركات لغرض التوضيح، أتينا بها، ولكن نؤكِّد بدايةً أنَّ لإعطاء هذا الموضوع حقه، نحتاج إلى مجلَّدات، ولكن توَخَّيْنا الإختصار عملاً بقاعدة: (ما لا يُدْرَكُ كُلُّه لا يترك بَعْضُهُ).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١ ـ الإعجاز الرُّوحي

ونقصد بالإعجاز الروحي (أو المعنوي، أو الباطني) تلك الهيمنة والقوة الخفيّة التي يستشعرها قاريء القرآن أو سامعه، حتى وإنْ لم يفهمه! وهي ظاهرة مشهودة، تشهدُ عليها آلافُ الشهود في كل عصر وزمان.

ولكن من البيِّن أن التأثُّر الباطني القلبي، بقوّة القرآن وهيمنتِهِ يتناسب طَرْدياً مع مقدار صفاء القلب وتركيز الإنتباه والفهم ثم التفاعل معه.

وقد أحدث ذلك التأثيرُ المعنوي، أو الجذب الروحي للقرآن العظيم منذ نزوله في (مكة) وإلى عصرنا هذا، انقلاباً في أكثر من إنسان وجنّي لما قرؤوه أو سمعوه، وإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد أمثلة ذلك الإنقلاب الذي أحدثه القرآن العظيم بهَيمَنته الروحية العظيمة.

وخلاصة تلك القصة[1]:

أَنَّ عمر رضي الله عنه سمع بإسلام أخته فاطمة وختنه زيد رضي الله عنهما فذهب إليهما ووجدهما يقرءان القرآن، فَضَربَهُما حتى أدْماهما وصاحت به أخته فقالت: نعم، والله لقد أسلمنا فافعل ما بدا لك! ولما رأى صلابة موقف أخته، وهي امرأة ضعيفة، تعجّب من ذلك وراجع نفسه، ثم طلب منهما أن يناولاه ما كانا يقرءانه لينظر فيه، ولكن رفضت أخته إعطاءه إياه وقالت: إنك رجل نجس، إلَّا أن تغتسل، ثم لما تطهر، وأخذ منهما المكتوب، فإذا هو بداية سورة (طه):

(١) أوردنا هذه القصّة في المبحث العاشر من الفصل الخامس من هذا الباب (أي في الكتاب السابع من هذه الموسوعة) بالتفصيل، ورواها الدارقطني عن أنس بن مالك، وأوردها ابن هشام في (السيرة النبوية) ج١ ص٢٥٣، ط/٢٠٠٥، دار صادر.

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه].

فلمّا قرأها تـأثَّر من أعماقه وقال: ليس هذا كلامَ البشر، دُلُّوني على (محمد) فإنِّي أريد أن أُسْلِمَ، وذهب فَأَسلم ﷺ.

وقد ذكرنا من قبل الحوار الذي جرى بين (أبي جهل) و(الوليد بن المغيرة) والذي أورده النيسابوري في (أسباب النّزول) بمناسبة نزول آية: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ [المدثر]، فما بعدها، وكيف أنّ الوليد عندما استمع إلى رسول الله ﷺ وقرأ عليه القرآن، تـأثّر تـأثراً بالغاً، كما يبدو من وصفه للقرآن حيث يقول:

(والله إن لقولـه الذي يقول لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة[1]، وإنه لَمُثمِرٌ أعـلاهُ، مُغْـدِقٌ أسفَلُه، وإنه ليعلـو وما يُعْلـى)[2].

وقد أشـار سبحانه وتعالـى في أكثر من آية، إلـى هـذه الـجاذبيـة الروحية لكلامه المبارك، منها:

١ ـ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزمر].

٢ ـ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر].

٣ ـ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾ [الإسراء].

---

(١) الطِّلاوة والطَّلاوة والطُّلاوة: الحُسْنُ والرَّونَقُ، المعجم الوسيط، ص٥٦٤.

(٢) أسباب النزول، للنَّيسابوري، ص٢٥٦، ورواه الحاكم (٥٠٦/٢) وصَحَّحه على شرط البخاري ووافقه الذَّهبي.

وهنا لا بدَّ من التَنَبُّه إلى حقيقتين:

الأولى: كلّما كان الإنسانُ أكثرَ علماً وإطّلاعاً، وأكثر فهماً لكلام الله، كان أشدَّ تأثُّراً به، ولهذا ذكر سبحانه في أكثر من آية، تأثُّرَ أهل العلم بكتاب الله، ولكن هذا لا يعني أن كل المتأثرين بالقرآن من أهل العلم سيؤمنون به حتماً، كلاّ، وذلك لأنَّ الإنسان ليس محكوماً بالعقل والعلم فحسب، بل تَتَحَكّم فيه ـ طالما كان عديم الإيمان ـ مُؤَثِّراتٌ أخرى أيضاً كالهَوى والحسد والزعامة... إلخ، وهذا جَلِيٌّ غَنِيٌّ عن الإستدلال، ولكن نشير إلى هذه القصة التي رويت بهذا الصدد، وأوردها (النّيسابوري) في (أسباب النّزول) بمناسبة قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]، حيث قال:

«قال السُّدِي: التقى (الأخنس بن شُريق) و(أبو جهل بن هشام)، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذبٌ، فإنه ليس هُهُنا من يسمع كلامَك غيري؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كَذَب محمدٌ قط، ولكن إذا ذَهَب بنو قصي باللّواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟!»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: إن الكافرين يعلمون أن القرآن حق في قرارة أنفسهم، ولكنّهم لا يقرّون به، وهذا هو معنى الجحود.

الثانية: إنّ التأثّر الحقيقي بكلام الله المبارك، هو الذي يثمره الإيمانُ بالله تعالى وحبُّهُ وتعظيمه والخشية منه، ولهذا فكلّما كان الإيمان أكْمَلَ وأرسَخَ وأعظم في القلب، كان التأثر بكلام الله أشدَّ وأتمَّ، ولهذا كان الصَّحابة ﷺ وخاصة السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، أكثرَ الناس تأثراً بكلام الله، وأكثرهم تفاعلاً معه، وكان القرآن العظيم أثمر فيهم: العلم والمعرفة، والعبادة، والتقوى، والتزكية، وحسن الخلق، والعدل حتى مع الأعداء، والآداب الرفيعة في التعامل، والجهاد في سبيل الله... إلخ، بصورة قلّما ظهرت في غيرهم.

---

(١) ص١١٩، وأخرجه ابن جرير في تفسيره: (١١٥/٧)، وانظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٢ ص١٣٤، ١٣٥

٢ ـ الإعجاز الفطري

والمقصود بالإعجاز الفطري:

أنَّ كتاب الله الكريم قد استجاب لكل متطلّبات الفطرة السوية البشرية، إذْ لا يوجد شوق من الأشواق الروحية، ولا نزعة من النوازع النفسية، ولا غريزة من الغرائز الجسدية، إلَّا وراعاها كتاب الله الحكيم، وشَرَّع لها من الأحكام ما يكفل إشباعَها وإرواءَها، سواء هنا في هذه الحياة الأرضية، أو هناك في النشأة الأخروية.

وهذا دليل على أن هذا الكتاب هو كلام الله الخالق الذي فطر البشر، فأنزل كتابه الحكيم مُطابِقاً لما في الفطرة البشرية السويّة من دوافع ومطالب.

وبما أننا تحدَّثنا عن هذا الموضوع في الفصل الثاني من هذا الباب ـ أي الكتاب الثالث من هذه الموسوعة ـ نكتفي هنا بالإشارة إلى أهمِّ ما في الفطرة من أشواق ونوازع وغرائز، ثم إلى ما يقابلها من آيات الله المباركات، كي يتبيّن لنا كيف يتطابق كلام الله الكريم، مع فطرة الإنسان المخلوق في أحسن تقويم:

١ ـ نزعة التعبد لله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ نزعة التعلُّم والإطلاع: ﴿. . . وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾: [طه: ١١٤].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ. . .﴾ [العنكبوت: ٢٠].

٣ ـ الشوق إلى العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ...﴾ [الحديد: ٢٥].

٤ ـ الإشتياق للجمال والزِّينة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل].

٥ ـ غريزة الأكل والشرب: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

٦ ـ غريزة ستر العورة والتجمُّل بالثياب: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ...﴾ [الأعراف: ٢٦].

٧ ـ الغريزة الجنسية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ...﴾ [الروم: ٢١].

٨ ـ نزعة حبّ امتداد النسل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً...﴾ [النحل: ٧٢].

٩ ـ غريزة التملُّك: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ...﴾ [النساء: ٣٢].

١٠ ـ غريزة الدفاع عن الذات: ﴿... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ...﴾ [البقرة: ١٩٤].

١١ ـ نزعة حبّ الذكر والصيِّت الحسن: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء].

١٢ ـ غريزة حب الشهوات (أي نيل مشتهيات النفس): ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ...﴾ [آل عمران: ١٤].

١٣ ـ نزعة الشعور بالكرامة والشَّخصية: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

١٤ ـ نزعة الحرية والإختيار: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ [الكهف: ٢٩].

١٥ ـ الشوق إلى القدوة المُثلى للإقتداء: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب: ٢١].

١٦ ـ الشوق إلى لقاء الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ [العنكبوت].

١٧ ـ الشوق إلى رؤية الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

١٨ ـ الشوق إلى الحياة الـهنيَّة الخالدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

ولا يقدر قَدرْ هذه الناحية المهمّة والحسّاسة جداً من نواحي إعجاز كتاب الله، إلَّا من عَرَفَ كم عانى البَشَرُ وما يزال من الآراء والفلسفات المتباينة المتعارضة، بشأن الأشواق والنوازع والغرائز الفطرية، من إفراط وتفريط، في مجال كيفية الإستجابة لمطالب الروح والجسد، والعقل والقلب!

ومن يتأمَّل التوازن الدقيق الذي راعاه كتاب الله، بشأن كيفية الإستجابة للدواعي الفطرية، لا يسعُهُ سوى الإقرار بأن مُنَزِّل القرآن هو الله الخالق والفاطر الحكيم سبحانه وتعالى، وأن ذلك التوازن الدقيق العجيب بين تلك الدواعي الفطرية المتعدِّدة، لن يَتسنَّى إلَّا لله العليم القدير اللطيف الخبير ـ جلّ وعلا ـ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٣ ـ الإعجاز العقلي

ونقصد بالإعجاز العقلي في كتاب الله الحكيم، أنَّ العقل السَّليم يقتنعُ اقتناعاً تاماً بكل ما جاء به كتابُ الله من حقائق وأحكام، سواء في مجال العقيدة أو العبادة ـ بمعناها الشعائري الخاص ـ، أو الخُلُق، أو المعاملات بمفهومها الواسع الشامل لإدارة البيت والأسرة والمجتمع والدولة.

وقد فطن علماؤنا رحمهم الله لهذه الحقيقة، وألَّفوا عنها كتباً مُسْتَقِلَّةً، أو ذكروها في ثنايا مباحث أخرى، ومن الذين كتبوا في هذا المجال كتباً مستقلَّةً: شيخ الإسلام (ابن تيمية الحرّاني) رحمه الله وعنوان كتابه: (دَرءُ التعارض بين العقل والنقل) وهو كتاب في عشر مجلدات كبار، وكذلك (ابن رشد) رحمه الله وعنوان كتابه: (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الإتصال).

وكتب كل من (أبي حامد الغزالي) و(ابن الجوزي) و(ابن قيم الجوزية) و(العزّ بن عبد السلام) و(الشاطبي) و(ابن عقيل) رحمهم الله مباحث ممتازة في ثنايا كتب لهم في هذا المجال، وإنما ذكرنا أسماء هؤلاء العلماء على سبيل المثال فحسب، وإلَّا فكلُّ العلماء المُحقِّقين مُتَّفِقون على الحقيقة المذكورة، وكيف يختلف العلماء على حقيقة ذكرها كتاب الله تعالى؟!

ونحن هنا لا يمكننا أن نأتي بأمثلة للحقائق العظيمة والأحكام الحكيمة الَّتي بيَّنها كتاب الله، ولا يملك نفسه من يمتلك العقل والإنصاف تجاهها إلَّا التسليم والإذعان، وكلُّ حقائق القرآن وكل أحكامه هي كما

ذكرنا، ولا يـمكننا التخيُّـر منها، ولكن نقول بإيـجاز:

بإمكان كل مسلم فقيه في كتاب الله الحكيم، أن يتحدَّى الكفّار بكافَّة أصنافهم، أن يجدوا شيئاً في كتاب الله، لا يتقبّله العقل السّليم ولا يرضاه لِمُصادَمته معـه!

وهذه بعض الآيات التـي ينَـوِّه الله تعالى فيها بالتعـقّل والتفـقّه، ويربط فيـها الإنتفاعَ بكتاب الله بأصحاب العقول وأهل العلم والفكر والفقه، ويحصره فيهم، وهذا معناه أن الإنسان كلّما كان أرجح عقـلاً وأغزر علماً وأدق فكراً وأعمق فقهاً، كان أكثر تـمكّناً في فهم كتاب الله وأقوى اقتناعاً بحقّانيتـه:

١ ـ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

٢ ـ ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد].

٣ ـ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم].

٤ ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

٥ ـ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ].

٦ ـ ﴿...قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

٧ ـ ﴿...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٨ ـ ﴿...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

٩ ـ ﴿...أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

١٠ ـ ﴿...قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

ولا شك أنَّ عدم تصادم شيءٍ من حقائق كتاب الله وأحكامه مع العقل السّليم، معجزة وأيّةُ معجزة، وخصوصاً إذا علمنا أن الحقائق التي ذكرها كتابُ الله صراحةً أو أشار إليها تلميحاً، تشمل الخالق جلّ وعلا، والخلق كُلَّه، من سماءٍ وأرضٍ وما تحتويانهِ من ملائكة وجن وإنس، وكذلك تطرَّقت أحكامُهُ التي شرَّعها تصريحاً أو تلميحاً، إلى كل جوانب الحياة الفردية والجماعية!!

ومَنْ لا يَقْدِرُ هذه المعجزة القرآنية قَدْرَها، فَلْيُمْسِكْ بيده أيَّ كتاب آخر، سواء من الكتب الرَّبانية المحرَّفة، كالتوراة والإنجيل اللَّذَيْن تحدَّثنا عنهما، أو من الكتب التي ألَّفها الفلاسفة والمصلحون والساسة والمفكِّرون والأدباء ..الخ، وسواء كانوا من المعاصرين أو السابقين، ثم لينظر كم يرى في كل منها من أخطاء وأغلاط، أو آراء وأفكار عَفى عليها الزمن، وإن كانت صحيحة وصالحة للعصور والمجتمعات التي قِيلَتْ وكُتِبَتْ لها!

فعلى سبيل المثال:

كتاب (جمهورية أفلاطون) لأفلاطون تلميذ (سقراط) وأستاذ (أرسطو) ـ وهؤلاء الثلاثة من أشهر وأكبر فلاسفة اليونان، بل اعتبرهم بعض المفكرين أعظم العقول البشرية! ـ إذْ نجدُ في الكتاب المذكور بعض الآراء والأفكار، تعتبر في عصرنا هذا، آراءً متخلِّفة وأفكاراً ظلامية جداً، وذلك مثل تقسيمه المجتمع من حيث شرائحه إلى طبقات، وتشبيه كل طبقة منها بمعدن من المعادن، فالملوك والساسة والفلاسفة كالذهب والفضّة، والقادة العسكريون وجنودهم مثل الحديد، والصُنّاع كالنحاس، وسائر الناس كالخَزَف!

ولكن كتاب الله الحكيم لا يصطدم شيء منه بالعقل السليم فحسبُ، بل كلّما تطوّر الفكر البشري واكتشف مزيداً من أسرار الخلق وسننه، كلّما ازداد بصيرة بشأن كتاب الله، واقتناعاً بما فيه من حقائق وأحكام.

ولكن هنا يجب التنبُّه إلى ثلاث حقائق:

الأولى: لا يعني القول بأن القرآن منسجم مع العقل في حقائقه وأحكامه كلها، بأنَّ العقل يمكنه مستقلاً أن يَصِلَ إلى دَرْك تلك الحقائق والأحكام، إذْ فَهْمُ العقل لشيءٍ مّا بعد وروده عن طريق الوحي واقتناعه به، شيءٌ، وتَمَكّنه من الوصول إليه بنفسه شيءٌ آخر.

الثانية: وكذلك لا يعني القول بأنَّ النقل (أي القرآن) موافق للعقل، كون العقل قادراً على استيعاب وإدراك كل الحقائق والأحكام التي في كتاب الله، إذْ كيف يمكن للمحدود احتواء المطلق اللاّمحدود، ولكن أصحاب العقول يأخذون ويستنبطون من كتاب الله في كل مرحلة وظرف، من الحقائق والأحكام ما تدعو إليه حاجتهم ويقتضيه تطور الحياة، ولا يخفى الفرق بين الإقتناع الإجمالي والإستيعاب الكلّي.

الثالثة: وكذلك لا يعني القول بأن حقائق الوحي وأحكامه لا تصطدم بالعقل، كون العقل مستطيعاً تصوُّر كيفية تلك الحقائق وتعليل تلك الأحكام، فمثلاً لا يستطيع العقل أن يدرك كيفية (الروح) كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، ومعلوم أن روح كل إنسان بين جنبيه وهي أقرب شيء إليه، وكذلك قد يجهل العَقْلُ عِلَلَ وحِكَمَ بعضَ الأحكام، وخاصة الأحكام المرتبطة بالشعائر التعبّدية، والفرق واضح بين كون الشيء غير متصادم مع العقل وأحكامه، وبين كون العقل قادراً على سَبْرِ أغوار ذلك الشيء ودرك حقيقتِهِ، وهل عرف العقلُ حقيقةَ نفسه، حتى يستطيع معرفة حقيقة غيره؟!

ولهذا قال العلماء: (قد يأتي الوحي بمحارات العقول، ولكن لا يأتي بمحالات العقول) يعني: قد يكون فيما يأتي به الوحي موضوعٌ أو مواضيع يتحيّر العقلُ في دَرْك كنُهها وحقيقتها، ولكن لا يأتي بما يعتبرُهُ العقلُ محالاً، فثالوث النصارى مثلاً، محالٌ عقليٌّ، لأنه يتصادم مع أحكام العقل البديهية، قبل قواطع النقل المتلوة المرويَّة، إذْ يستحيل كون الشيء واحداً وثلاثة في آن واحدٍ، وهذا ما يقوله النصارى في ثالوثهم، حيث

يقولون: إِن الله تعالى واحد، وهو في الوقت ذاته ثلاثة أقانيم: (الآب، الإِبن، الروح القدس).

ولكن معرفة حقيقة الذات الإلـهية، ومعرفة كيفية صفاته وأسمائه وشؤونه، وإن كانت صعبةً بل مُتَعذِّرة للعقل، وكان العقل مُتحيِّراً فيها، لكن الإيمان بالله الواحد الأحد الصَّمد، لا يجد فيه العقلُ أيَّةَ صعوبة، بالرغم من عدم تمكّنه من إدراك حقيقة وكيفية الله تعالى: ذاتاً وأسماءً وصفاتٍ و... إلخ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٤ ـ الإعجاز المَعْرفيّ

ونقصد بالإعجاز المعرفي في القرآن، ما حواه كتاب الله الكريم من التعريف بالله الخالق الرب المالك سبحانه وتعالى، وأسمائه الحُسْنى وصفاته العُلى، وشؤونه المُثْلى، وكذلك التعريف بالخلق من: عرش وجنّةٍ ونارٍ وسموات وساكنيها من الملائكة الكرام، وأرض وما فيها، وَمَنْ فيها، من جماد ونباتٍ وحيوان وإنسٍ وجن، وخصوصيات هذه المخلوقات ووظائفها عامة والإنس والجن خاصة، ثم بيان مصير الخلق ككل، ومصير الجن والإنس بالأخص، وما ينتظرهم من ثواب أو عقاب، بناءً على كيفية تمضية حياتهم الأرضية الإبتلائية... إلخ.

ومن تدبر كتاب الله الحكيم في جانبه المعرفي هذا، واطّلع على مَعارفِهِ الحقة التي تشهد لها الفِطَرُ والعقول والعلم والواقع والتاريخ، تبيَّن له بما لا يدع لديه أيَّ مجال للشك والرِّيب، أن القرآن معجزة الله لِنَبيِّه الخاتم، وبَيِّنَته الجَليّة على الناس، بما حواه من معرفة صحيحة بالوجود، يستحيل صدورها، إلَّا عَمّن لديه كل أسرار الوجود جلّ شأنه.

وبما أنّنا خصَّصنا الكتاب الأول بفصوله الأربعة لبحث موضوع المعرفة فَنُحيلُ عليه، ونكتفي هنا بإيراد بعض الآيات المباركة التي ذكرت فيها جوانب من تلك المعرفة الحقة صراحةً أو إشارة، والتي يستحيل أن توجد في غير القرآن العظيم والذكر الحكيم:

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ

مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴿٢﴾ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴿٣﴾﴾ [الأنعام].

٢ ـ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

٣ ـ ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴿١﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴿٢﴾ الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴿٣﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴿٤﴾﴾ [الملك].

٤ ـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى ﴿١﴾ الذي خلق فسوى ﴿٢﴾ والذي قدر فهدى ﴿٣﴾﴾ [الأعلى].

٥ ـ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴿١١٥﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

٦ ـ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

٧ ـ ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴿٤﴾ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴿٥﴾ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴿٦﴾ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴿٧﴾ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴿٨﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿٩﴾﴾ [الأعراف].

وهذه المعرفة الصحيحة الوحيدة التي أسْعَدَ بها كتابُ الله الجنَّ والإنسَ، لها أهمية كبيرة جداً، يعرف قَدْرَها من اطَّلع على تراث البشرية الفكري والفلسفي في مجال المعرفة[1]، ويرى مَدى تَخَبُّط

(١) نقصد بكلمة (المعرفة) هنا: الموقف الفكري حول الوجود، ويستعمل له مصطلح: (عِلْم الوجود) وهو ترجمة كلمة أُنتولوجيا (Onthology) الأوروبية.

الفلاسفة والمفكّرين العباقرة! عند كلامهم ـ بمعزل عن وحي الله ـ عن الوجود وقصة الخلق وبدايته ونهايته والحكمة منه..الخ، حيث يَجِدُ أفكاراً ونظريات لمن يعتبرون ـ عند بعض الناس ـ أصحاب أكبر العقول، كسقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم، هي أعمق في الخرافة من تصوّرات القبائل البدائية الموجودة في المناطق النائية والمعزولة من العالم!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٥ ـ الإعجـاز التـزكَـويّ

ونقصد به ما يثمره كتاب الله المبارك في الإنسان ـ على كلا صَعيْديه الفردي والجماعي ـ عندما يتلوه حق التلاوة ويتَدبَّرُهُ ويتفاعل معه، من زكاءِ النفس الذي لا يـمكن أن يحصل، ليس مثله، بل عُشْر مِعْشاره، بأي كتاب آخر وبأي وسيلة أخرى.

والآن لِنُلْقي شيئاً من الضّوء على مفهوم[1] (تزكية النفس) ثم نعود إلـى توضيح ما نحن بصدده:

كلمة (التزكيـة) من (زكى يزكو زكـاةً وزكاءً وتزكيـةً)، ولها ثلاثةُ معانٍ[2]:

١ ـ الطهارة.

٢ ـ النمـوّ.

٣ ـ الصَّلاح.

وبالتالي فـ(تزكية النفس) بإيجاز هي: تطهير النفس من الفجور وتنمية التقوى فيهـا، ومِن ثَمَّ إصلاحها، وعكس التزكية هو التدسية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

---

(١) ستتحدَّث في الفصل الأول من الباب الثالث ـ أي الكتاب التاسع ـ عن موضوع (تزكية النفس) في مبحث مستقل، لذا اكتفينا هنا بهذه الإشارة الموجزة.
(٢) أنظر: المصباح المنير، ص١٣٣، ١٣٤، و(المعجم الوسيط) ص٣٩٦.

وقد عبّر بعض العلماء المتخصّصين في مجال تزكية النفس، عن (تزكية النفس) بقولهم: (التخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل)، والمقصود بالرذائل هو الخصال الذميمة، كالظلم والجهل والكبر والحسد والجبن والبخل والهلع والعجلة..الخ.

كما أن المقصود بالفضائل هو الصفات الحميدة، كالعلم والعدل والتواضع والرحمة والشجاعة والكلام والرزانة والصبر والحلم..ألخ.

ولكن الإيمان هو أساس الفضائل كلها، كما بيّنا هذا في الفصل الأول من هذا الباب ـ أي الكتاب الثاني ـ إذ الإيمان ما دام إيماناً صحيحاً، فَسَيُثْمِرُ الفضائِلَ كلّها في صاحبه بقدره.

وهذه بعض الآيات المباركات التي تُبيّن أن كتاب الله الكريم هو الذي تتزكّى به النفوس، ويجعلها تتخلّى عن الفجور وآثاره السيئة، وتتحلّى بالتقوى وثماره الحسنة:

١ ـ ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة].

٣ ـ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

٤ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

ذكر الله تعالى في هذه الآيات الأربع التي تتحدّث عن النبيّ الخاتم ﷺ وأمته من أهل الإيمان ووظيفته فيهم، أربعة أشياء، كأربع وظائف أساسية له:

١ ـ تلاوة آيات الله.

٢ ـ التزكية.

٣ ـ تعليم الكتاب.

٤ ـ تعليم الحكمة.

والملاحظ أن (تلاوة الآيات) في الآيات الأربع، ترتيبها هو الأول دَوْماً بخلاف الثلاثة الأخرى، وهذا يعني: أن تلاوة كتاب الله أساس التزكية، ولا يمكن تحصيل تزكية النفس، من غير الإستمساك بكتاب الله وتلاوة آياته البيّنات.

وبما أن هذه الأشياء الأربعة أُسندت إلى رسول الله ﷺ كأربع وظائف أساسية، يقوم بها في إطار أمته وأتباعه، فلا بدّ من التأمّل فيها وفي كيفية ترتيبها، لعلّنا نحصل فيها على مزيدٍ من الأسرار والحِكَم التي يزخر بها كتاب الله.

والذي أراه بعد التأمل في هذه الآيات، في مفاهيم هذه الأشياء الأربعة، وكيفية ترتيبها هو التالي:

أولاً: المقصود بتلاوة الآيات من قبل رسول الله ﷺ هو قيامه بتعليم أهل الإيمان، حقائِقَ المعرفة والإيمان من خلال قراءته لكتاب الله وآياته المباركات عليهم.

وجليٌّ أن الخطوة الأولى في التديّن الصحيح، والدخول في الإسلام، هي: نَيْلُ المعرفة الصحيحة عن الوجود (الخالق جلّ وعلا وخَلْقِه)، والإيمان بالله تبارك وتعالى وبكل ما أمر الله تعالى، أن يُؤْمَنَ به من الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، ثم لا شك أن الحقائق المعرفية والإيمانية، مذكورةٌ كلُّها بوضوح في كتاب الله الحكيم، لذا فلا نحتاج للإطِّلاع عليها، إلَّا الإستماع لآيات كتاب الله البيِّنات، وبناءً عليه:

فبمجرّد قيام رسول الله ﷺ بتلاوة آيات الله على أهل الإيمان، يمكنهم الحصول على الحقائق المعرفية والإيمانية مباشرة، وهذا واضح جداً لكل من يقرأ الكتاب الأول ـ من هذه الموسوعة ـ والذي خَصَّصْناهُ لموضوع

(المعرفة)، وهذا الباب الثاني ـ أي الكتب: الثاني إلى الثامن ـ المخصص لبيان (الإيمان) وحقائقه.

وهذا هو السرُّ في قلَّة الأحاديث النبوية الشريفة في مجال المعرفة والإيمان مع أهميتهما الكبرى، وكونهما أساس الإسلام والتديّن والعبادة، ولكن بما أن الله تعالى وضع النقاط فيهما على الحروف في كتابه الكريم بوضوح وجلاء، لم تكن هناك حاجة إلى قيام رسول الله ﷺ بالتوضيح فيهما إلّا قليلاً، وذلك لأن رسول الله ﷺ لا يبيّن إلّا ما هو بحاجة إلى التبيين، تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وأمّا ما هو بيّن وواضح بنفسه، فلا يحتاج إلى بيان.

ثانياً: والمقصود بقيام رسول الله ﷺ بتزكية نفوس أهل الإيمان، هو إرشادُه إياهم وتعليمه لهم: كيفية عبادة الله تعالى التي هي ثمرة الحقائق المعرفية والإيمانية، وهي بدورها تُثْمِرُ فيهم التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، حيث جعل سبحانه التقوى نتيجة العبادة وثمرتها.

وليست التزكية سوى تحلية النَّفْسَ بالتقوى، فلا تتزكّى نفس إلّا عندما يستقر فيها التقوى، ويكون زكاؤها بقدر رسوخ التقوى فيها.

وذلك لأن الله تعالى بَيَّن أنه أَلْهم النفس البشرية كُلاًّ من الفجور والتقوى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس] أي إن الله تعالى بَذَرَ فيها كُلاًّ من بَذْرَةِ الفجور، وبَذْرَةِ التقوى، وبيِّنٌ أن بذرة الفجور تنمو وتَتَرَعْرَعُ، إذا ما سُقِيَتْ بماءِ المعاصي، كما أن بذرة التقوى تنمو بماءِ الطاعة والعبادة.

وقد بينّا في الكتاب الأول في الفصل الثالث منه، أن الله تعالى إنما خلق الإنسان مُزَوَّداً بهذين الإستعدادين المتضادَّيْن، استعداد الصعود واستعداد الهبوط، كي يكون في مُكْنَتِهِ التوجُّه نحو الخير ونحو الشر، فيكون صالحاً للإبتلاء والإختبار الربّاني الحكيم.

ثالثاً ورابعاً: والمقصود بقيام نبيّ الله ﷺ بتعليم أتباعه المؤمنين، كلاً من الكتاب والحكمة، هو قيامه بتَعْليمه إياهم الأحكام الشرعية بمفهومها الواسع الشامل لكل الأحكام الشرعية المرتبطة بتنظيم حياة المسلمين أفراداً ومجتمعاً بكل جوانبها، وكذلك تَعْليمه إياهم الأخلاق الحسنة والآداب الرفيعة، التي يتوقف عليها وجود مجتمع سليم متماسك قوي سعيد.

أي: إن المقصود بـ(الكتاب) و(الحكمة) ليس هو (القرآن والسنَّة) كما فسّرَهما كل المُفَسِّرين أو أغلبيتهم الساحقة!

ولكن هذا يحتاج إلى شيء من التوضيح:

أمّا أن كلمة (الكتاب) لا يقصد بها (القرآن)، فلأنه إذا قلنا إن المقصود بها هو القرآن، يحصل تكرارٌ بين (يتلو عليهم آياته) وبين (يعلمهم الكتاب)! إذاً: يجب أن يكون المقصود بـ(الكتاب) هنا غير (القرآن) وغير آيات الله، ودَليل آخر على ما قلنا هو قوله تعالى مخاطِباً نبيَّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم القيامة: ﴿...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]، إذْ من الواضح أنه لا يمكن أن يقصد هنا بـ(الكتاب): (التوراة والإنجيل) وبـ(الحكمة): سنة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلَّا حصل التكرار أيضاً بين (الكتاب) وبين (التوراة والإنجيل)، ولكن إذا قلنا:

إن المقصود بـ(الكتاب) هو الشريعة وأحكامها المتعلقة بالحلال والحرام، في جميع جوانب الحياة، والمقصود بـ(الحكمة) هو الأخلاق الحسنة والآداب الرفيعة في مجال التعامل الإجتماعي، لا يحصل التكرار، ويكون ذكر التوراة والإنجيل بعد ذكر الكتاب والحكمة من باب: ذكر العام بعد الخاص، لأن الشريعة والخُلُق الحَسَن، هما من مكوِّنات كتاب الله الأساسية (التوراة والإنجيل أو أي كتاب آخر).

وكذلك كلمة (الحكمة) ليس معناها (السنَّة) لا في هذه الآيات الأربع، ولا في غيرها، بل المقصود بالحكمة، كما قلنا:

الأخلاق الحسنة والآداب الرفيعة، والدليل على هذا هو ما يلي:

١ ـ ذكر الله تعالى كلمة (الحكمة) في مواضع، نعلم بوضوح أنه ليس المقصود بها السنة، مثل قوله تعالى عن لقمان رضي الله عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ [لقمان]، إذ من المعلوم أن (لقمان) لم يكن نبياً كي تكون له (سنة) ـ بالمفهوم الشائع لكلمة السنة ـ، بل كان عبداً صالحاً.

وكذلك قوله تعالى في سياق يتحدّث كله عن الإنفاق في سبيل الله واجباً كان أو تطوّعاً، وعَلنيّاً أو سرياً: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا . . .﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ومن البيِّن أن المقصود بالحكمة هنا هو التحلِّي بالفضائل التي يتطلّبها الإنفاق في سبيل الله، كي يكون صحيحاً ويقع موقعه، وذلك مثل:

اللُّطف والحلم وطيب القول مع المحتاجين، وعدم المنِّ والأذى، واستعمالُ الإعلان أو الإسْرارِ كليهما في وقته وموقعه المناسب.. الخ.

٢ ـ في سورة (الإسراء) ذكر الله تعالى أكثر من عشرين أمراً بخصالٍ حميدة، أو نهياً عن خصالٍ ذميمة، من الآية (٢٣ إلى ٣٩) ثم قال في نهاية المطاف:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء]، فسمَّى سبحانه كل تلك الآيات الحاوية على الأمر بالأخلاق الحسنة، والنهي عن الأوصاف القبيحة، (حكمة)، إذاً: فالحكمة هي ما سمّاها تعالى في كتابه الحكيم.

وأمّا قوله تعالى مخاطباً أمهات المؤمنين أزواج النبّي الطاهرات رضي الله عنهنّ:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب]، فهو أيضاً من باب ذكر الخاص بعد العام تنويهاً

بشأنه، وذلك لأن الحكمة هي جزءٌ أساسي من مكوّنات آيات الله، أو ممّا تشتمل عليه آيات الله وكتابه الحكيم، وسياق الآيات يدلّ على ما قلنا أيضاً، لأن الآيات التي قبلها، أي الآية (٢٨ إلى ٣٣) كلها خطاب لرسول الله ﷺ ثم لأزواجه الطاهرات، وفيها النهي عمّا لا يليق بهنّ، من أقوالٍ وتصرفاتٍ سيئة، والأمر بالآداب الرفيعة الجديرة ببيت النبوّة.

هذا وقد فسَّرنا بعض الأحيان تبعاً للعلماء رحمهم الله تعالى كلمة (الحكمة) بـ(الإصابة في القول والفعل) أو (وضع الأشياء في مواضعها الصّحيحة)، وهذان التعريفان قريبان ممّا وضَّحته هنا، بالنسبة لمفهوم الحكمة، لأنَّ من كان مُصيباً في أقواله وأَفعاله، ووَضَعَ الأشياءَ في مواضعها الصّحيحة، فهو يكون في تعامله مع الناس مجتنباً للخصال والتصرّفات السيئة، ومتحلّياً بالأخلاق الحسنة والآداب الرفيعة.

وتلخيصاً لما مرَّ ذكره بالنسبة لِمفهوم الوظائف الأربع التي أُسندت إلى رسول الله ﷺ وأن يقوم بها في إطار أمته، نقول:

وصف الله تعالى رسول الله ﷺ بأنه:

١ ـ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وهذا يتضمّن بيان الحقائق المعرفية والحقائق الإيمانية.

٢ ـ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يعلّمهم كيفية العبادة لربهم، والتي تثمر فيهم التقوى الذي تتزكّى النفس نتيجة له.

٣ ـ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يعلّمهم الشريعة التي يَتَضَمَّنُها كتاب الله، وهي الأحكام المنظِّمة للحياة الفردية والأسرية والجماعية بكل جوانبها.

٤ ـ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ويُعلِّمهم الأخلاق الحسنة والآداب الشرعية الرفيعة في تعامل بعضهم مع بعضٍ.

وفي ختام هذا الموضوع أودُّ أن نُشير باختصار إلى واقع المسلمين المتفاعلين مع كتاب الله، وكيف أثْمَرَ فيهم حالة زكاءِ النفس بصورة بالغة

حدَّ المعجزة التي لن يتسنَّى لغير القرآن العظيم إِحداثُها في حياة البشر، فنقول:

إذا تأمَّلنا واقع وتأريخ الشعوب والأقوام الذين اهتدوا بالقرآن العظيم سواء على مستوى الأفراد أو المجموع، بدءاً بالعرب الوثنيين الذين وصفهم الله العليم الخبير بقوله: ﴿... وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وفارس وكُردٍ وترك وهنودٍ وأفغانٍ وأحباشٍ وبَرْبَرٍ وأقباطٍ ورومٍ..الخ فَسنجِدُ أَنَّهُم:

قد تزكَّتْ نفوسُهم تزكيةً لم يُعْهد مثلها في التأريخ البشري - إذا اسْتَثْنَيْنا أتباع وحواريي الأنبياء - عليهم السلام - إذ تخلَّوْا بمقدار تفاعلهم مع كتاب الله تعالى، من الرذائل النفسية والخلقية والعادات والتقاليد الجاهلية، وتحلّوا بالفضائل من الصفات والخصال والمحاسن من الأخلاق والآداب، بحيث صاروا قدوة للبشرية، في كل ما هو خير وحسن ونافع في كل مجالات الحياة، وأصبحوا من جرّاء تزكية نفوسهم، دُعاةً لدين الله الحق بأحوالهم قبل أقْوالهم، وكان نفر قليل منهم - بل وفي بعض الأحيان شخص واحد فقط - يكفي لإِحداث انقلاب جذريّ في شعب بأكمله واهتدائهم إلى الإسلام، حتى صارت عقيدة التوحيد في أقَلَّ من قرن من الزمان، باسطة جناحيها على أكثر من نصف سكان المعمورة آنذاك، من حدود الصِّين إلى أقصى المغرب، ثم أصبحت تلك الشعوب غير العَرَبية، مَدَارِسَ لتخريج الأئمة والعلماء والقادة والمجاهدين الذين فاق كثير منهم إخوتهم العرب وسبقوهم - وأقصد غير جيل الصحابة ﷺ - في ميادين كثيرة.

فعلى سبيل المثال:

أصحاب الكتب الستة في السنة النبوية والمشهورة بـ(الصحاح السِّتة) كلهم من غير العرب باستثناء (مسلم) رحمه الله، وهم: (البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه) رحمهم الله تعالى جميعاً.

وهكذا في بقية العلوم الشرعية كالتفسير والفقه وغيرهما، بل حتى في

اللغة العربية ذاتـها، فهذا (سيبويه وخليل بن أحمد الفراهيدي وابن حاجب) أعظم علماء العربية ثلاثتهم من الشعوب غير العربيـة.

وسرُّ ذلك:

أن كتاب الله الكريم الحكيم، يَرْبِطُ الإنسان بالله تعالى ويعبِّده له، وجَليٌّ أنَّ القرب من الله تعالى، هو أساس كل خير وبركة وصلاح، ومنبع كل فضيلة، ومَعِينُ الرُّشْدِ كله، والوسيلة الوحيدة التي تقرِّب الإنسان من ربِّه هي العبادة، والطريق الوحيد الصحيح للعبادة لله تعالى، يبيِّنه كتاب الله ـ وليست سنة رسول الله ﷺ سوى شرح وبيانٍ لكيفية العمل بكتاب الله ـ .

وبناءً عليه:

كلّما كان الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ أفقه في كتاب الله وأشدَّ استمساكاً به وأتبعَ لأحكامِهِ، كان أعبد لله تبارك وتعالى، ومن ثَمَّ أقرب منه، ومن كان قريباً من الله، كان قريباً من كل خيرٍ، وبعيداً عن كل شرٍ، وهذا هو لبُّ التزكية وفحواها.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٦ ـ الإعْجازُ الخُـلُقي

إذا كان مفهوم (تزكية النفس) يختص بالجانب الباطنيِّ المَخْفيِّ من الإنسان، فمفهوم (الخُلُق) ـ ونقصد بالخُلُق هنا الخلق الحَسَن ـ مُخْتَصٌّ بالجانب الظّاهريِّ المرئيِّ منه.

إذاً:

نقصد بالإعجاز الخلُقي في كتاب الله، ذلك التحوّل والتغيُّر والإنقلاب المُدْهِش العميق العجيب الذي يُحدِثُهُ كتاب الله في الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ عندما يَسْتَمْسِكُ به: تلاوةً واستماعاً وفهماً وتدبّراً وعملاً والتزاماً.

حيث ترى شخصاً بل شعباً غارقاً في الإثم والرِّجْسِ وسوءِ الخلق، ولكن ما أن تصله يد كتاب الله المباركة، إلَّا ويحوِّله بين ليلة وضحاها إلى كائن آخر، يختلف تماماً عَمّا كان بالأمس القريب.

فَتَراهُ بعد أن كان جاهلاً، أصبحَ مُتعلِّماً وعالماً.

وبعد أن كان سفيهاً، صار رشيداً.

وبعد أن كان ماجناً، أصبح رزيناً.

وبعد أن كان جائراً، أصبح عادلاً.

وبعد أن كان بذيئاً، صار طاهر اللِّسان، طيِّب القول نزيهاً.

وبعد أن كان سِكِّيراً ومقامراً، أصبح صاحِياً وقوراً.

وبعد أن كان عاقاً لوالديه وقاطعاً لرحمه، صارَ بارّاً بوالديه وواصلاً لرحمه.

وبعد أن كان شرِّيراً، صار خيِّراً.

وبعد أن كان فاسداً ومفسداً، تـحوّل إلى صالح ومُصْلح.

ومصاديق هذا التحوّل والإنقلاب الذي يُحْدِثُهُ كتابُ الله في أهل الإيمان أفراداً ومجتمعات، كثيرة سواء في التأريخ الغابر أو الواقع المعاصر.

والسرُّ في ذلك كما قلنا في السابق:

أن كتاب الله الكريم يأخذ بيد الإنسان ويذهب به إلى الله تبارك وتعالى ويجعله مطيعاً وعابداً له ومتقيّاً منه، ومن ثمّ قريباً منه، والقُرْبُ من الله تعالى هو أساس كل برٍّ وخير وصلاح وبركة.

أجل فكما أن القمر وهو كوكب مُعْتَمٌ مُظْلِمٌ في نفسه، فاقد لأيِّ نور، ولكن بسبب قُرْبِهِ من الأرض ودورانه في فلك جاذبيتها والتي بدورها تدور في فلك جاذبية الشمس، يكتسب النورَ من الشَّمس ويتنوَّر، ويبدو وكأنه ذا نور وأيّ نور! كذلك الإنسان عندما يقترب من ربّه القريب جلَّ شأنه، بسبب عبادته له ودورانه في فلك دينه الحق الذي يحتويه كتابه الكريم، يكتسب من (نور السموات والأرض) جلّ وعلا، نوراً يَسْتَقِرُّ في قلبه، وينعكس على سائر وجوده باطناً وظاهراً، ولله الـمثل الأعلى في السموات والأرض.

ولـم يذكر لنـا التأريخ البشري انقلاباً وتحوُّلاً عميقاً شاملاً سريعاً ومباركاً في الخلق والعادات، كالذي أَحْدَثَهُ كتابُ الله العظيم في الشعوب والأقوام التي احتضنَتُه وقرأته وفَهِمَتْهُ وتَفاعلَتْ معه، وخصوصاً الشعب العربـي الذي كان في جاهلية في كل نواحي الحياة[1]، ولكن ما لَبِثُوا بعد أن اهتدوا بكتاب الله، أن أصبحوا في أعلى درجات الخلق الرفيع، حتى وصلوا درجة استحقوا ـ مع غيرهم من أفراد الشعوب الأخرى المشاركين لهم في الإيمان ـ أن يصفهم الله تعالى بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

(١) وهذا لا يعني أنه لم تكن لهم، بجنب تلك المساويء، فضائل فطرية أهلتهم للنهوض بحمل الرسالة الخاتمة.

تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا شك في أن كتاب الله العظيم الكريم، مُستعِدٌّ دَوْماً لإحْداث ذلك التحوّل والإنقلاب الذي أَوْجَده في الماضي، في الشعب العربي وغيره من الشعوب المسلمة التي احتضنتْ كتاب الله بِجدّ وصَدَقَتْ معه، وفي واقعنا المعاصر نشاهد نماذج ممتازة لذلك التحوّل الذي يُنْتِجُهُ كتابُ الله في حياة أفرادٍ ومجموعات وخصوصاً في وَسَط الشباب ـ من الجنسين ـ وهم الأَمَلُ للأُمة بعد الله تبارك وتعالى، لإعادة ما فاتَها أو سُلِبَ منها من مَجْدٍ وعزةٍ وسؤددٍ، بإذن الله العزيز الرحيم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٧ ـ الإعجاز الإجتماعي

ونقصد به ذلك التغيير والإصلاح الجذريّ الشامل الذي أَحْدثَهُ كتاب الله الكريم منذ نزوله في الشعوب والأقوام والمجتمعات التي تمسَّكت به وجعلته نبراسه ـ وما زال يُحْدِثُه ـ من ناحية:

صياغة المجتمع وإعادة تشكيل مفاهيمه وتصوّراته وقيمه وموازينه، وتهذيبه وتنقيته من كل ما هو: جاهلي، سيء، ضار، معوج من المفاهيم والتصورات والقيم والموازين، والتي تخالِفُ العقل والفطرة قبل الشرع.

ولنضربْ أمثلةً لما نحن بصدده، كي تتوضَّح لنا صورة ذلك الإنقلاب والإصلاح الإجتماعي الذي أحدثه كتاب الله الحكيم في الأمة الإسلامية خصوصاً وفي البشرية عموماً:

أولاً: تكريم الإنسان كلّ إنسان، بِغَضِّ النظر عن أيِّ شيء آخر كالدِّين واللّون والجنس:

أنزلَ الله تبارك وتعالى كتابه الكريم على نبيّه الخاتم ﷺ، والمجتمعات البشرية تَعُجُّ وتموجُ بالأفكار والتصوّرات الجائرة المُعْوَجَّة، والتي تمخَّضت عَنْها أذهانُ الملوك والفلاسفة، وأهلِ الكتاب المحرِّفين، حول الإنسان وتقييم شَخْصيَّتِهِ، ومن المعلوم أنه لا يُمْكِننا حتى الإشارة إلى كل تلك الأفكار والتصوّرات المعوجة التي عانت منها البشرية الأَمَرَّين، والتي كانت رائجة ومعمولاً بها في كل الشعوب قاطبة، وخاصة عند الشعوب والأمم العريقة في الحضارة والتمدّن، كالهنود والصينيِّين والفرس واليونانيِّين والرومان والمصريين..الخ، ولكن يمكننا القول بأنّ القاسم

المشترك بين تلك الأمم والشعوب والحضارات كلّها حول النظرة إلى شخصية الإنسان، هو:

تقسيم الناس إلى درجات متفاوته عُلُوّاً وسُفُولاً، وذلك على أساس مقاييس معوجة كالإنتماء العرقي أو القومي، أو المستوى المعيشي، أو الإنتماء الفكري والديني.

وقد أشرنا من قبل إلى رأي (أفلاطون) في جمهوريَّته وتقسيمه الناس إلى درجات متفاوتة، وتشبيهه إياهم بالذهب والفضة والحديد والخزف!

وفي تلك الظلمات الحالكة وفي خِضَمِّ تلك الآراء والفلسفات المُهينة للإنسان والسالبة لكرامَتِهِ، جاء كتاب الله الصادق العادل، لِيَنْسِفَ كل تلك التصورات المعوجة الجائرة، ويُعْلِنَ مُدويّاً أنَّ:

١ ـ الإنسان خليفة الله في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً. . .﴾ [البقرة: ٣٠].

٢ ـ والإنسان مخلوق كريم على الله، وفضّله الله على كثير من خلقه: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء].

٣ ـ والإنسان خُلِقَ في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين].

٤ ـ وخلق الله السموات والأرض من أجل ابتلاء الإنسان، وسخّر له كل شيء: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً. . .﴾ [لقمان: ٢٠].

وقد تحدثنا بإسهاب حول هذا الموضوع في الفصل الثالث من الكتاب الأول، وهنا نتساءل:

أَوَليس دفاع كتاب الله تبارك وتعالى عن شخصية الإنسان ومكانته وكرامته بهذه الصراحة والوضوح، والذي سبق فيه كل حركات وتيارات الدفاع عن حقوق الإنسان من حيث الزمان قروناً، ومن حيث الكيفية

درجاتٍ ودرجات، معجزة في حَدّ ذاته؟!

ثانياً: إعلان المساواة المطلقة بين الناس في أصل خلقهم، وفي ارتباطهم بالله تعالى، وفي انتماءاتهم العرقية والقومية، واعتبار التقوى الوسيلة الوحيدة لنيل الكرامة عند الله:

وهذه أيضاً معجزة أخرى لكتاب الله الكريم من الناحية الإجتماعية، حيث أعْلَن صريحاً مُدويّاً، قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، أن البشر كلهم من أصلٍ واحدٍ، إذْ يرجع نسب الجميع إلى أبٍ واحدٍ وأم واحدة، وهما (آدم وزوجه حوّاء) ـ عليهما السلام ـ، وأن الله تعالى إنما وزّعهم على شعوب وقبائل شتّى، كي يحصل تنوُّعٌ وتغاير، ثم تعارف وتعاون، وبناءً عليه: فليس شعبٌ أفضل من آخر، ولا عِرْق أرقى من غيره، ولا قبيلة أو عشيرة هي أعلى كعْباً من حيث الحسب والنّسب من غيرها، بل الكل من أصل واحد، ومن طينةٍ واحدة، وإنما الذي يجعلهم متفاضلين ومتفاوتين فيما بينهم في ميزان الله تعالى، هو التقوى فحَسْبُ.

كما قال تعالى:

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

٢ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

وقد أورد النيسابوري في كتابه (أسباب النّزول) القصة التالية عن سبب النّزول الآية (١٣) من (الحجرات) حيث قال:

«وقال مقاتل: لما كان يوم فتح مكة أَمَر رسول الله ﷺ بلالاً حتى أذَّن على ظهر الكعبة، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العاص، الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وَجَد مُحمَّد غير هذا الغُراب الأسود مُؤَذِّناً؟، وقال سهيل بن عمرو إن يرد الله

شيئاً يُغَيِّره، وقال أبو سفيان: إنّي لا أقول شيئاً، أخاف أن يُخْبِرَ به ربُّ السماء، فأتى جبريل عليه السلام النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وأخبرَهُ بما قالوا، فدعاهم وسألهم عمّا قالوا، فَأَقرُّوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزدراء بالفقراء»[1].

وسنتحدَّثُ عن هذا الموضوع تحت عنوان: (بين الولاء للأمة والإنتماء للشعب) في المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثالث ـ أي الكتاب العاشر ـ، بإذن الله الكريم، ونكتفي هنا بهذه الإشارة.

ولكن أودّ هنا أن أنبهّ على حقيقةٍ:

وهي أن كتاب الله ليس مسؤولاً عمّا أحدثه الأُمويّون أولاً ثم العبّاسيّون ثانياً، والعثمانيّون الأتراك ثالثاً، من تفضيل شعب على شعب، بل قبيلة على ما سواها من الشعوب والقبائل، واعتبار غيرهم، مسلمين ومواطنين من الدرجة الثانية والثالثة، بل كان ذلك الموقف منهم وممّن نَسَج على مِنْوالهم، ارتداداً ورجوعاً قهقرياً ـ في ذلك المجال ـ إلى التصورات والقيم الجاهلية التي أنزل الله تعالى كتابه لإزالتها وتطهير القلوب والأذهان منها.

وقد كان لذلك الموقف ـ والذي هو بدوره عرض وأثر لِمَرض آخر وعِلَّةٍ أخرى ـ أثر كبيرٌ في إضعاف الدول الثلاث: (الأُموية والعباسية والعثمانية) والتعجيل بنهايتها، كما لا يَخْفى على من يُمْعِنُ النظر في تأريخ تلك الدول وكيفية نهايتها وأفولها.

والغريب في الأمر:

أنَّ الأمويين والعباسيين لما أحَلُّوا الإنتماء القبلي والقومي محلّ

(١) وقال السيوطي في (لباب النقول في أسباب النزول) ص٢٢٠، رقم: ١٠٢٧، أخرج ابن أبي حاتم عن مُلَيْكَة... إلخ. وأخرجها الواحدي في أسباب النزول: ٧٦٦، وأخرجه البيهقي في (دلائل النبوّة) بسندٍ إلى عبدالرزاق. أنظر: (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج٣، ص٢٨٥، حيث قال: وهذا مرسلٌ صحيح الإسناد.

الأخوَّة الإسلامية الجامعة، ونادَوا بتفضيل العرب على غيرهم من الشعوب، نشأت حركات وجماعات تُدافِعُ عن حقوق بعض الشعوب الأخرى، فقامت الدولتان بمحاولة سَحْقِ تلك الحركات والجماعات، وبذلتا جهوداً كبيرة بذلك الصَّدد، وسَمَّوْا تلك الحركات والجماعات بـ(الشعوبية) ذماً لهم وتنديداً بهم وتنفيراً عنهم! ونسوا أن الله تعالى هو الذي جعل البشرية كلّها مُوَزَّعَةً على مجموعة (شعوب): ﴿... وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا...﴾ هذا أولاً، وثانياً، نسوا أنهم هم الذين اضطرّوا أولئك إلى سلوك ذلك المسلك، أي إن (شعوبية) تلك الحركات والجماعات، كانت رَدَّةَ فعلٍ لـ(عروبية) الأمويين والعباسيين، ولا يخفى أن التعصُّبَ القومي - أي: تفضيل قوم أو شعب على آخر - كله مذموم، ولكن البادِيءَ بالشرِّ أظلم، وقد أباح الله الحكيم للمظلوم بعْضَ القول، بل الجَهْرَ بالسوءِ، دفاعاً عن نفسه! ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ...﴾ [النساء: ١٤٨].

ومن الواضح أنه لا يمكن إنكار دور الأيادي الخفيّة الخبيثة لأعداءِ الإسلام والمسلمين، في اصطناع المشاكل والقلاقل للدول الإسلامية الثلاث، من اليهود والنصارى والمجوس والمنافقين وغيرهم، ولكن ليس من الصّواب أن نجعل أعداءَنا شمّاعة نُعَلِّقُ عليها أخطاءنا ومساوِئنا ونُبرّر ونُغطّي بها كل نقاط ضُعفنا!

وأفضل شاهد في هذا المجال هو أن عمر بن عبد العزيز ﷺ مع قصر مدة خِلافَتِه، استطاع بسبب تقواه وزهده وعدله وصلاحه وصِيْتِهِ الحسن، أن يَسْتَميل عدداً من أهل البدع والناقمين على الدولة، ويُرجعهم إلى مِظَلَّةِ الدولة، بل أسلم في عهده المبارك عدَدٌ كثيرٌ من أهل الكتاب كما هو معلوم في سيرته.

ثالثاً: رفع الضَّيمْ عن المرأة وجَعْلها شريكة الرجل ومُساوية له في الإنسانية والعبادة لله تعالى، وفي الحقوق والواجبات:

وهذا مجال آخر من المجالات الإجتماعية التي أحدث فيها كتاب الله

انقلاباً جذرياً معجزاً في التأريخ البشري، إذْ كان وضع المرأة قبل نزول القرآن العظيم في الدنيا كلِّها، وضعاً مُزرياً مُرْدِياً مُخْزياً!

فكان الرومان وفلاسفتهم ورجال الكنيسة يتناقشون فيما بينهم:

هل المرأَةُ لها روح إنسانية كالرجل أم لا؟! وكان الرأي الراجح عندهم: أن المرأَة ليست لها سوى روحٍ[1] حيوانية، وأنها لم تخلق إلّا لخدمة الرجل!

وكان الهنود ـ أو بعض الطوائف منهم ـ يحرّقون المتوفَّى عنها زَوْجُها حيّة مع جسد زوجها الميّت!

وأمّا العرب فكانوا لا ينظرون إلى المرأة إلّا كَسقَطِ المتاع، ولم يكن لها حق يذكر، بل كان بعضهم يئدون بناتهم أحياء أنفةً وخوفاً من لحوق العار بسببهنَّ!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل].

وكذلك سائر الأمم والشعوب كانوا على نفس الشاكلة، فجاء كتاب الله العظيم يُزيلُ ويُريحُ كلَّ تلك الرواسب والظلمات الجاهلية المتراكمة عبر السنين بل القرون، باستثناء الومضات الربانية التي تأتي بها الرسل الكرام للمجتمعات البشرية، والتي سُرعان ما تُنْسى وتهمل بسبب غلبة الجاهلية، هذا إذا لم تُطْفَأْ في مهدها.

فأعلن القرآن العظيم مخالفاً كل التصورات السائدة الرائجة في العالم آنذاك في مجال علاقات الجنسين بعضهما مع بعض، والنظر إلى المرأة، أنَّ:

---

(١) هذا تعبيرهم، وإلَّا لم يستعمل كتاب الله كلمة (الروح) لغير الإنسان، أمّا الحيوانات فتوصف بالحياة.

١ ـ المرأة مساوية للرجل في الأصل الإنساني:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ . . .﴾ [الأعراف: ١٨٩].

٢ ـ وكذلك هي مساوية له في القيام بعبادة الله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ . . .﴾ [آل عمران: ١٩٥].

٣ ـ وكذلك هي مساوية له في التكاليف الشرعية من: إسلام وإيمان وقنوت وصدق وصبر وخشوع وتصديق وصيام وحفظ الفرج وذكر الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

٤ ـ وكذلك لها كالرجل حق الكسب وامتلاك الثروة، وأخذ الميراث:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء].

٥ ـ وكذلك هما متكافئان في الحقوق والواجبات الزوجية:

﴿. . . وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ . . .﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والمقصود بالدرجة هنا هو القوامة التي للرجل على المرأة والأسرة، وهي تَتَطَلَّبها كلّ من فطرتي الرجل والمرأة.

٦ ـ وكذلك النساء والرجال بعضهم أولياء بَعضٍ، في تحمّل أعباء مسؤولية إدارة المجتمع والكيان الإسلامي:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ...﴾ [التوبة: ٧١].

وسنبسطُ القولَ في موضوع المرأة والأسرة في الفصل الثالث من الباب الثالث ـ أي الكتاب الحادي عشر ـ.

ونكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة لتوضيح إعجاز كتاب الله في المجال الإجتماعي توخِّياً للإختصار، وإلَّا فالأمثلة في هذا المجال كثيرة جداً.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٨) الإعجاز التأريخي

ونقصد بالإعجاز التأريخي في القرآن العظيم، أنَّ كتاب الله فيه أخبار عن الأمم والمجتمعات البشرية السالفة، نطقت الأدلَّة والشواهد الكثيرة بصدقها ودِقَّتها، وكذلك فيه أنباء مُسْتَقْبَلِية صَدَّقتها الأيام والوقائع، وفيه أيضاً سنن وقوانين ربط الله تعالى بها أحوال المجتمعات البشرية عُلوّاً وهبوطاً، وسعادة وشقاءً، وازدهاراً وانهياراً، تشهد العقول والتجارب بِصِحَّتها وانطباقها على الواقع البشري تمام الإنطباق.

ومن الجليّ أن الإخبارَ[1] الصادق عن الوقائع الماضية السحيقة في القِدم، والإنْباء[2] الصّحيح عن الحوادث الآتية في المستقبل المجهول، وتجلية السنن الثابتة الحاكمة على حياة البشر، لا يمكن أن تصدر إلَّا عمَّن يملك العلم المحيط الشامل للماضي والحاضر والمستقبل، وليس ذلك إلَّا الله تعالى الذي لا يَعْزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

(١) قال الراغب: أخبرت: أعْلَمْتُ بِمَا حَصل لي من الخبر، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٧٣، لفظ: (خبر).

(٢) قال الراغب: النبأ: خَبَرٌ ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، المصدر نفسه، ص٧٨٨، لفظ (نبأ).
وجديرٌ بالذكر أنُّني استعملْتُ لفظ: (الأخبار) للأخبار السالفة، ولفظ (الأنباء) لما يأتي به قادِمُ الأيام، ولكن القواميس التي نظرت فيها سوَّت بين اللفظين في المعنى باستثناء (راغب الأصفهاني) الذي يخصّ (النبأ) بالخبر المهم الذي يحصل به العلمُ ويوثق به.

وبناءً عليه:

فالكتاب الذي يحوي الأخبارَ الصادقة، والأنباءَ الصحيحة، وذِكْرَ السنن الثابتة، لا يمكن أن يكون صادراً من غير الله عالم الغيب والشهادة جلّ شأنه، وكتاب هذا شأنه فهو معجِزٌ في هذا المجال الذي أشرنا إليه.

والآن لنلقي شيئاً من الضوء على كلّ من: أخبار القرآن وأنبائه وسننه:

أولاً: أمثلة من أخبار القرآن الصَّادقة:

١) إسلامُ عددٍ من علماء اليهود والنصارى في زمن الرسول، لمّا رأوا مطابقة القرآن فيما يحكيه عنهم، لما بقي عندهم سالماً من كتبهم وتصحيحه لما وقعوا فيه من أخطاء، من جرّاء نسيانٍ أو إخفاءٍ أو تحريفِ أسلافهم:

ومن علماء اليهود الذين أسلموا في عهد رسول الله ﷺ كما ذكره (النيسابوري في أسباب النّزول) عن ابن عباس ومقاتل رضي الله عنه، بمناسبة ذكره سبب نزول الآية (١١٣) من (آل عمران): ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾. هم: عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سَعْيَة، وأسيد بن سَعْيَة، وأُسَيْد بن عبيد[1].

وأما بالنسبة لعلماء النصارى الذين أسلموا في عهد رسول الله ﷺ، فقد ذكر (النيسابوري في أسباب النّزول) عند ذكره لسبب نزول قوله تعالى:

﴿... ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة].

---

(١) قال السيوطي في (لباب النقول) ص٥٥، ٥٦، برقم: ٢١٥، أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده عن ابن عباس، وانظر: (الإستيعاب) ج١، ص٢٨٦ ـ ٣٢٠.

أربع روايات نكتفي بإيراد إِثنين منها:

الأولى:

(قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ وهو بِمكَّة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر بن أبي طالب وابن مسعود في رهط من أصحابه إلى النجاشي، وقال: إنه ملك صالح ولا يُظْلَمُ عنده أحدٌ، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فَرَجاً، فلما وردوا عليه أكرمهم وقال لهم: تعرفون شيئاً مما أنزل عليكم؟ قالوا نعم، قال: إقرؤوا، فقرؤوا وحوله القسِّيسون والرهبان، فكلما قرؤوا آيةً، انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق..)[١].

الثانية:

قال: (وقال آخرون: قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة هو وأصحابه ﷺ ومعهم سبعون رجلاً بعثهم النجاشي وفداً إلى رسول الله ﷺ عليهم ثياب الصوف، اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وهم: بُحَيْرا الراهب، وأبرهليه، وإدريس، وأشرف، وقَثْم، وذر، وأيمن، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة (يس) إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى! فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات)[٢].

وهذه بعض الآيات التي تتحدَّث عن إسلام عددٍ من علماء اليهود

(١) وانظر: (الإستيعاب) ج٢، ص٨٠، وقال في الحاشية، أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنَّف): ١٨٤٩١، وابن أبي حاتم في التفسير: ٦٦٧٨، أبو نعيم الأصفهاني في (حلية الأولياء) (١١٧/١)، والواحدي في (أسباب النزول) ص١٣٦، ثم قال قلنا: وهذا مرسل صحيح الإِسناد.

(٢) وانظر: (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج٢، ص٨٢، اذ قال أخرجه الطبري في جامع البيان (٤/٧) وابن أبي حاتم في تفسيره: ٦٦٧٩، والبغوي، والواحدي في أسباب النزول ص١٣٧، وابن مردويه في تفسيره، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٣٠/٣)، وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.

والنصارى المنصفين، بسبب سَماعِهِم لكتاب الله الحكيم وإطِّلاعهم عليه وعلى حقائقه وأخباره التي يحتوي عليها، وتتطابق مع ما عندهم:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ. . .﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

٢ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف].

وأورد (السيوطي) رحمه الله في (لُبابُ النقول في أسباب النزول)[1] عن البخاري برقم: (٣٨١٢)، وَمُسْلِم برقم: (٢٤٨٣)، عن (سعد بن أبي وقاص) أن هذه الآية نزلت بمناسبة إسلام عبدالله بن سَلام رضي الله عنه.

٣ ـ ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة].

٤ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء].

هذا وسنتحدَّثُ بإذن الله بتفصيل أكثر عن علماء اليهود والنصارى المنصفين الذين أسلموا متأثّرين بكتاب الله وحقائقه وأخباره الصادقة، في الفصل الخامس من هذا الباب ـ أي الكتاب السابع ـ، وذلك عند الحديث عن براهين نبوة النبي الخاتم ﷺ.

٢) عثور علماء الآثار والحفريات في منطقة بحر المـيّت على آثار مدن مقلوبة، وهي بيوت قوم لوط عليه السلام التـي قَلَبـها الله تعالى عليهم وجعلها رأْساً على عَقِبْ:

(١) (لُباب النقول) ص٢١١، برقم: ٩٤٣.

أجل اكتشف علماء التنقيب والبحث عن الآثار، في منطقة بحر الميّت أن هناك آثار مدينة أو مدن مقلوبة رأساً على عقب[1]، ومن المؤكد أن تلك الآثار ليست سوى مساكن قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ التي قال الله تعالى عنها: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...﴾ [الحجر: ٧٤]، وذلك لأننا لم نسمع بوجود آثار أية مدينة أخرى، بتلك الصورة المقلوبة المنكوسة.

وربما الحكمة في تلك العقوبة الشاذّة الغريبة التي عاقب الله بها قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أنهم أول من ابتدع وأحدث ذلك الإنحراف في العلاقات الجنسية، وغيَّروا الفطرة السويّة باكتفاء الرجال بعضهم ببعض، كما قال تعالى على لسان عبده ونبيّه الكريم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت]، إذ يبدو من هذه الآية أن قوم (لوط) هم أول من أحدث ذلك الإنحراف الجنسي، أي: (الذكورية)، وكذلك ربما هم أول من أحدث (السِّحاق) أيضاً، وذلك أن عند اكتفاء الرجال بعضهم ببعض، لا يبقى أمام النساء سوى تلك الفعلة القبيحة أي: المساحقة.

وقد ذكر الله تعالى عقوبة قوم (لوط) الدنيوية المتمثِّلة في قلب مدُنهم رأساً على عقب، في أكثر من آية، ولم يذكر سبحانه أنه عاقب قوماً سواهم بذلك النوع من العقوبة، وهذه بعض الآيات التي ذُكِرَ فيها مصير قوم (لوط) المشؤوم:

١ - ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود].

٢ - ﴿...فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

---

(١) ينظر: سيرة النبيِّين والمرسلين، محمد عيد عبدالله يعقوب الحُسَيْني، ج١ ص ٢٩٤ - ٣٠٩، إذ ذكر المؤلف الوثائق والمستندات التي اعتمد عليها من الصُّور وغيرها.

٣ ـ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم].

٤ ـ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة].

و(المؤتفكات) تعني: المنقلبات، لأنَّ (الإفك) قولٌ مقلوبٌ منكوس[١]، إذ هو الكذب، والكذب خلاف الحق والصدق والواقع، وتدل كلمة (المؤتفكات) على أن مدن قوم (لوط) التي دمَّرها الله تعالى بذلك العقاب، كانت عدة مدن وليس مدينة واحدة فقط.

وقد ذكر سبحانه في أكثر من آية، أنه جعل آثار قرى قوم (لوط) عبرة للمعتبرين، وتركها آيةً يمرّ بها الناسُ في طريق عام:

١ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ [الحجر].

٢ ـ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾ [العنكبوت].

٣ ـ ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات].

والملاحظ أن (الكتاب المقدّس): عند ذكره لتدمير الله مساكن قوم لوط ومدنهم، لم يُشِرْ إلى إقلابها، بل اكتفى بذكر نزول النار والكبريت عليهم[٢]، ولكن كما بيَّنه كتاب الله المصدِّق المبين المهيمن، لم يكن نزول النار والكبريت (حجارة من سجِّيل) عليهم، إلَّا جزءاً من العقوبة التي عاقب الله العزيز بها ذلك القوم السَّوء!

وما قالَهُ كتاب الله الحكيم هو الحق الذي لا مرية فيه، وصَدَّقهُ الواقع الذي أماطت عنه اللّثام، التنقيباتُ والكشوفُ الأثرية.

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٩، أفك.

(٢) أنظر: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح: ١٩، ص٥٢ (إهلاك سدوم وعمورة) [.. فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عنده من السَّماء].

٣) حُكّام مصر في فترة تواجد يوسف عليه السلام فيه كانوا يسمّون (الملوك) وليس الفراعنة:

من المعلوم تأريخياً أن حُكّام مصر القدماء كانوا يُلَقَّبون بـ(فرعون)، كما أنه كان لقب حاكم الروم (هِرقل)، ولقب حاكم فارس (كِسرى)، والجمع: (فراعنة) و(هراقلة) و(أكاسرة) ولكن اللاّفِت للنظر:

أن كتاب الله الحكيم في قصة يوسف عليه السلام كُلِّها ـ في سورة (يوسف) ـ يُطْلِقُ لَقَب (المَلِك) على حاكم مصر آنذاك، بخلاف قصة موسى عليه السلام التي لم يستعمل فيها غير لقب (فرعون) لحاكم مصر.

والسرُّ في ذلك هو ـ كما اكتشفه المؤرِّخون[1] ـ أن حكام مصر في تلك الفترة، كانوا يُلَقَّبون فعلاً بـ(الملك) وليس بـ(فرعون) على عادة المصريين، وتلك الفترة من تاريخ مصر تعرف بـ(فترة حكم الملوك الرُّعاة) والملوك الرعاة سلسلة حكام استولوا على مصر، وحكموه مدة مائتي سنة تقريباً!

وقد تكرّر لفظ (الملك) في قصة يوسف عليه السلام كلقب لحاكم مصر الأعلى، خَمْسَ مرات، في خمس آيات، هي:

١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ...﴾ [يوسف: ٤٣].

٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ...﴾ [يوسف: ٥٠].

٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي...﴾ [يوسف: ٥٤].

٤ ـ ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ...﴾ [يوسف: ٧٢].

٥ ـ ﴿... مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن...﴾ [يوسف: ٧٦].

ونكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة لإيضاح إعجاز القرآن العظيم في مجال الأخبار الصادقة، وكلُّ أخبار كتاب الله صادقة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ

---

(١) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، ص٤٢، إذ قال: [في أواخر القرن التاسع توصَّل (شامبليون) الفرنسي إلى حلِّ الرُّموز في الكتابة (الهيروغليفية) وأثبت العلمُ أن النبي يوسف عليه السلام عاش في مصر أيام الملوك الرُّعاة (الهكسوس) من عام (١٧٣٠ إلى ١٥٨٠) قبل الميلاد].

كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام]،
وقال: ﴿...وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا...﴾ [النساء: ١٢٢].

ثانياً: أمثلة من أنباء القرآن الصحيحة:

كما أن كتاب الله الحكيم فيه من الأخبار الصادقة عن الأمم والشعوب السّالفة، ما يعجز عن الإخْبارِ بمثلها غيرُ الله المالك لكلِّ شيء والعليم بكلِّ شيء جلَّ شأنه، كذلك فيه من الأنباء الصّحيحة التي ظهرتْ لنا صِحَّتُها كالشمس في الظَّهيرة، ما يُحَيِّر الألبابَ ويُدْهِشُ العقولَ، ويعلم كل ذي لبٍّ أنه لا يمكن صدورها إلَّا ممَّن يعلم السِرَّ في السَّموات والأرض، وهذه أمثلة منها:

١) ظهور الإسلام وانتشار القرآن العظيم في العالم رَغماً عن أَنْفِ أهل الكفر:

أنبأ كتابُ الله العزيز منذ نزول الآيات والسور الأولى منه في (مكة)، بأن هذا القرآن ذكرٌ للعالمين، وسيكون له وللنبيِّ الأمي الذي أُنزل إليه شأن عظيم، ومستقبل باهر، وأنه إذا حاربه المشركون في (مكة) وغيرها وعاندوه ورفضوه، فَسَيُظْهِرُه الله تعالى، وَسَيُؤْمِنُ به غيرهم من العرب أنفسهم، ومن الشعوب الأخرى كذلك، وسينتشر ذكره وصِيتُه في العالم كله!

وكانت النتيجة كما أنبأ بها كتاب الله تعالى، وهذه آيات كأمثلة في هذا المجال من السور المكية:

١ - ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص].

وقد شاهد أهل مكة وغيرها تحقُّقَ هذا النبأ الرّباني الصّحيح، ورأوا كيف بلغ صوتُ كتاب الله الحكيم، مسامعَ العالمين في مدة قصيرة واهتدى به شعوبٌ غفيرة.

٢ ـ ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، والضمير في (بها) في الموضعين راجع إلى النبوَّة، والمقصود بها (أي بالنبوَّة) هنا هو نبوَّة جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بما فيهم سيِّدهم وخاتمهم محمد ﷺ.

٣ ـ ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ [طه].

٤ ـ ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم].

٥ ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود].

وهذه أمثلة أخرى من الآيات المدنية في نفس المجال، ومعلومٌ أن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ بل حتى آخر عهده المبارك وقبيل وفاته، لم يتجاوزْ سُلطانُه حدود الجزيرة العربية، بل كان مُهدَّداً حتى داخل الجزيرة، من قِبَلِ دولتي فارس والروم، ولكن لِنَنْظُرْ كيف تحدث كلام الله المبارك في تلك الآونة عن مستقبل دين الله الحق، وبماذا أنبأ:

١ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح].

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]، [الصف: ٩].

٣ ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ التوبة.

وقد تَحَقَّقَتْ هذه الأنباء والوعود، كما أعْلَنها رب العالمين في كتابِهِ المبين.

٢) وعد الله تعالى نبيّهُ الكريم بأنَّ أعداءه هم المبتورون، عند تَسْليَتِهِ له بسبب تسمية الكفار إياه بـ(أبتر):

كان مشركوا مكة يُعَزُّون أَنْفُسَهُم ويُمَنّونَها بأن (محمداً) ﷺ ليس له ولد ذكر، وسينقطع نَسْلُه بموته ويستريحون منه، وكان رسول الله ﷺ يتأذّى بهذا، وكان العرب يُسَمّون من لا ولَد ذَكَر بعده بـ(أبتر)، فسمّى بعضُهم رسولَ الله بهذا الإسم، فأنزل الله تعالى سورة (الكوثر) تسلية له ومُنْبِئاً إيـاّه بـأن مبغضيه هم الذين سينقطع ذكرهم، وأما هو فقد وهب الله تعالى لَهُ الخير الكثير من النبوّة والقرآن، ورفعة الذكر والثواب العظيم في الجنة، ومن ضِمْنِهِ حوض أو نهر الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر].

وقد أورد (النيسابوري) في (أسباب النّزول) هذه الروايات عن سبب نزول سورة (الكوثر) المباركة، قال:

١ ـ قال ابن عباس: نزلت في (العاص)، ذلك أنه رأى رسولَ الله ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدّثا وأُناسٌ من صناديد قريش في المسجد جلوس، فلما دخل العاصُ، قالوا له: مَن الذي كنت تحدِّث؟ قال: ذاك الأبتر، يعني النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وكان قد توفِّي قبل ذلك (عبد الله) ابن رسول الله ﷺ وكان من خديجة، وكانوا يُسَمُّون من ليس له ابن (أبتر)، فأنزل الله تعالى هذه السورة[١].

٢ ـ . . . عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل السَّهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دَعُوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ إلى آخر السورة[٢].

---

(١) وانظر (الإستيعاب) ج٣، ص٥١٧، إذ قال: ذكره السيوطي في الدرِّ المنثور (٦٥٢/٨) ونسبه لابن عساكر.

(٢) وانظر (الإستيعاب) ج٣، ص٥٦٩، إذ قال: أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٠٧، بسند حسن عن ابن اسحاق.

٣ ـ وقال عطاء عن ابن عباس: كان العاص بن وائل يمرُّ بمحمَّدٍ ﷺ ويقول: إنّي لأَشنؤك وإنّك لأبتر من الرجال، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ من خير الدنيا والآخرة[1].

أجل هكذا كان أعداء الرسول ﷺ يُمَنُّون أنفُسَهُم، وهكذا قال تعالى لنبيّه ثم كيف كانت النتيجة؟!

أعداءُ رسول الله ﷺ وأعداءُ دينه الذي أرسله الله به، رُموا في مزبلة التأريخ، ولم يبق لهم اسم ولا رسم، وأمّا رسول الله الكريم فهذا هو اسمه يُدَويّ في الأفاق في مشارق الأرض ومغاربها مقروناً باسم الله العظيم ـ جلّ وعلا ـ خمس مرّات في كل يوم وليلة في الأذان فقط، وأمّا في الإقامة للصلوات الخمس، ثم في تشهد (تحيات) الصلاة فرضاً وتطوعاً، وفي خطب الجمع والأعياد والمناسبات، فلا يُحْصي عدد تَردّد اسمه المبارك إلا الله تعالى.

إذاً: أوليس هذا الإنباء الربّاني الواضح الحاسم المبكِّر برفع اسم نبيِّه وشأنه وبقائه وهلاك أعدائه المبغضين له، معجزة في حدِّ ذاته؟!.

٣ ـ الإنباء بهزيمة الكفّار قبل الهجرة إلى المدينة وبدأ القتال بسنوات:

أنزل الله سورة (القمر) ورسول الله الأمين ﷺ وأتباعه المؤمنون الصادقون في (مكة) يعانون الأمرَّين بيد الملإِ المستكبرين من كفّار قريش، فأنْبأَ الله تعالى في ذلك الظَّرْف العصيب، أنّ المشركين (الكفار) سَيُهْزَمون، ولكن متى وأين وكيف؟! لا أحدَ يدري سوى الله العليم الخبير جلّ شأنه.

قال تعالى مُخاطِباً كفّارَ مكة، بعد أن قصَّ عليهم قصص كلِّ من قوم: نوح وهودٍ وصالحٍ ولوط ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر].

---

(١) (الإستيعاب) ج٣، ص٥٦٩، إذ قال: ذكره السيوطي في الدرِّ المنثور (٨/٦٥٣).

وقد جاء في التفاسير أن الصحابة ﵃ كانوا حائرين أمام تفسير هذه الآية: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ إلى أن جاءت غزوة بدر الكبرى وانهزم المشركون شرَّ هزيمة، وقُتِلَ سبعون من صناديدهم، من ضمنهم أبو جهل، كما وأُسِرَ منهم سبعون، فعَلِموا تفسيرها حينذاك! وذلك بعد بضع سنين من نزول سورة القمر[1].

ولا شك أن هذا الإنباء وتحققه، يُعتبَرُ بحدِّ ذاته، معجزة كبرى من معجزات كتاب الله العزيز المعجز.

٤ ـ الإنباءُ بأنَّ اليهود والمشركين سيكونون أشدَّ الناس عداوة للإسلام والمسلمين:

كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ . . .﴾ [المائدة: ٨٢].

والآن بعد مُضيِّ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، لم تَزْدَدْ هذه النُّبوءة القرآنية إلَّا صِدقاً وتجلّياً، إذ لا يوجَدُ الآن ومنذ أن بزغ فجر الإسلام وأزاحَ كابوسَ الظلم والفساد، وكَسَح رُكام الجهل والخُرافات التي نسبها اليهودُ وسائرُ أهل الكتب الربّانية المحرَّفة إلى دين الله القيِّم وأنبيائه الكرام (موسى وعيسى وداود) وغيرهم ـ عليهم السلام ـ، عدوّ أكثر بغضاً للإسلام وأشدّ عداوة وكيداً للمسلمين، من اليهود والمشركين العابدين للأوثان من كفرة الشرق والغرب.

٥ ـ الإنباءُ بأن الله تعالى سَيَسْتَخْلِفُ المسلمين بعد رسول الله ﷺ وسيمكِّن لهم دينَهُم في الأرض، وسيؤمِّنهم بعد خوفهم:

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

---

(١) أنظر: (المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير) ص١٣٤٠، حيث ينقل عن صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في معركة بدر: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]، وأنظر: صحيح البخاري: ٤٨٧٥ و٤٨٧٦ و٤٨٧٧.

فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور].

وقد تحقَّق هذا النَّبَأُ الموعودُ في زمن الخلافة الراشدة تماماً، وكذلك من بعدهم بمقدار وفاء المسلمين لدينهم واستمساكهم بكتاب ربهم واتباعهم لنبيِّهم ﷺ، وسيتحقق كذلك الآن وفي كل آنٍ، إذا ما اتصف أهلُ الإسلام بالإيمان الصحيح، والعبادة الخالصة لله تعالى، بالمفهوم الحقيقي الواسع لِكلمة العبادة، وهو:

الطاعة والإستسلام والإنقياد التامّ لله تعالى، حُبّاً وتعظيماً ورغبةً ورهبة، وذلك باتِّباع كتابه وسنة نبيِّه في كل مجالات الحياة الفردية والجماعية.

٦ ـ الإنباء بأن أكثر الناس لا يؤمنون:

قال جلّ شأنه مُخاطباً نبيّه الكريم ﷺ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

ومنذ أن نزلت هذه الآية الكريمة وإلى الآن نرى مِصْداقها بوضوح في دنيا الواقع، حيث بقيت أكثرية البشرية ضالَّةً كافرةً، وسيبقى الوضع والواقع البشريُّ مصداقاً لما أنبأ به كتاب الله الصادق.

٧ ـ الإنباء باكتشاف البشر يوماً فيوماً، مزيداً من آيات الله وأسرار خَلْقِهِ، في أنفسهم وفيما حولهم:

كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

وقد تجلّى هذا النَّبَأُ الربانيُّ في هذا العصر بأجلى صورة، وسيكتشف البشر حسب مفهوم الآية الكريمة، فيما يأتي من الزمان المزيد والمزيد من آيات الله في خلقه.

٨ ـ الإنباء بحفظ الله القرآن من التحريف وغيره:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

ومصداق الآية الكريمة منذ نزولها وإلى الآن، أجلى من النّهار، إذْ كتاب الله حُفِظَ من كل الجوانب، ولم يختلف المسلمون في حرفٍ منه، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في السابق أيضاً.

٩ ـ الإنباء بغلبة الروم على الفرس في جولة الحرب الآتية، بعد هزيمتهم أمامهم في الجولة الأولى:

كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم].

أورد (النّيسابوري) رحمه الله في (أسباب النّزول) عند ذكره لسبب نزول بداية سورة (الروم)، الخبر التالي:

قال:

«قال المفسرون: بعث (كسرى) جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمَّى: (شهريران) فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم فقتلهم وخرَّب مدائنهم وقطع زيتونهم، وكان (قيصر) بعث رجلاً يدعى (يحنس) فالتقى مع شهريران بـ(أذرعات) و(بُصْرى)، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب، فَغلَبَ فارسُ الروم، وبلغ ذلك النبيَّ ﷺ وأصحابه بمكة، فَشَقَّ ذلك عليهم، وكان النبيُّ ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كُفّار مكة وشَمَتُوا، فلقوا أصحابَ النبيِّ ﷺ فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميّون وقد ظهر إخوانُنا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ إلى آخر الآيات».

وكذلك أورد (جلال الدين السيوطي) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (لُباب النقول في أسباب النّزول) نحوه وأسنده إلى (ابن أبي حاتم عن ابن شهاب) وكذلك إلى (ابن جرير الطبري)[1].

وقد تحقَّقَ هذا النَّبأُ والوَعْدُ القرآني في غضون المدة التي حدّدها رب العالمين، حيث غَلَبَ الروم فارس تحديداً في يوم (بدر)، الذي غلب فيه المسلمون على المشركين، فَفَرِحَ المسلمون في ذلك اليوم بكل من:

١ ـ غلبة الروم أهل الكتاب، على فارس المجوس.

٢ ـ نصر الله الذي وهبهم الله إياه على كفار مكة، من غير أن يتهيؤا لَهُ وأن يتوقَّعوه!

وقد أورد (النيسابوري) في (أسباب النّزول) وكذلك (السيوطي) في (لُباب النقول) خَبَرَ غلبة الروم على فارس في يوم (بدر)[2].

١٠ ـ الإنباء بنجاة بدن فرعون، كي يكون عِبرةً للناس:

كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس].

وقد تحقّق ذلك الوعد الرّباني والنبأ الرحماني، والآن بدن ذلك الفرعون والذي اسمه (خوفو)[3] محفوظ محنَّطاً في متاحف مصر.

ونكتفي من أنباء القرآن الصحيحة بهذه الأمثلة العشرة، ونقول: أَوَلا

---

(١) وانظر: (الإستيعاب) ج٢، ص٥٠، ٥١، و(التاريخ الكبير) للبخاري: ٢٦٢٠.

(٢) وانظر: (لباب النقول) ص١٨٣، رقم: ٨١١، وعزاه إلى الترمذي: ٣١٩٣.

(٣) وقيل كان اسمه: (منفتاح بن رمسيس الثاني) كما جاء في كتاب: (ومضات إعجازية في القرآن والسنة النبوية) للدكتور المهندس فائق العبيدي، الكتاب الأول، ص٢٥.

يجعل كلٌّ من هذه الأنباء، كتابَ الله معجزاً، فكيف بجميعها وبأكثر منها بكثير، مما لم يتسع المجال لَدينا لإيرادها؟!

ثالثاً: أمثلة من السنن الرّبانية في حياة البشر، والتي بيَّنها كتابُ الله:

ومن الإعجاز التأريخي في كتاب الله الحكيم، أنه نبَّه على سننٍ كثيرة جعلها الله الحكيم حاكمة على حياة البشر، مثلها مثل سائر السنن والقوانين التي وضعها الله في خلقه، والتي يوصف كل نوعٍ منها بحسب مجاله، فهناك سنن (أو قوانين) فلكية، وفيزيائية، وكيميائية، وبيولوجية... الخ.

واخترنا منها هذه الأمثلة السَّبعة:

١ ـ المستكبرون والمُتْرَفون هم أعداءُ الرُّسُلِ، ودِينِ الله الحق، في كل عصرٍ ومصرٍ:

ومعاداة المستكبرين والمترفين للأنبياء والرسل ودعوتهم الرّبانية، وكذلك لأتباع الرسل الصّادقين، حقيقةٌ واضحة ثابتة، وذلك من جرّاء إحساسهم بالخطر في دعوتهم ودين الله الحق، على واقعهم الإستكباري الإتْرافي، إذ يرفض دينُ الله الحق، إقرارَ الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية الظالمة التي تتمخَّضُ عنها الأنظمة الجاهلية، وينقسم المجتمع فيها إلى أقلية ظالمة مستكبرة مُتْرَفة مُسْرِفة، وأكثرية مضطهدة مَبْخوسة الحقوق.

وهذه بعض الآيات التي تجلِّي هذه السنة الرّبانية:

١) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

٣) ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف].

ومصداق هذه السُّنَّة الرّبانية في التأريخ الغابر وفي الواقع المعاصر، ماثِلٌ لكل ذي بصيرة.

٢ ـ تَسلُّط المسرفين والمُترَفين، في أي مجتمع ونشرهم الفساد فيه، يؤدِّي إلى تدميره وزواله:

وهذه أيضاً سنة ثابتة أخرى من سنن الله الحاكمة على المجتمعات البشرية، ومِصْداقها في واقع المجتمعات البشرية القديمة والحاضرة، لا يخفى على بصيرٍ بالأمور، ومن الآيات التي بيَّنت هذه السنة:

١) ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

والمقصود بقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا. . .﴾ أي: أمرنا مُتنعّميها ـ وهم الرؤساء وأعوانهم ـ بالطاعة ولكن خالفوا أمرنا فقاموا بالفسق والفجور فيها.. وإنما حُذِفَ ما حذف من الآية إيجازاً للكلام ولدلالة السياق عليه، إذْ معلومٌ أن الله تعالى لا يأمر أحداً بغير الطاعة.

٢) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

٣ ـ الإيمان الحقيقي يُورِثُ العُلوَّ والعِزَّة على الأعداء:

قال الله تعالى في بيان هذه السنة الثابتة التي يتجلَّى مِصْداقُها كالشَّمس في حياة كل شعب، أو مجموع من أهل الإسلام، حقَّقوا الإيمان في أنفسهم:

١) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

٣) ﴿...وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

٤ ـ الإيمان والتقوى سببان لفتح الله تعالى أبواب بركات السماء والأرض:

نعم كما أنَّ الكفر والظلم والفساد سبب لغضب الله وإهلاك المجتمعات التي يتسلط عليها الأشرار والمجرمون، كذلك في الجهة المقابلة: تَحقُّقُ الإيمان والتقوى في أي مجتمع، سببٌ لنزول بركات الله المادية والمعنوية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ... ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

وقد بيّنا في السابق مفهوم كلٍّ من الإيمان والتقوى.

٥ ـ عدم القيام بالجهاد يورثُ الذُّلَّ والعذاب الدنيوي والزَّوال:

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة].

والظاهر أن المقصود بالعذاب الأليم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو: تسلُّط أهل الكفر والظلم على أهل الإسلام، والذلُّ والمهانةُ والإضطهاد الذي يتعرَّضون له من جرّاء التكاسل والقعود عن الجهاد والدفاع عن حرمات الإسلام والمسلمين، كما هو الواقع الحالي الآن لأغلب البلاد الإسلامية التي تَرْزَحُ تحت نير أهل الكفر والظلم بصورة

مباشرة أو غير مباشرة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٦ ـ لا يمكن تغيير الواقع الفاسد وإصلاحُهُ، إلّا بعد تغيير الذات وإصلاحها:

وهذه سنة أخرى من السنن الّتي وضعها الله تعالى في حياة البشر وأكَّد عليها كتاب الله في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾ [الرعد: ١١].

وذلك لأن واقع أي مجتمع ليس سوى صدىً وانعكاسٍ لما استقرَّ في عقولهم وقلوبهم، من أفكار وتصورات واعتقادات وقيم، خيراً كانت أو شراً، لذا فلا يمكن تغيير واقع مجتمع ما وإصلاحه، إلّا من خلال تغيير ذوات أفراده ومحتويات عقولهم وقلوبهم، وجَليٌّ أنه لا ينكر دور العوامل الخارجية وتأثيرها، ولكن يبقى الدور الأساسي دائماً منوطاً بالتغيير الذاتي الداخلي.

ولهذا كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يبدؤون دَوْماً في تغيير مجتمعاتهم وإصلاحها، بتطهير عقولهم وقلوبهم من الكفر والشرك والضلال والجهل، وتثبيت الإيمان والتوحيد والهدى والعلم فيها، وسنلقي الضوء الكافي على هذا الموضوع في الكتاب الآتي بإذن الله.

٧ ـ كلُّ من يبذل الجهد، فسيحصل على نتيجة، بمقدار ما بذل من الجهد، مسلماً كان أو كافراً، وسواء كان سعيه باتجاه الصلاح أو الفساد:

وهذه سنة أخرى، أَبْـرَزَها كتابُ الله الحكيم في أكثر من آية، ولكن مع هذا غفل عنها أكثر المسلمين، ولذلك تراهم يُصابُون بِحيرَةٍ ويأخذهم العجب عندما يرون الكفار يتقدَّمون عليهم ويسبقونهم ـ وخصوصاً في عصرنا الذي أهملَ كثيرٌ منهم كتابَ ربِّهم وسنة نبيّهم ـ، وَيَتَساءلون علناً أو في أنفسهم:

أَوَ لَسْنا نحن المسلمين على الدين الحق، والكفّار على الأديان والمناهج الباطلة؟! إذاً: لِمَ يسبقونَنا في ميادين كثيرة؟

وليس سبب ذلك التعجب والإستغراب، ثُمَّ التساؤل وربما الشكوك والوساوس، إلَّا الغفلة عن حقائق الكتاب الحكيم عامَّةً، وخاصة هذه السنة الرّبانية الحكيمة، وهي:

أنَّ كلَّ مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَه وَبَذَلَ الجهد، وأخذ بناصية الأسباب، فسيحصلُ على ثمرة جهده، ويُمِدُّهُ الله تعالى وفقاً لسننه الجارية في حياة البشرية، بغض النظر عن دينه واتجاهه.

وهذا يتجلّى فيه عَدْلُ الله تعالى وحكمته، إذْ طالما أن الله تعالى خلق البشر للإبتلاء، ثم أعطاهم الخيار والحرية في الطريق الذي يسلكونه، فَمُقتضى هذا هو أن يُفْسِحَ لهم المجال جميعاً، كي يتحركوا في الإتجاهات التي يختارونها، ويزاولوا النشاطات والأعمال التي يرغبون فيها، من دون أن يحول بينهم وبين ما يختارونه ويرغبون فيه.

وهذه السنة الربانية كسائر سننه الحكيمة العادلة، لا إجحاف فيها بحقِّ أحدٍ ولا محاباة فيها لأحد، فلا كُفْرُ الكافرين يمنعهم من النجاح في تحقيق مساعيهم، طالما يبذلون الجهود الكافية، ويسلكون الدروب المُوصِلة إلى أهدافهم، ولا إيمانُ المؤمنين وإسلامُ المسلمين يمنحهم حق النقض (فيتو) تجاه سنن الله، ما داموا مُقَصِّرين في بذل الجهود اللازمة والأخذ بالأسباب والطرق المؤدّية إلى المقاصد، التي يتمنّون الوصول إليها، ويرنُون بأبصارهم نحوها، وينطبق عليهم قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

وهذه بعض الآيات التي بيَّن الله تعالى فيها هذه السنة الربّانية:

١) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾ [النجم].

٢) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ

جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: نُعين كُلاً من طالبي الدنيا وطالبي الآخرة على السواء، من عطائنا الذي ليس ممنوعاً عن أحدٍ في هذه الحياة، فنعطي كُلّاً منهم النتيجة التي سعى إليها، بقدر ما بذل من الجهد، وأصاب في سلوك الطريق الصحيح الموصل إلى الهدف الذي يريد.

ويَتَمثَّلُ إمدادُ الله تعالى هذا، في تسخيره الأسباب والوَسائِل وتوفيره الإمكانيات ووضعه إيّاها في تناول الجميع.

٣) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي الساعين للدنيا لا يُنقص شيء من ثِمارِ جهودهم، حسب سنة الله العادلة التي أفسح بها المجال أمام الجميع، بَلْ سَيلْقَوْنَ نتيجَةَ كدِّهم وسعيهم.

٤) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى].

٥) ﴿... وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ...﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وجديرٌ بالذكر أن فهم هذه السنّة والتأمّل في أبعادها ونتائجها ضرورية جداً لأهل الإسلام، إذ بدونه يستعْصي عليهم فهمُ التأريخ عموماً، وفهمُ أبعاد الصّراع الدائر بين الحق والباطل خصوصاً، ولهذا قال تعالى تعقيباً على أحداث غزوة (أحد) التي انهزم فيها المسلمون أمام الكفار من جرّاء مخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٠]

فهناك سنن ثابتة إذن يُجْري الله سبحانه مَشيئَتَهُ الحكيمة في حياة البشر من خلالها، وحسب تلك السنن من حيث مراعاتها أو إهمالُها، يُداول الله تعالى النَّصْرَ بين الناس، وبالأخص بين جبهة الإيمان وجبهة الكفر.

وكذلك قال تعالى عن (ذي القرنين) الذي مَلَّكَهُ الدنيا من مشرقها إلى مَغْربها:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف].

وذلك كي يبيِّن لنا أن (ذي القرنين) إنّما استطاع القيام بما حكاه الله عنه بسبب الإمكانيات المتاحة له، وبسبب اتخاذه الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيق أهدافه.

ولكن لا بدّ من أن نَنْتبه إلى حقيقة في هذا المجال الذي نحن بِصَدَدِه، وهي:

لا يعني استواءُ الناس مؤمنين وكافرين، أمام سنن الله التي وضعها في حياة البشر كبشر عموماً، أن أهل الإيمان ليس لهم أي امتياز على أهل الكفر وخاصة في ميدان الصِّراع الدائر بينهم!

إذ أهل الإيمان يمتازون عن أهل الكفر، بسبب إيمانهم وعلى قَدَرِه، بتأييد الله تعالى وولايته ونَصْرِه ومَعيَّته، كما صرَّحت به آيات كثيرة، فيها:

١) ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

٢) ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ...﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

٤) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال].

٥) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

٦) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال].

٧) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

ودلالة هذه الآيات على ما قلناه واضحة جداً، فأهل الإيمان بقدر إيمانهم وتقواهم وصبرهم، يتولّاهم الله تعالى ويُعينُهم وينصرهم، وكون الله تعالى مُؤيِّداً وناصراً ومُعيناً لأهل الإيمان، هو أيضاً من سنن الله تعالى كما أشرنا إليه من قبل.

وبناءً عليه:

فعندما يستوي أهلُ الإيمان وأهلُ الكفر كلاهما في الأخذ بالأسباب ومُراعاة السنن العامّة التي وضعها في حياة البشر، في هذه الحالة سيمتاز أهل الإيمان على أهل الكفر، بفضل إيمانهم وتقواهم، بل قد يعوِّضُ الإيمانُ ما دام إيماناً صحيحاً جيِّداً، في كثير من الأحيان عن وجود النقص

والخلل في الأسباب، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ...﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ولكن عندما يُهْمِلُ المؤمنون سُنَنَ الله في الإعداد والأخذ بالأسباب والوسائل ظانّين أن الإيمان والإسلام يُعْفيهم من مراعاةِ سنن الله تعالى في خلقه!! فهم في تلك الحالة لا يكون نصيبهم سوى الفشل، وذلك لأنهم بموقفهم ذلك قد خالفوا كلاً من سنن الله الخَلْقية وأحكامه الشرعية الأمرية، ومن يعصي الله تعالى مرَّتين، فأنَّى يكون له النجاح والنصر!!

ونكتفي بهذه السنن السبع، ونقول:

إن مصاديق كلٍّ من هذه السنن السبع، جليَّةٌ في التاريخ الغابر وفي واقعنا الحاضر، وبديهيٌّ أن الإحاطة بهذه السنن لن تتأتّى إلَّا ممَّنْ خَلَقَ الخَلْقَ وأوْدَعَهُ السنن الثابتة التي تُجري مشيئته المطلقة الحكيمة من خلالها الخَلْق، إلى الغايات التي رسمها بعلمه المحيط، ولهذا فوجود بيان هذه السُّنن في كتاب الله الحكيم، جانبٌ آخر من الإعجاز التاريخي فيه، مثله مثل أخباره الصّادقة وأنبائه الصحيحة.

ونتنقل الآن إلى الحديث عن الإعجاز العلمي في القرآن العظيم:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٩) الإعجـاز العلمي

المقصود بالإعجاز العلمي[١] في القرآن الكريم، هـو:

أن هناك آياتٍ كثيرة في كتاب الله العزيز الـمُعْجز، صرَّحت بحقائق عن خلق الله، بـمختلف مظاهره أو ألْمَحتْ إليها، ولم تكن تلك الحقائق معروفة للبشر في زمن نزول القرآن، بل وبقرون كثيرة بعد ذلك أيضاً، إذْ لم يكن التطور العلمي ـ آنذاك ـ وصل إلى الحدِّ الذي يـمكِّن الإنسانَ من استكشافها والإطلاع عليها، ثم لـما قطع التطور العلمي أشواطاً كثيرة، أمكنه رفع اللِّثام عن تلك الحقائق والأسرار التي أودعها الخالق العليم القدير جلَّ شأنه خَلْقَهُ، ولكن ليس تلك الحقائق بـمجموعها سوى جزءٍ مـمّا حواه خلق الله المتقن من أسرار وآيات، وسيستمرُّ انكشاف أسرار الخلق للبشر إلى آخر أيام حياتهم على الأرض، كما أنبأنا كتابُ الله الحكيم وأشرنا إليه في السابق.

ونحن هنا نستعمل كلمة (العلم) بمعناها الخاصّ الجزئي المتعارف عليه بين الناس في هذا العصر، وهو:

علم الإنسان ومعرفته ببعض القوانين والسنن التي بنى الله عليها خَلْقَهُ وأودعها فيه، وذلك عن طريق استعمال الحواس والوسائل المختبرية،

(١) وعرَّف بعضهم الإعجاز العلمي بقوله: (إخبار القرآن الكريم والسنة النبوية بحقيقة أَثبتَها العلمُ التجريبي، وثبت عدم إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي ﷺ) (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، تأريخه وضَوابِطُهُ) د. عبدالله المصلح، ص٢٢.

ويُسمّى بالعلم التَجْريبـيِّ، وهذه تسمية جيِّدة ـ لتمييزه عن غيره من أنواع العلم ـ لأنَّ هذا النوع من العلم عماده وأساسه، التجربَةُ والإختبار والملاحظة.

خمس ملاحظات أساسية حول الإعجاز العلمي

وقبل أن نشرع بِسَرْد عدد من تلك الحقائق التي ذكرها كتاب الله صراحةً أو إشارةً، وتوصَّل إلى معرفتها البَشَرُ بعد قرون متطاولة من نزول القرآن، أراه ضرورياً أن نشير إلى خمس ملاحظات، لا يجوز إغفالها في هذا المجال:

الأولى: القرآن كتاب ومنهاج حياة، أولاً وقبل كل شيءٍ:

وقَصْدي من إبداء هذه الملاحظة، هو ألَّا نَسْعى أن نجِدَ كلَّ العلوم والفنون في كتاب الله، وأن نَعْثُرَ فيه على ذكر كل الأشياء، كما فعل بعض العلماء وخصوصاً صاحب تفسير (جواهر القرآن) الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله، والذي قال بعض العلماء عن تفسيره: (فيه كلُّ شيءٍ سوى التفسير)[1]!

وذلك لأن الله تعالى ضمَّن كتابَهُ الحكيمَ، ذِكْرَ كُلِّ ما هو ضروري لهداية الإنسان وتنظيم حياته، وفق مرضاة الله على كلا الصَّعيدين الفردي والجماعي، ممّا لا يستطيع الإنسانُ إدراكَهُ بنفسه، وأمّا ما هو بوسع الإنسان أن يتعرّف عليه من خلال التفكير والتجربة، فقد تركه له رب العالمين.

ولهذا وضع كتابُ الله المبين النِّقاطَ على الحروف في مجال المعرفة والإيمان والعبادة ـ بمعناها الخاص ـ والإخلاق وتكوين الأسرة والعلاقات الزوجية، ولكن في مجال تحديد الحلال والحرام والمعاملات، بمفهومها الشامل للسياسة الداخلية والخارجية والإقتصاد والدفاع والجهاد والإعلام

(١) ولكني أعتبر هذا القولَ بخساً بحق ذلك العالم الجليل، وتجنياً عليه.

والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...الخ، فقد اكتفى بوضع الأصول الكلّية والإطار العام، وذلك لأن للعقل مجالاً للتحرك في هذا الميدان، بخلاف الميدان الأول، وسنوضِّحُ هذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل الثالث من الباب الثالث - أي الكتاب الحادي عشر - بإذن الله تعالى:

ولكن مع هذا، ففي كتاب الله أسرار الخلق كلِّه بقدر ما يحتاجه البشر، ولكن بصورةٍ كلِّية وإجمالية، وكذلك فيه ذكر حقائق كثيرة، كَشَفَ العلمُ النِّقاب عن بعضها، كما سنشير إليها لاحقاً.

الثانية: عملية انكشاف أسرار الخلق للإنسان ستَظَلُّ مُستمرَّة:

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في السابق في ضوء قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

والآية المباركة صريحة في النص على: أنَّ اطِّلاع البَشَر على أسرار الخلق سيستمرّ، وكذلك صريحة في أن انكشاف المزيد من آيات الله الخَلْقيَّة المحيِّرة للألْباب، سيكون في خدمة تجلية حقانية كتاب الله وآياته الأمرية، أكثر فأكثر وباستمرار، وهذه الحقيقة نَلْمَسُها نحن اليوم أكثر من أيِّ وقت مضى.

الثالثة: بما أن العلم ليس سوى الكشف عن أسرار خلق الله وسننه، والقرآن إنّما هو كلامُ الله وقوله، إذاً: يجبُ أن يكون العلمُ الصريح والدين الصحيحُ متوافقين، لأنه يستحيل أن يصطدم قولُ الله تعالى بفعله!

يتصوَّر بعضُ الجهلة الذين يَقيسون دين الله الحق (الإسلام) على اليهودية والنصرانية المبتدعتين، والقرآن على التوراة والإنجيل المحرَّفين، بأنه إذا ما تطوّر العلمُ وأماط اللِّثامَ عن مزيدٍ من أسرار الخلق وسننه،

سَيُؤَثِّر هذا سَلْباً على دين الله (الإسلام) وكتاب الله (القرآن)!

ولكن هذا ليس سوى وَهْمٍ، منشؤه الجهل بكتاب الله المحفوظ ودينه الحق.

إذْ طالما أن العلم عبارة عن وصف سنن الله وأسراره التي أودعها في خلقه، ودينه (الصحيح) وكتابه (المحفوظ) هو كلامه ووحيه الذي أنزله، إذاً: فكيف يَتَصادَمُ خَلْقُهُ مع أَمْرِهِ، أَو فِعْلُهُ مع قَولِهِ، أو ما أبْدَعَهُ مع ما أَنْزَلَهُ؟! أوَلم يخرجْ كلاهُما من مصدرٍ واحدٍ، ومن مشكاةٍ واحدة؟!

كلاّ ليس هناك أيُّ تصادُم، أو عَدَمُ انسجام بين حقائق العلم الصريح وحقائق الدين الصحيح، وإنـما حدث الإصطدام بين اليهودية والنصرانية المستندتين إلى التوراة والإنجيل المحرَّفين، وبين (العلم) في الغرب، لأن العلم لا يمكن أن يَنْسَجِمَ مع الخرافات، ولا يسعه الإقرارُ بالأباطيل، وأما الدِّين الحق المستند إلى كتاب الله الحكيم، المحفوظ من التحريف وغير التحريف، لا أنَّهُ لا يصطدِمُ مع العلم الصريح وحقائقه فحسْبُ، بل نهاية العلم هو بداية الدين (الإسلام)، أي أن العلم في نهاية مطافه، يقول ما قاله الدين، ومُحَصِّلَتُهُ النهائية هي:

الإقرارُ بصدق مقرّرات الدين وبِمُنْتَهى التواضع، وهذا هو الواقع الآن، بالنّسبة لحقائق العلم مع دين الله الحق وكتابه المبين.

ويمكننا القول اختصاراً:

إن كلاً من العلم الحقيقي الصّريح، والدين الحق الصحيح، علمٌ، أما الأول فمنشؤه خَلْقُ الله وفِعْلُهُ، وأما الثاني فمنشؤه ومنبعُهُ كلام الله ووحيه، وَعَلَيهِ:

فكيف يتصادَمُ كلا نوعي علم الله العليم الحكيم؟!

<u>الرابعة</u>: بناءً على ما مرَّ ذكره، نقول: متى سمعنا بوجود تصادم بين

الدِّين والعلم، فَلْنَعْـلَم يقيناً أنه: إمّا أنَّ الدِّينَ محرَّفٌ، أو أن العلم زائف، أو أنَّ كليهما باطـلٌ!:

أجـل، كما أن الخرافاتِ والأهواءَ البشرية، وإنْ أُلْبِسَتْ ثوبَ الدِّين[1] وأُدْخِلَتْ في بطون كتبٍ ربّـانيـة في أصلها، كالتوراة والإنجيل والزّبور، تتصادم وتتعارض مع الحقائق العلمية، ولا يشفع لـها تَسَمِّيها باسم الدين، كذلك الأفكارُ والنظرياتُ الباطلة التي تستَّر تحت لافتة العلم والـمعرفة، لا جَرَمَ تتصادَمُ مع الدين الحق، وكيف لا يصـطدم الـجهلُ والـخرافَةُ، وانْ سُـمِّي زُوراً (علماً)، مع دين الله الحق الصادر من معيـن علم الله المحيط بـكل شـيء؟ كـما قـال تـعالـى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ...﴾ [هود: ١٤].

ولا يَخْفى أنه لا فرق بين الذين يتعصَّبون للأساطير والإفتراءات التي تسترّت بالدين، وبين الذين يتعصَّبون للأفكار والنظريات الباطلة التي أُلْبِست لِباسَ العلم والـمعرفة زُوراً، وذلك لأن التعصّب للباطل مذمومٌ أيـاً كان عنوانه ونوعُهُ.

الخامسة: مَهْما تطوّر علمُ البشر، واكتشف مزيداً من أسرار خلق الله المُتْقَن الصُّنْع، لن يعدو كونه معرفـةً بظواهر الأشياء، وأما سَـبْر أغوار حقائقها، فهو بعيد الـمنال:

وهذه الحقيقة أقَرَّ بـها جهابِذَةُ العلم التَجْريبـيِّ والراسخون فيه أمثال (إسحاق نيوتن) و(ألبـرت أنيشتاين) و(ألكسيس كاريل) و(جيمس جينـز) وغيـرهم، وسبب ذلك هو قصور الإدراك البشري، إذْ لـم يُجَهِّـزْهُ الـخالِقُ الحكيم إلَّا بـما تتوقف عليه حياته الأرضية هذه، ويَستلْزِمُهُ ابتلاؤه، واقتضت حكمته سبحانه، أن يجعلـه محتاجاً إلـى ربِّـه ووحيه لـمعرفة وظيفته في هذه

(١) نستعمل كلمـة (الدين) هنـا بـمعنـى دين الله الحق الذي أنزلـه على جميع أنبيائه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

الحياة، وموقفه تجاهَ ربّه والإجابة عن الأسئلة التي تُشْغِلُ بالَهُ دَوْماً:

مَنْ أَنَا؟ ما هذا العالَمُ؟ لماذا خُلِقْتُ؟ ولِمَ خُلِقَ هذا العالـم؟ ما هي وظيفتي؟ وما هو مصيري وعاقبتي؟!

قال تعالى بالنسبة لعلم الإنسان القليل الجزئي الظاهري:

١) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

٢) ﴿...وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم].

وكلّما رَسَخَ الإنسانُ في العلم، وتَعمَّق في المعرفة وتوسَّع فيها، اقتنع أكثر بأنَّ جَهْلَهُ بالأشياء أكبر وأكثر من علمه، ويزدادُ يقيناً بما قاله رب العالمين جلّ شأنه، من كون علم البشر قليلاً وسطحياً وظاهرياً.

وقد أحسن مَنْ شبَّه العالِمَ بالشجرة المثمرة التي تَتدلَّلُ أغصانُها وتخفِضُ رأْسَها نتيجة ثقل الثمار، وشبَّه الجاهِلَ أو قليلَ العلمِ، بالشجرة غير المثمرة التي ترتفعُ أغصانُها وتَشْمَخُ بأنفها لِخفَّةِ حِمْلِها!

تسعة وعشرون أمثلة للإعجاز العملي في القرآن

والآن لنشرع في سَرْد بعض الحقائق التي صرَّحت بـها أو أشارت إليها بعضُ آيات كتاب الله المبين، والتي لم يكشف العلمُ التَجْريبيُّ النِّقابَ عنها إلَّا بعد قرون كثيرة، بعد نزول القرآن العظيم.

وقد ألّف علماءٌ معاصرون متخصِّصون في مختلف فروع العلم التجريبي، كتباً كثيرة حول الإعجاز العلمي في القرآن العزيز، وما نكتبه هنا ليس سوى إشارة وخلاصة في هذا المجال، وبالإعتماد على ما في الذاكرة بعد توفيق الله وهدايته..

هذا وقد سبقت الإشارة إلى بعض تلك الحقائق، خصوصاً في الكتاب الأول لمناسبات اقتضتها:

١) الدُّخان هو المادَّة التي كوَّن الله تعالى منها السموات والأرض:

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ...﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

وقد تَوَصَّلتِ البحوثُ الفلكية والفيزيائية إلى معرفة هذه الحقيقة في القرن العشرين الميلادي، أي بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن، إذْ يقول

العلماء بأن (الكون)[1] كان قبل وجوده الحالي على شكل غازٍ مخلخل.

٢) الأرض كانت جزءاً مُلتصقاً بالسماء ثم انفصلت عنها:

كما قال الخلّاق العليم ـ جلّ وعلا ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا . . .﴾ [الأنبياء: ٣٠].

اللّافِت للنظر هنا: أن الله تعالى عَبَّر بكلمتي (الرَّتْق) و(الفَتْق) عن حالتي الإندماج والإنفصال اللَّتَيْن حدثتا للأرض مع السماء، و(الرتق) هو التضامُّ والإلتصاق الشديد بين أجزاء الشيء بعضها مع بعض[2]، وهكذا كانت حالة كتلة المادة التي خلق الله منها السماء والأرض، كما وأن (الفتق) هو تباعُدُ جزءٍ من شيءٍ وتمايزه عنه، بدون أن ينفصل عنه تماماً[3]، كما هو الحال بالنسبة لمرض (الفِتْق) المعروف!

وهذا أصدق وصفٍ لحالة الأرض مع الشمس ومجموعتها خصوصاً، والسموات عموماً، إذ الأرض بعيدة عنها ومتمايزة، ولكنّها ليس مبتوتة الصِّلة بها، بل هي مشدودة إليها بقوة برباط الجاذبية القوي!

٣) الإشارة إلى الجاذبية العامة:

كما قال سبحانه وتعالى:

١ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ . . .﴾ [الرعد: ٢].

٢ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ . . .﴾ [لقمان: ١٠].

وقد فسَّر المُفَسِّرون القدامى رحمهم الله تعالى، هاتين الآيتين بأن المقصود بجملة: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ هو: رفع السموات وخلقها بغير عمدٍ

(١) مفهوم مصطلح (الكون) أضيق بكثير من مفهوم كلمة (السماء) أو (السموات) كما بيّناه سابقاً في الكتاب الأول.

(٢) مختار الصحاح، ص٣٢، لفظ: ر ت ق، (الرَّتْقُ ضِدُّ الفَتْق).

(٣) مختار الصحاح، ص٤٩٠، لفظ: ف ت ق، و(المعجم الوسيط)، ص٦٧٢.

وأنتم ترونها أنها ليست لها عَمَدٌ، أي: أنهم جعلوا ضمير (ها) في (تَرونها) راجعاً إلى السموات، ولكن الظّاهر أن هذا المعنى غير مقصود، وذلك بدليل أنّنا لا نرى السموات، بل ولا حتى السماء الدنيا منها بكاملها أيضاً، إذاً: كيف يقول ـ جلّ وعلا ـ: إنكم ترون السموات مرفوعة ومخلوقة بغير عمدٍ، مع أنّنا لا نراها؟!

لذا فالمعنى المقصود في الآيتين، هو:

أن الله تعالى رفع السموات وخلقها بِعَمَدٍ غير مرئيَّةٍ (والعمد[1] جمع عمود وعِماد)، والضمير (ها) راجع إلى (عَمَدٍ)، وهذا صحيح ومُشاهَدٌ، حيث نحن فعلاً لا نرى العَمَد التي خلق الله بها السموات ورفعها بها.

هذا وقانون الجاذبية العامة اكتشفها (إسحاق نيوتن) الذي عاش بين عامي: (١٦٤٣ و١٧٢٧) الميلاديين، وذلك بعد أن لَفَتَ نَظَرهُ سقوط تفاحةٍ في الماء.

٤) التصريح بحركة ودوران كل من الأرض والشمس والقمر في مدارات خاصة:

كما قال العليم الخبير:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء].

٢ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

(١) عَمُوْدُ وعِمَادُ: يُجَمْعُ: على (أعْمِدَة وعَمَدٌ وعُمُدٌ)، والعِمَادُ أو العَمُوْدُ: خشبة تقومُ عليها الخيمة، المعجم الوسيط، ص٦٢٦.

ودلالة هذه الآيات على حركة ودوران كل من الأرض والشمس والقمر في مدارات خاصة، واضحةٌ، لأن كلمة (يَسْبَحُونَ) هنا تعني السَّيرْ والجري والدوران، والـ(فُلْك) هو المدار الذي يدور فيه كلٌّ من هذه الأجرام، كل في مدار خاص به، و(يَسْبَحُونَ) يدلّ على الجمع، إذاً: لا بدّ من وجود ثلاثة أجرام ـ على الأقل ـ دائرة في أفلاكها، وهي: الشمس والقمر، وهما مذكوران صراحة باسمهما، والثالث هو الأرض وهي مذكورة ضمناً من خلال ذكر اللَّيل والنّهار، إذ معلومٌ أنه لا وجود لِلَّيل والنهار إلَّا على وجه الأرض الذي يتوزَّعان عليه باستمرار.

ومن البيِّن أن العلم التجريبيَّ لم يتمكن من اكتشاف حقيقة دوران الأرض والشمس والقمر وحركتها، إلَّا في القرون الأخيرة، وخصوصاً على يد (جاليلو).

٥) الإشارة إلى أن الأرض تضمُّ الأشياء إلى نفسها وتجذبُها:

كما قال الخلّاق العليم:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات].

والكَفْتُ في اللغة هو الضَّمُّ والجذبُ، جاء في (المصحف المفسَّر) في تفسير هذه الكلمة (كفاتاً):

[(الكِفاتُ) اسم لما يكفِتُ أي يَضُمُّ ويجمع كالضّمام، ويصحُّ أن يكون كِفاتاً مَصدراً نُعِتَ به، أو جمعُ كافِتٍ، ويحتمل أن يكون جمع (كِفْتٍ) وهو جِرابٌ لا يُضيعُ شيئاً][(١)].

ومعنى الآيتين: ألم نجعل الأرض ضامَّةً لكم تجذبكُمْ إلى نفسها، سواء كنتم أحياءً على ظهرها أو أمواتاً في بطنها؟!

وقد ذكرنا من قبل أن قوة الجاذبية ـ في الأرض وغيرها ـ لم تُكْتَشَفْ إلاّ في القرن السابع عشر ميلادي.

---

(١) أنظر: ص٧٨٥، وانظر: المعجم الوسيط، ص٧٨٥ و٧٩١.

(٦ و٧ و٨ و٩ و١٠) الإشارة إلـى:

* كرويـّةِ الأرض.
* وبيضويَّتِها.
* وحركتِها.
* ودورانـِها حول نَفْسِها.
* وتوزيع اللّيل والنّهـار على وجـهها باستمرار.

كما قال ربّ العالمين تبارك وتعالـى:

١ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ . . .﴾ [الزمر: ٥].

٢ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات].

٣ ـ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

٤ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . . .﴾ [يونس: ٢٤].

وكيفيـة دلالـة هذه الآيات على الحقائق الخمس المذكورة، هذا بيانـها بإيـجاز:

٦) أما كرويـة الأرض:

فيشيرُ إليهـا قولُه تعالـى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾، وذلك لأنَّ التكوير هو اللَّفُّ على الشيء الدائري الكُـرَوِيِّ الشكل، يقال: (كَـوَّرَ العِمامَـةَ على رأسه) إذا لَفَّها عليه(١)، ولا يـمكن تصوّر لَفِّ

(١) المعجم الوسيط، ص٨٠٤.

اللّيل والنّهار على (مكان) بعضهما البعض، إلَّا إذا كانا يعتوران الأرض ويلُفّانـها باستمرار، وكانت الأرض كُرويّة الشّكل.

٧) وأمـا بيضـوية الأرض:

فيدلُّ عليها قوله تعالـى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، إذْ كلمة (دحـاها) لـها معنيان:

أحدهما: بَسَطَها ومَدَّهـا.

وثانيهما: جَعَلـها على شكل (الدُّحيـة) وهي بيضة النَّعامـة[١]، ومن الواضح أنه لا منافاة بين كون الأرض المدحوّة، مَبسوطة وممدودة وكونـها كروية بيضـوية، فهي مبسوطة مُسَطَّحة في نظر العين لعظم مساحتها، وكذلك هي كروية بيضوية الشكل في الواقع.

وكون الأرض بيضوية الشكل، حقيقة ثابتة اكتُشِفتْ حديثاً، إذ ثبت أنَّ مَدارها مائِلٌ بثلاث وعشرين درجة ونصف درجة (١ ـ ٢/٢٣)، وهذا الـميلان في الـمدار الذي تدور فيه الأرض حول نفسها أمام الشمس، هو الذي يُسبِّبُ حدوثَ الفصول الأربعة على مدار السنة.

٨) وأمـا حركـة الأرض:

فقد صرّح بـها قول الله العليم: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ ومعنى الآية واضـح، إذْ يُشَـبِّه سبحانه وتعالى حرَكَة الجبال التـي يحسبها الإنسان الرائي واقفة، بمرور السَّحاب في الجـوّ.

وقد فسَّر المفسّرون القدامى رَحمهم الله هذه الآية بأنَّها تتحدث عن التغييـرات الّتي تحدث يوم القيامة! ولكن ما يـمنعنا على حمل الآية على ذلك الـمعنـى، هو:

(١) المعجم الوسيط، ص٢٧٤

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً...﴾ [النمل: ٨٨]، ومعلوم أنَّ عند حدوث يوم القيامة وأحداثها الجسام، والتي منها نَسْفُ الجبال وجَعْلُها هباءً مُنْبَثاً، لا يتصوَّر أحدٌ الأمورَ على خلاف حقيقتها، بل في ذلك اليوم تتجلّى الحقائق كالشمس، ولا يكون ثـمَّة مجالٌ للظن والحِسْبان!

ثانياً: قوله تعالى: ﴿...صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾ [النمل: ٨٨]، إذْ لا ينسجم هذا التعقيب مع حالة الخراب والدّمار التي تَعُمُّ الخَلْقَ ومن ضِمْنه الأرض والجبال، إذ لا يُلْفِتُ أَحدٌ أنْظارَ الناس إلى إتْقانِ شيءٍ، في خِضَمِّ تَدْميره وتَخْريبه له، بَلْ يُلْفِتُ إليه الأنظار وهو قائم صحيح!

ثالثاً: وكذلك قوله تعالى: ﴿...إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ...﴾ [النمل: ٨٨]، واضِح الدلالة على أن الحديث مرتبط بما هو واقع الآن في الدنيا.

ومـمّا يدلّ على حركة الأرض، قوله تعالى:

١ ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النبأ].

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا...﴾ [الملك: ١٥].

وذلك لأن تشبيه الله الحكيم الأرض بالـمهد الذي يُوْضَعُ فيه الطِّفل ليستَريح فيه وينام، وهو مع حركته لا يُسْقِطُ الطِّفل، وتشبيهه إيّاها بالدابّة الذّلول التي تنقاد لصاحبها، ولا ترمي براكبها وحِمْلِها، يفهم منه ما قلناه.

وتشبيه كتاب الله الحكيم حركة الجبال بحركة السّحاب، مطابق تماماً لواقع حال كلتيهما، إذ مرور السّحاب مع سرعتها، قلّما يُحَسُّ به، إذْ هو بالنسبة لنا مرور هاديء وصامت، وكذلك حركة الجبال التي يقصد بها حركة الأرض كلّها.

وللأرض حركة محورية حول نفسها، إذ تدور حول نفسها مرة واحدة كل أربع وعشرين (٢٤) ساعة، أي يوم وليلة، مُحْدِثةً بذلك اللّيل والنّهار،

وأمّا حركتها الدائرية حول الشمس فَتُكْمِلُها خلال سنة كاملة أي (٣٦٥) يوماً ورُبع يوم تقريْباً، مُحْدِثةً بذلك الفصول الأربعة (الربيع والصيف والخريف والشتاء).

وكذلك للأرض حركات أخرى مع الشمس ومجموعتها ..ألخ، والحركة التي ذكرتها الآيات أو لَمَّحَتْ إليها، يشمل مفهومُها جميعَ تلك الحركات المحورية والدائرية والتَّبَعيَّة.

٩) وأمّا دورانُها حول نفسها:

فيشير إليه قوله تعالى: ﴿... يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا...﴾ [الأعراف: ٥٤]، وذلك لأن غشيان اللَّيل للنهار ـ أي مكانه ـ وطلبه له بسرعة، لا يتصوَّر إلَّا أن تُعتبر الأرض التي يَلُفُّها الليلُ والنهار باستمرار وسرعة، دائرة حول نفسها.

١٠) وأمّا توزيع اللّيل والنهار على وجه الأرض باستمرار:

فيدلّ عليه قوله تعالى: ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا...﴾ [يونس: ٢٤]، وذلك لأن هذه الجملة المباركة تتحدَّث عن الحالة التي تحدث فيها الساعة، وبيَّن سبحانه أن تلك الحالة التي يحدث فيها ذلك الحدث الرهيب تكون ليلاً أو نهاراً، ولا شك أن كلمة (أو) ليس المقصود بها التشكيك، ولكن الحكمة في استعمالها، هي:

بما أن الكرة الأرضية يتوزع عليها اللّيل والنهار باستمرار ويتبع أحدهما الآخر، إذاً: فالأرض يكون نصفها دَوْماً ليلاً ونصفها الآخر نهاراً، لذا فعندما تقوم الساعة، يكون الوقت بالنسبة لساكني نصفها ليلاً، وبالنسبة لساكني نصفها الآخر نهاراً!

ولهذا لم يقطع كلامُ الله الحكيم القولَ، في وقت قيام الساعة بالنسبة لكونه ليلاً أو نهاراً.

ومعلوم أن كُلاً من هذه الحقائق التي أصبحت الآن من الأمور الواضحة، لَمْ يتوصَّلْ إليها العلم التجريبيّ إلَّا بعد قرون متطاولة، بعد نزول كتاب الله المبين.

١١) الزوجيَّة هي القاعدة العامّة في الخلق:

كما قال تعالى:

١ ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس].

٢ ـ ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات].

وهذه الحقيقة التي أعلنها كتاب الله قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، لم يتوصّل إليها العلم التجريبيّ إلَّا حديثاً، وذلك بعد تطور علم الحيوان والنبات والكيمياء والفيزياء الذرية، حيث اكتشفوا أنه بالإضافة إلى شمول قاعدة الزوجية لعالمي الحيوان والنبات، بكل مالَهُما من أنواع وأصناف، فهي تشمل أيضاً عالم المادّة الصمّاء التي تتكوّن من الذرّات، والتي كانوا يتصورونها سابقاً بأنها أجزاء لا يمكن تَجْزِئتُها[(١)]، تتكوّن كل منها من ثلاثة أجزاء رئيسية:

پروتون (Proton) ذو شحنة موجبة، مع نيترون (Neutron) محايد من حيث الشحنة، ويُشكِّلان نواة الذرة، وألكترون (Electron) ذو شحنة سالبة يدور حول النواة في مدار مُحدَّد، وبما أن السموات والأرض وما بينهما كلها ـ حسبما نعلم ـ مخلوقة من المادّة، والمادة كما ذكرنا حالها: تحكم ذَرّاتها التي هي لَبِناتُها الأساسية، قاعدةُ الزوجية، إذن: الزَّوجيَّة هي قانون الله العام في الخلق كله، ونقصد بها:

وجود الإثنينية والتقابل في الخلق، فما من مخلوقٍ إلَّا ويُقابِلُهُ مخلوق آخر:

(١) وكلمة أتوم (Atom) معناها الجزء الذي لا يتجزّأ، وقد ترجمت كلمة (أتوم) بـ(الذرة).

السماء والأرض.

الدنيا والآخرة.

الجن والإنس.

الملائكة والشياطين.

الأرواح والأجساد.

الجنة وجهنم.

الماء والنار.

الخير والشر.

الحق والباطل.

الإيمان والكفر.

. . . وهكذا دواليك.

والله سبحانه هو وحده الفرد الأحد الصَّمد، الذي لم يلِد ولم يولَد ولم يكن له كفواً أحد، وهو سبحانه (وَتْر) وغيره كله (شَفْع) ولهذا أقسم بهما سبحانه، فقال: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر].

١٢) كَوْنُ الجبالِ أوتاداً للأرض وسبباً لحفظها من الميلان والإضطراب:

كما قال العزيز العليم جلَّ شأنه:

١ - ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ [النحل].

٢ - ﴿. . . وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ . . .﴾ [لقمان: ١٠].

٣ ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ].

وقد اكتشف علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) أن القسم البادي من الجبال، هو الجزء الأَصْغَر منها، وأن أَضْعافَه غائبة في أعماق الأرض، وأنَّ الجبال هي السبب المباشر والأساسي لحفظ توازن الأرض وعدم اضطرابها ومَيَلانها، من جرّاء دورانها السريع حول نفسها، ثم دورانها الأسرع حول الشمس، ثم حركتها الأكثر سرعة مع الشمس ومجموعتها. . الخ.

فما أصدقَ وأدقَّ وصفُ كتاب الله الحكيم الجبال بالأوتاد، وكأنَّ الأرض سَفينةٌ رَسَتْ في ميناءٍ، والجبال أوتادها التي شُدَّت إليها كي لا تتحرَّك وتلعب بها الأمواجُ، وتذهب بها هناك وهناك!

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: جعلنا الجبال أوتاداً للأرض كراهة أن تميد بكم، والمَيْدُ هو المَيَلان والإضطراب[١].

١٣) كون الهواء المحيط بالكرة الأرضية، سَقْفاً محفوظاً من الإنخراق:

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء].

والظاهر أن المقصود بالسماء هنا، هو الجوُّ (الهواء) المحيط بالكرة الأرضية والذي يَلُفُّها من جميع جهاتها، وهو محفوظ من الإنْخراق من قبل الشهب الكثيرة التي تدخلُ مجالَ الجاذبية الأرضية، فتنجذب نحوها بسرعة هائلة تقدَّر بخمسين كيلومتراً في الثانية، ولكن ما أن تدخل المجال الجوِّيَّ، إلَّا وتبدأ بالإحتراق لتُصبح رماداً في ثوانٍ، وذلك بسبب وجود غازَيْ: (الأوكسجين) و(الهيدروجين) إذ الثاني قابل للإحتراق والأول مساعِدٌ له، ويُقَدِّرُ العلماء عَدَدَ الشهب المتوجِّهة إلى الأرض يومياً بالملايين، ويقولون: لولا احتراقها في المجال الجوِّي، لاستحال وجود أي نوع من

---

(١) المعجم الوسيط، ص٨٩٣، لفظ (ماد).

الحياة على الأرض، ولأصبح كل شيء على وجهها رماداً في رَمادٍ، في غضون أيامٍ أو أقلَّ!

لِذا يعتبر هذا الوصف القرآني الدقيق للجوّ المحيط بالأرض، بأنه سقف محفوظ، والذي سَبَقَ به العِلْم قروناً كثيرة، معجزةً برأسها.

وإنّما فسَّرنا (السماء) في الآية بالهواء والجوّ المحيط بالأرض، لأنَّ ظاهر الآية والسياق يدلّ عليه، وقد استعملت كلمة (السماء) في القرآن في أكثر من آية بمعنى الهواء والجوّ الذي يكتنف الأرض من أطرافها، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ. . .﴾ [النحل: ٧٩].

٢ ـ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ. . .﴾ [البقرة: ١٩].

٣ ـ ﴿. . . وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان].

٤ ـ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ. . .﴾ [الأنعام: ١٢٥].

١٤) كيفية تكوّن السَّحاب:

بيَّن كتاب الله المبين في أكثر من آية، كيفية تكوُّن السَّحاب، وذلك كما يبيِّنها العلمُ التجريبيُّ الذي لم يتوصَّل إلى معرفة تلك الحقيقة إلَّا منذ زمن غير بعيد.

وكيفية تكوّن السَّحاب بإيجاز ووضوح، هي:

أن الرياحَ تَحمِلُ بُخارَ الماء الذي أَثارَتْهُ أَشِعَّة الشَّمس من مياه البحار، ثم تتجمَّعُ أجزاءُ البخار مكوِّنة السُّحُبَ، ثم تتراكم السُّحب ويَحْدُثُ التلاقُحُ من جرّاء تحريك الرياح لها واصطدام بعضها ببعض، وينتج عن ذلك الرَّعد والبرق، ومن ثَمَّ سقوطُ الماء ونزوله: ثلجاً وبَرَداً ومطراً.

وهذه بعض الآيات التي تشرح ما ذكرنا بوضوح غَنيّ عن التوضيح:

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ...﴾ [النور: ٤٣].

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ...﴾ [الروم: ٤٨]، والودق هو المطر.

٣ ـ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر].

٤ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [النبأ].

والمعصرات جمع (مُعْصِرَة) ويقصد بها السحاب[1]، وهي على وزن (مُفْعِلة) بمعنى (مفعولة) مثل (مُضيئة) أي مُنَوَّرة، وإنما سُميت السُّحُبُ المُمْطِرة (مُعْصِرات)، لتلقيح الرياح لها، وكأن الرياح عَصَرَتْها عَصْراً، إلى أن أنسَكَب ماؤها.

١٥) الإشارة إلى قِلَّةِ غاز الأوكسجين في أعالي الجوِّ، والتي تُسَبِّب صعوبَةَ التنفُّس:

كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام].

وهذه الحقيقة ـ أي صعوبة التنفّس عند الصعود في الجوِّ بسبب قلة الأوكسجين ـ لَم يُكْشَفْ عنها النقابُ إلّا بعد صنع البالونات ثم الطائرات، وملاحظة تقلّل الأوكسجين تدريجيّاً، كلّما ازدادَ الصعودُ في الجوّ.

وجرس كلمة (يصَّعَّدُ) نفسه يشير إلى معناها، وذلك لصعوبة التلفّظ بها، وهذا نوع من الإعجاز البياني الذي سنتحدّث عنه لاحقاً بإذن الله

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٥٦٩.

تعالى، أي: دلالة الكلمات على معناها من خلال جرس ألفاظها.

١٦) الإشارة إلى صنع وسائل السفر والنقل الحديثة كالسيّارة والقطار والطّيارة:

كما قال البرُّ الرحيم جلّ شأنه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل].

حيث يُذَكِّر الله تعالى الناسَ بنعمة الحيوانات التي فيها منافع شتّى ومن ضمنها استخدامها للركوب، وحمل الأثقال في الأسفار، وللزينة، ثم يقول: ﴿...وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ولا يخفى أن ما لم يكن المُخاطَبون الأولون بهذه الآيات، يعلمونه واستجدَّ بعدهم، هو وسائل السفر والنقل الحديثة ـ أي في المجال الذي تتحدَّث عنه الآيات، وهو السفر ونقل البضائع إلى أماكن بعيدة ـ.

والآية الكريمة تَدُلّ على أن صنع وسائل السّفر والنقل والإبداع فيها سيستمرُّ إلى أن يشاء الله، وذلك لأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مُوَجَّهٌ لكل من يقرأ القرآن في الماضي والآن وغداً، وفعل المضارع (يخلق) يدلّ على التجدّد، إذاً:

فسيخلق الله تعالى من وسائل النقل والسفر، من خلال إرادة البشر ما لا يعلمه (المُخَاطَبُ) الذي يقرأ القرآن، لأن تلك الوسائل تُستَحْدَث فيما بعد بالنِّسبة له!

وإنّما نَسَبَ الله تعالى إيجاد تلك المصنوعات إلى نَفْسِهِ، واستعمل لها كلمة (الخلق)، لأن كلاً من:

البَشَرِ الذين يزاولون صنعَ تلك الأشياء، والموادِّ التي يستخدمونها،

من خلقه وإيجاده سبحانه، ولا يتجاوَزُ دورُ البشر في ذلك، الكَسْبَ والصُّنْعَ والفِعْلَ والإخْتِراعَ..الخ، وهي كلها أمورٌ جعلية لا علاقة لها بالخلق، كما بيّنا ذلك في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة.

١٧) التصريح بِأن كلَّ الكائنات الحيّة خُلِقت من الماء:

كما قال الحيُّ القيّوم تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ...﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٢ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ...﴾ [النور: ٤٥].

وهذه حقيقة علمية ثابتة ـ أي بِالنسبة للمنطق العلميِّ التجريبي، وإلَّا فكلّ ما في كلام الله حقائق علمية ثابتة، سواء توصّل إليها العلم البشري أم لا ـ، ولم يتوصّل البَشَرُ إلى إدراكها، إلَّا بعد أن قطعت التحقيقات العلمية في مجال علم الأحياء (البيولوجيا) أشواطاً كثيرة.

١٨) الرُّوح سِرٌّ ربّانيٌّ وليس في مُكْنَةِ علم البشر القليل، حَلُّ لُغْزِها ودَرْكُ حقيقتها:

كما قال من له الخلق والأمر تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وما زالت حقيقة الروح سِرّاً مكتوماً عن البشر، وسوف تبقى هكذا، مَهْما تقدَّمت العلومُ بمختلف فروعها، وذلك لأن الإنسان مهما صعد في مدارج العلم والمعرفة واكتشاف أسرار الخلق، فَسَيَظَلُّ عِلْمُهُ قليلاً ومعرفته ضئيلة بالنِّسبة لحقائق الوجود وسَبْرِ أغوارها، وخاصة (الروح) التي أضافها الله إلى نفسه واعتبرها من أمره!

١٩) سيعود الخلق (السّموات) إلى الحالة الأولية التي كان عليها، أي الحالة الدُّخانية:

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ

أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء].

ومعنى الآية الكريمة واضح، وهو أن الله تعالى سَيُعيدُ هذا الخلق المتمثِّل في السماء ـ بالمفهوم الشامل لها، والذي يقصد به كل الخلق المرتبط بنا نحن البشر ـ إلى الحالة الأولى التي كان عليها قبل أن يَتَّخِذَ شكلَهُ الحالي.

وهذا هو ما تؤكِّده النظرياتُ العِلمية التي تتحدَّث عن مصير (الكون)، ولولا الآيةُ الكريمة لَما جاز لنا التعويلُ على مثل تلك النظريات التي تتحدَّث عن مسائل غيبيَّة، لا يعلمها على حقيقتها سوى الباري جلّ وعلا.

٢٠) كل الحيوانات ومنها الطيور تعيش كأمم مختلفة، ولحياتها ومعايشها تنظيمات دقيقة للغاية:

كما قال عالم الغيب والشهادة جلّ شأنه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام].

وقد توصَّل العُلماءُ المُتخصِّصون في دراسة أحوال الحيوانات، إلى هذه الحقيقة القرآنية مُنذُ زَمَنٍ قريب، ودوَّن بعضُهم نتائج تحقيقاتهم وبحوثهم وتأمّلاتهم في هذا المجال، في كتب خاصة بحياة بعض الحيوانات، فعلى سبيل المثال:

ألَّف (مورس ميتر لينك) عدّة كتب عن (النّحل) و(النّمل) وبعض (الطيور)، وفي حياة كلٍّ من هذه الحيوانات من الدقة والنظام ما يحيِّر الألباب، ولحكمة ما سُمِّيت ثلاث سور مباركات في كتاب الله الحكيم، بأسماء ثلاثة أنواع من الحشرات، وهي: (النّحل) و(النّمل) و(العنكبوت).

٢١) للبحار أمواجٌ تحتيَّة مَخفيَّة تحت الأمواج الفوقية الظاهرة:

كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ

﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

وقد اكْتُشِفَتْ هذه الحقيقة العلمية في عصرنا الحالي منذ زمن قريب.

وكان اطّلاعُ العالم الذي اكتشف هذه الحقيقة فيما بعد، على أن هذه الحقيقة التي اكتشفها هو في النصف الثاني من القرن العشرين، موجودةٌ في كتاب الله الكريم منذ أربعة عشر قرناً، سببَ إسلامِه، وهل يَقْدِرُ القرآنَ والإسلامَ حَقَّ قَدْرِها سوى أهلِ العلم والتحقيق!(١).

٢١) بيان أنَّ تكوُّن الحليب يَمُرُّ بكلٍ من مرحلتي الطعام المهضوم والدَّم:

كما بيَّن العليم الخبير ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل].

ومعنى الآية باختصار:

وإنَّ لكم أيها الناس في خلق الأنعام ـ الإبل والبقر والغنم والمَعِز ـ لعبرة تعتبرون بها، إذ نسقيكم من الذي في بطون تلك الحيوانات ـ أي من الأكل الذي أكلته والماء الذي شربَتْهُ ـ بعد استخلاصه من الأكل المهضوم والدم وتصفيته، حليباً خالصاً من الشوائب سهل المرور بحلوق شاربيه.

أجل، إن الحليب الذي نشربه يمرُّ تكوينُهُ عَبْرَ الأكل والعِلْف الذي يَنْهَضِمُ في بطن الحيوان، والدم الذي يتكوَّن منه، ومن ثمَّ فهو صُفِّي مرتين، مرة من (الفرث) أي الغذاء المهضوم في بطن الحيوان، ومرَّةً من (الدّم)، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾!!.

٢٢) عَسَلُ النَّحل فيه شفاءٌ للناس:

كما قال سبحانه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ

(١) وهذا العالم هو: (مستر براون) أحد رجال البحرية البريطانية، انظر: كتاب (آيات أسلم قارئوها) ص١١.

مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل].

وقد اكتشف العلماءُ المتخصِّصون والأطبّاء أن في عسل النَّحل خصائص دوائية وغذائية كثيرة[1]، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى الخاصية الدوائية للعسل حيث قال: «**عَلَيْكُمْ بِالشِّفَائَيْنِ: الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ**» (أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ برقم: (٣٤٥٢)، قَال ابن كثير فى تفسيره (٥٧٧/٢): هذا إسناد جيد، وَقَالَ البوصيرى: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، والحاكم برقم: (٧٤٣٥) وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين عن ابن مسعودٍ وصَحَّحَهُ، ووافَقَهُ الذَّهبي. والبيهقي برقم: (١٩٣٤٩) وقال: رَفْعُهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ وَالصَّحِيحُ مَوْقُوفٌ).

٢٣) بيت العنكبوت أضعف البيوت:

كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت].

وقد أظهرت البحوثُ والدراساتُ الخاصة بحياة العناكب، سِرَّ تسمية كتاب الله الحكيم بيتها بـ(أوهن البيوت)، وخلاصة ذلك:

أن بيت العنكبوت تسودُه فوضى عارمة، وتُحدِق به أخطارٌ داهمة، حيث تأكل الأُنْثى ذَكَرَها والفِراخُ أُمَّهما! ومعلوم أن كلَّ ما يمرّ ببيت العنكبوت ولو زائراً أو لاجئاً، يكون فريسة سهلة، إذْ ليس نسيج العنكبوت الذي تصْنَعُهُ من لُعابِها، إلّا فخّاً وكميناً منصوباً، وويلٌ لمن يقع في شَرَك العنكبوت الآكلة لكل شيء!

وإنما قال سبحانه تعقيباً على ذلك المثل: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]، لأن من لم يكن عالماً وعارفاً بما يجري في بيت العنكبوت، لا يفهم المثل المضروب كما ينبغي.

---

(١) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، ص ٧٦٧ ـ ٧٨٤، يوسف الحاج أحمد، (العَسَل).

٢٤) توضيح مراحل تكوُّن جنين الإنسان بدقة:

كما قال اللطيف الخبير جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

وتحدِّدُ هذه الآياتُ مراحِلَ تكوُّن الجنين إلى أن يكتمل نشؤه، وينفخ الله فيه الروحَ، في سبع مراحل متدرِّجة:

١) ﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أي خلاصة مُستخلصة منه، والمقصود بها هو الموادُّ المكوِّنة لماء الرجل والمرأة المُتَكوِّن بدوره من الدم، وهو يتكون من مهضوم الطعام والشراب، وهما بدورهما يرجعان إلى الطين (التراب + الماء)، ولهذا قال تعالى: ﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾.

٢) ﴿نُطْفَةً﴾ والنطفة في اللغة هي الماءُ الصّافي[1]، ولكن المقصود بها في كلام الله، هي: الخليّةَ المُتكوِّنة من (حَيْمَن) الرجل و(بويضة) المرأة.

٣) ﴿عَلَقَةً﴾ وسمِّيت العلقةُ علقةً، لأنها تُعلِّقُ نفْسَها في هذه المرحلة بجدار الرَّحِم.

٤) ﴿مُّضْغَةٍ﴾ وسمِّي الجنين مُضْغةً في هذه المرحلة، لأنه يشبه قطعة لحم ممضوغة.

٥) ﴿عِظَـٰمًا﴾ وفي هذه المرحلة ينشأ العظام، ويتكون الهيكل العظمي بكامله مُصغَّراً.

٦) (إكساءُ العظام باللحم) وفي هذه المرحلة التي هي المرحلة ما قبل الأخيرة، ينمو اللَّحم ويكسو الهَيْكَلَ العَظْمِيَّ.

٧) (إنشاءُهُ خَلْقاً آخر) والمقصود به هو نفخ الروح فيه، وبما أنَّ الروح شيءٌ مغايرٌ للمادة، حتى المادة الحية التي فيها الحياة، لذا سَمَّى

---

(١) المعجم الوسيط، ص٩٣١.

سبحانه تكوُّنَ الجنين في هذه المرحلة (خَلقاً آخر).

وجديرٌ بالذكر أَنَّ عِلمَ التشريح وخصوصاً (علم الأجنة) الذي أصبح الآن علماً خاصاً برأسه، لم يتوصل إلى معرفة مراحل تَكوُّن الجنين هذه إلَّا حديثاً.

وقد أقرَّ جهابذة علم الأجنّة المطَّلِعين على هذه الآيات والآيات الأُخَر المشابهة لها، أن فيها أدقَّ وصفٍ لمراحل تكوّن الجنين، والتي سمّاها سبحانه في آية أخرى (أطواراً) فقال:

١ ـ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح]، وفي آية أخرى (خلقاً من بعد خلق) كما قال تعالى:

٢ ـ ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر].

٢٥) تكوُّن الجنين داخِلَ بطن الأم في ظلمات ثلاث:

كما قال جلّ شأنه وعزّ اسمه ولا إله غيره: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزمر].

وقد فسَّر المفسِّرون القدامى الظلمات الثَّلاث، بـ(ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المَشيمة) ولكن هذا لا يوافق ظاهرَ الآية إلَّا بتكلّفٍ، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ. . .﴾، إذاً: فالظلمات كلُّها داخل البطن، والبطن لا يُحْسَبُ معها! ولما تطوّر علم الأجنة، اكتُشِفَ أنَّ (المَشِيمَةَ) نفسها تتكون من ثلاث طبقات وأسماء تلك الطبقات هي: (الغشاء الساقط Decidua، والغشاء الكوريوني Chrion، والغشاء الأمينوسي Amnion)[1][2].

---

(١) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي، ص ٩٨ ـ ٢١٤، (الجنين ونشأة الإنسان بين العلم والقرآن).

(٢) الطب محراب للإيمان، ج١، ص٨٠.

٢٦) سبب التذكير والتأنيث في الجنين ـ كسبب ظاهريّ ـ هو ماءُ الرَّجل:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم].

والنطفة وإن كانت تطلق على الخَلِيَّة المتكوِّنة من حيمن الرجل وبويضة المرأَة، ولكن هي في أصل اللّغة بمعنى الماء القليل، وههنا يقصد بها ماء الرجل، بدليل قوله تعالى: ﴿...إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾، أي: عندما تُقْذَفُ، وجَليٌّ أن مَنيَّ الرجل هو الذي يُقْذَفُ في رحم المرأة.

وقد وصلتِ التحقيقاتُ في مجال علم الأجنة أخيراً إلى هذه الحقيقة، إذ يقول المُتخصِّصون في هذا المجال:

إنّ في كلٍّ من منيِّ الرجل ومَنيِّ المرأَة ـ أي في الحيامِن والبويضات ـ توجَدُ ناقلات الوراثة (Chromosomes كروموسومات) التي تنقل صفات الأبوين إلى الجنين، وكروموسومات المرأةِ كلّها من نوع (X)، ولكن كروموسومات الرجل من نوع: (X) و (Y)، والكروموسومات المرموزة بـ(X) لا تَنْقُلُ فيما تنقل من الصفات إلّا الأنوثة، ولكن نوع (Y) تنقل فيما تنقل من الصفات الذكورة.

وبناءً عليه:

عندما يكون حيمن[1] الرجل المُتّحد مع بويضة المرأَة من نوع: (X) يكونُ جنس الجنين بإذن الله، وحسبما وضع من سنن: (أُنثى)، ولكن إذا كان من نوع: (Y) كان الجنين ذكراً، أي: (X + X = أنثى) و (X + Y = ذكر).

فالمسؤول عن جنس الجنين إذن ـ أي ذكورته وأُنوثته ـ هو مَنِيُّ الرجل فَحَسْبُ![2].

---

(١) حيمن، جمعه حيامن، مختصر (الحيوان المنوي).

(٢) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي، ص٩٩، ١٠٠.

٢٧) الإشـارة إلـى اختلاف بصمات أصابع النـاس وعدم تشابـهها:

كما قال العليم الخبير تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة].

والبنان هو رأس الأُصْبعُ[١]، وإنَّما حدَّد سبحانه (البنان) بأنه قادر على تسويته وإعادته مرة أخرى، لحكمةٍ ولسِرٍّ لا يوجد في غيره، والسّرُّ كما اكتشفه العلمُ حديثاً، هو أن لكل إنسانٍ بَصْماتِهِ[٢] الخاصة التي يُعرف بها وتميِّزه عن غيره من الناس، وإلَّا فإن العين والأذن والدِّماغ مثلاً، كل منها أشدُّ تعقيداً ونظاماً من البنَان ـ بالنسبة لنا ـ، ولكن للحكمة التي بيّناها، خصَّ سبحانه البنَانَ بالذِّكْرِ هنا من بين كل أعضاء بدن الإنسان[٣].

٢٨) الجِلْدُ هو مركز الإحساس بالحرِّ والبرد:

وهذا ما أشار إليه قولُ الله اللطيف الخبير جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾.

ومقصود الآية المباركة واضح، وهو:

أن الله تعالى سيُجَدِّدُ جُلود الكفّار كلما احترقت، كي يشعروا بالعذاب أكثر فأكثر، وذلك لأنَّ الجِلْدَ بعد احتراقه الذي تَحْترقُ فيه أيضاً مراكز الإحساس، يَقِلُّ شعورُ الكفّار بالعذاب والحرارة، لذا يبدِّلهم الله جلوداً غير جلودهم، أي يخلق لهم جلوداً أخرى لم تحترق منها مراكز الإحساس، كي يتجدَّدَ لهم الإحساسُ بالعذاب![٤].

ولهذا عقّب سبحانه على بيان تلك الحقيقة، بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وذلك لأن ذلك التعذيب الرَّهيب تقتضيه عِزَّته، كما أن ذلك التفنُّنَ فيه، من مقتضيات حكمته سبحانه وتعالى.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٧٢.
(٢) بَصْمات جمع بَصْمَة: أَثَرُ الخَتم بالأصبع، المعجم الوسيط، ص٦٠.
(٣) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي، ص ١٦٩ ـ ١٧٣، (البصمات وشخصية الإنسان).
(٤) المصدر السابق: ص١٥٤، ١٥٥. (الجِلْد).

وإطّلاعُ الناس على تلك الحقيقة ـ كون الجلد مركز الإحساس ـ تـمّ بعد أن قطع علمُ التشريح والطب أشواطاً كثيرة.

٢٩) لا يوجد أيُّ خَلَلٍ أو نَقْصٍ في شيءٍ من مخلوقات الله تعالى:

وهذه الحقيقة التي أكّدتها آياتٌ كثيرة في كتاب الله، وأشرنا إليها في أكثر من مناسبة لأهميّتها، أنا أعتبرها أهمَّ جانب من جوانب الإعجاز العلميِّ في كتاب الله العزيز المعجز، حيث يُصرّح كتاب الله الحكيم بِأبين العبارات بـأنَّه:

خلق الله الخَلْقَ كلَّه مجموعاً، وكلَّ مخلوقٍ فيه على حِدة، بِمُنتهى الحكمة والإتقان، ولا يستطيع أحدٌ مهما حاول وسعى وأتْعَبَ نفسَهُ في البحث والتنقيب، أن يَعثُرَ على أدنى خلل أو نقص في شيء من مخلوقات الله التي لا يُحصيها إلَّا بارؤها، ثم يُقرُّ العلماءُ المتخصِّصون في شتَّى فروع العلم بكل تواضع بأنه:

لا يوجد أي خلل أو نقص ولو بسيط، في شيء من المخلوقات، وأيّ خلل يراه المرءُ أو يتصوَّرُهُ، فمردّه إلى الجهل وعَدَم الإطِّلاع الكافي على أسرار الخلق وحِكَمِه، وعدم انتظام إدراكه هو[(١)]!

إذاً:

أوَ ليس هذا أعظمَ إعجازٍ في كتاب الله الحكيم، والّذي يجمع في طيّاته جوانِبَ لا تُعَدُّ ولا تُحصى من الإعجازات العلمية؟!

وهذه بعضُ الآيات التي تُصرِّحُ بتلك الحقيقة العظيمة أو تُلَمِّحُ إليها:

١ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ

(١) نقلنا في الفصل الأول من الكتاب الأول، إقرار أحد العلماء الغربيين بهذا الصّدد.

ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

٢ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

٣ ـ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

٤ ـ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ . . .﴾ [الأعلى: ١٨٥].

وقد تحدَّثْنا عن هذه الآيات في السّابق، لِذا نكتفي بالقول عنْها هنا:

تُعلِنُ هذه الآيات وتؤكّد بأن الله تعالى خلق خلقَه كُلَّه بإتقانٍ ونظامٍ تامٍ، وأنه لا يوجد خلل أو نقصٌ البتة في شيء منه.

وقد تحدّى سبحانه في الآيتين (٣و٤) من (الملك) جميعَ الخلق أن يَعثرُوا على أدنى خللٍ في خلقه، ثم أخبرهم مُسْبَقاً بأنّهم سيخيبون في مسعاهم ذلك، ولن يَجْنَوْا سوى التعب والكلال!

أَجَلْ، كما أن الله تعالى في مجال (أمره) تحدّى الجنَّ والإنس، أن يأتوا بسورة مثل إحدى سور القرآن، ثم أخبرهم مُسْبَقاً مُؤكَّداً بأنهم عاجزون من ذلك: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾، كذلك تحدّاهم سبحانه في مجال (خَلْقِه) لا أن يخلقوا شيئاً ولو جدَّ حقير ـ في نظرهم ـ لأن هذا ليس من شأنهم أصلاً، بل أن يسعوا بكل جهدهم للعثور على أدنى خلل أو نقص في شيء من مخلوقاته، ثم أخبرهم مُسبقاً ـ زيادةً في التحدِّي ـ بأنهم لا يُسعِدُهم الحَظّ في هذا المجال أيضاً كسابقِهِ.

وعليه:

فَهَلْ يوجد بُرهانٌ أعظم وأسطع وأقوى من هذا، على حقانية كتاب الله وإعجازه؟ كلاّ والذي له (الخلق) الذي لا نقص فيه، و(الأمر)

الذي تَمَّ صِدقُهُ وعَدْلُهُ، كما قال تعالى: ﴿...أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبهذا نختم الحديث عن الإعجاز العلميِّ في كتاب الله العليم، وننتقل إلى موضوع (الإعجاز البيانيِّ في القرآن العظيم) وهو الوجه العاشر والأخير حسب مُخَطَّطنا في هذا الكتاب، وإلَّا فلا آخر ولا نهاية لوجوهِ إعجاز كتاب الله العزيز.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١٠) الإعجــاز البيانــي

ونقصد به الطريقة الحكيمة البليغة التي روعيت في كتاب الله المبارك لإيصال المعاني والمقاصد إلى المخاطَبين، على أفضل وجهٍ وبأحسن عبارة.

وقد كتب علماؤنا رحمهم الله تعالى وأجزل ثوابهم، في هذا الجانب الكثير الكثير، سواءٌ منهم المفسِّرون الذين فسّروا كلامَ الله الكريم، أو العلماءُ المتخصِّصون الذين ألَّفوا كتباً خاصة في هذا المجال[١]، ومن التفاسير التي أوْلَتْ إبراز الجانب البياني في كتاب الله عنايةً خاصةً كل من:

١) (تفسير الكشّاف) لـ(جار الله الزَّمَخْشري) رحمه الله تعالى.

٢) (تفسير البيضاوي) لـ(القاضي البيضاوي) رحمه الله تعالى.

٣) (مفاتيح الغيب) لـ(فخر الدين الرازي) رحمه الله تعالى.

ومن التفاسير المعاصرة:

٤) (في ظلال القرآن) لـ(الشهيد سيِّد قطب إبراهيم) رحمه الله تعالى.

وقد ألّف (سيد قطب) كتاباً خاصاً أبرز فيه جوانب مهمّة في الجانب البياني لكتاب الله وهو: (التصوير الفَنِّي في القرآن الكريم).

---

(١) قلّما وجد تفسير، سواء لعلمائنا القدامى أو للمعاصرين، لا يُهْتَمُّ فيه بالجانب البياني، فهو قاسِمٌ مشترك بين التفاسير كلّها، ولكن التفاوت في نسبة درجة الإهتمام.

ونحن هنا سنشير إلى بعض المسائل المهمة في مجال (الإعجاز البياني) والتي يفهمها جمهور الناس، ونترك المسائل الفَنّيّة الدقيقة التي يصعب فهمُها أو يتعذَّرُ إلَّا على المتخصِّصين، وَمَنْ أراد التوسّع في هذا المجال فالمصادر والكتب كثيرة سواء لعلمائنا السابقين أو للمعاصرين، جزاهم الله تعالى أحسن الجزاء، على خدمتهم لكتاب الله الذي يستحق من أهل الإسلام أكثر وأكثر، إذ هو سَبَبُ عِزِّهم وسعادتهم في الدنيا، وفوزهم وفلاحهم في الآخرة.

والمسائل التي نُلْفِتُ الأنظار إليها، لتوضيح الإعجاز البياني في كتاب الله، هي المسائل الثلاث عشرة الآتية، والتي نتوخّى في عَرْضها الإختصار:

١) حكمة اختيار اللغة العربية للقرآن العظيم.

٢) وضوح المعنى مع عُمْقٍ لا يُدْرك غَوْرُهُ.

٣) غاية البلاغة والإيجاز، وما من كلمة بل حرفٍ، إلَّا وتحتها سِرٌّ أو أسرارٌ.

٤) استعمالُ كلِّ الأساليب التعبيرية.

٥) مَزْجُ المواضيع بعضها ببعضٍ، بدل توزيعها على أبوابٍ وفصولٍ.

٦) ضرب الأمثال لتصوير المعاني في قوالب محسوسة.

٧) تنويعٌ في البيان مع تجنّب التكرار.

٨) عَدَمُ هبوط الأسلوب من القمّة، واستمراره على وتيرة واحدة.

٩) كلّما تَدَبَّرتَ في القرآن وتعمَّقت، وجدت فيه المزيدَ من الأسرار والحِكَم.

١٠) جَرَسُ الألفاظ يَدلُّ على معانيها، في بعض الأحيان.

١١) لا يَخْلَقُ القرآن على كثرة الردِّ، ولا يَمَلُّ منه قارؤه.

١٢) الإعجازُ الخَطِّي في كتاب الله الحكيم.

١٣) الإعجازُ الصَّوتي في كلام الله المبارك.

ونبدأ مستعينين بالله الكريم، بالمسألة الأولى:

١) حكمة اختيار اللّغة العربية للقرآن العظيم:

أوَّلُ ما يَلْفِتُ النظر في موضوع الإعجاز البياني في كتاب الله الحكيم هو اختيار الله تعالى اللّغة العربية، من بين اللّغات، لتكون أداة تعبير عن كتابه الأخير ورسالته الخاتمة للإنس والجنّ، وقد ذكر سبحانه كون القرآن (عربياً) في آيات، هي:

١ - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف].

٢ - ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

٣ - ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر].

٤ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا(١) عَرَبِيًّا...﴾ [الرعد: ٣٧].

٥ - ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

٦ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه].

٧ - ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ...﴾ [فصلت: ٤٤].

٨ - ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت].

---

(١) المقصود بكلمة (الحكم) هنا هو الحكمة، أي: أنزلنا إليك حكمةً باللغة العربية، كما قال تعالى عن يحيى بن زكريا عليه السلام: ﴿...وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، أي: آتيناه الحكمة.

٩ ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف].

١٠ ـ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا...﴾ [الأحقاف: ١٢].

وفي آيتين أُخريتين، خاطب رسولَهُ ﷺ بأنه أنزلَ القرآن ويسَّرَهُ بلسانه:

١١ ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم].

١٢ ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى حكمةَ كَوْنِ القرآن مُنزَّلاً باللغة العربية، في ثلاثة أشياء:

أولاً: بما أنَّ محمداً ﷺ عربيٌّ، إذاً: لا بُدَّ أن يكون الكتاب الذي يُنْزَلُ عليه عربياً:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٤٤) من (فصلت):

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ...﴾.

وكذلك صرَّحت به الآية (٤) من (إبراهيم):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ أَجَلْ، بما أن الله الحكيم وقع اختيارهُ لحمل رسالته الخاتمة للجنّ والإنس على (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب..) ﷺ، ولذلك الإختيار حِكَمٌ كثيرة ليس هنا محلّ بحثها، وأشار إليها سبحانه بِقَوْله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ...﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وكان هو عربياً ووسط شعب عربيّ ويتحدّث بلغتهم(١)، كان من غير المعقول أن يكون القرآن بغير اللّسان

(١) وكون الأصل البعيد لنسب الرسول غير عربي، لا يُغيِّر من الموضوع شيئاً، أي: كونه عَرَبياً، وإلَّا فهو من جهة الأب يرجع إلى إبراهيم عليه السلام ومن جهة الأمِّ إلى هاجر رضي الله عنها وكانت مصرية، لأن إسماعيل هو جَدُّه البعيد، وأبواه: إبراهيم وهاجر، =

العربـيّ، ولـو كـان غيـر عربـيٍّ، لكـان للنـاس وخصـوصاً العـرب مجالٌ لـلإعتراض قائليـن: لـماذا أنزل قرآنٌ غيـر عربـي، علـى رسولٍ عربـي اللّسان؟! كما في الآية (٤٤) من (فصّلت).

ثانيـاً: لو أنَّ القرآنَ نزل على شخصٍ أعجميّ، لما كان كفّارُ العرب يؤمنون به:

وهذا ما صرَّحت به الآيتان (١٩٨ ـ ١٩٩) من (الشعراء):

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

إذاً: فمن جانب هناك داعٍ لكون القرآن عربياً، كما بيناه، ومن جانب آخر لـم يكن كونه أعجميـاً يُغيِّرُ من موقف الكفار شيئاً، بل لكفروا به حينذاك أيضاً، متذرِّعيـن بأنـه ليس بلغتهم.

وجديرٌ بالذكر أن كلمة (أعجميّ) في اللغة العربية، تعني: كلَّ مَنْ هو غيـر عربـي، من أيّ شعبٍ كان.

ثالـثـاً: إنَّ اللغة العربية لغـة واضـحة، ولـها مزايـا أهَّلَـتْها لأنْ تكون لغة كتاب الله الخاتـم:

وما يدلُّ على أنَّ هذه أيضاً من حِكَمِ إنزال الله كتابَهُ الحكيم باللغة العربية، هو تأكيد الله تعالـى في آياتٍ كثيـرة، على كون العربية هي اللُّغة التي نزَلَ بها القرآنُ ـ وقد ذكرنا تلك الآيات ـ هذا أولاً، وثـانياً: وصف الله تعالـى اللّسان العربـيَّ الذي أنزَلَ به كتابه بـ(مُبين)، في كل من الآية (١٩٥) من (الشعراء)، والآيـة (١٠٣) من (النّحل) حيث قـال:

= ومعلوم أن كلاً من إبراهيم وهاجر من غيـر العرب، كما جاء في (صحيح البخاري) رواية عن عبد الله بن عباس ﭭ، أنظر ص٥٩٨، رقم الحديث (٣٣٦٤)، حيث جاء فيه عن إسـماعيل ﮥ: «وشَبَّ الغُلامُ وتَعلَّم العربية منهم، وأَنْفَسَهُمْ وأَعْجَبَهُمْ حين شَبَّ، فلمّا أَدْرَكَ، زوَّجوه امرأةً منهم..».

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

﴿. . .وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وكَوْنُ اللُّغة العربية ذات مزايا وخصوصيات تَنْفَرِدُ بها عن بقية اللّغات، شيء واضح، سواء من جهة قواعدها ومفرداتها الكثيرة وبلاغتها، أو بعض المزايا الأخرى التي قَلَّمَا توجَدُ في لغةٍ أخرى وذلك، مثل:

التذكير والتأنيث في الضمائر والأفعال، ووجود (المُثَنّى)، ووجود الحركات بدل الحروف والكلمات والجمل، في كثير من الأَحيان.

ولا شك أن اللّغة العربية شُرِّفت تشريفاً عظيماً بجعلها لغة كتاب الله الخاتم الأعظم، ولغة نبيِّه الأكرم، ونورِهِ الأتم (محمد) المصطفى المبعوث للإنس والجن، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله أجمعين، من الصحب والأزواج والقرابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢) وضوح المعنى، مع عُمقٍ لا يُدْرَكُ غورهُ:

قال سبحانه وتعالى:

١ ـ ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [الحجر].

٢ ـ ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [النمل].

٣ ـ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان].

٤ ـ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود].

٥ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [(٢٢)، (٣٢)، (٤٠) القمر].

٦ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

يَصِفُ الله تبارك وتعالى كتابَهُ الحكيم، في كل من الآية (١) في (الحجر)، والآية (١) من (النّمل) والآيتين (١ ـ ٢) من (الزخرف) والآيتين (١،٢) من (الدخان)، بكونه (مُبيْناً) أي واضحاً جَلِيّاً، أو مُوضِّحاً مُبَيِّناً، وفي الآية (١) من (هود) يُعرِّف سبحانه كتابَهُ بأنه قد أُحكمتْ آياته، أي: أُتْقِنَ نَظْمُها وسَبْكُها، ثم وُضِّحَتْ معانيها وبُيِّنَتْ.

وفي كلٍّ من الآية (١٧و٢٢و٣٢و٤٠) من (القمر) يُعْلِنُ سُبحانه بأنَّه قد يسَّرَ القرآنَ وَسَهَّلَهُ للفهم والتذكّر به.

ومُلخَّص ما تدلّ عليه هذه الآيات، هو:

أن الله تعالى جعل قرآنه العظيم، واضحَ المعنى وجَليّاً، وكذلك جعله مَيْسور الفهم وسهلاً، لمن أراد ورَغِبَ أن يتذكّر به ويتّعظ.

وما وصف الله الحكيم به كتابَه الكريم، هو الواقع الذي يَلْمَسُهُ ويُعاينه كلُّ مَنْ تعامَلَ مع كتاب الله المبارك.

ولكن:

هل وضوحُ كتاب الله ويُسرُه للفهم والتذكّر، يَعْني أنه سطحيٌّ وغير عميق؟! كلاّ، لا يعني ذلك، ولهذا يُوَبِّخُ الله تعالى الناسَ على عدم التدبّر والتعمُّق في كتابه، كما في كل من الآية (٢٤) من (محمد)، والآية (٨٢) من (النّساء)، ويؤكّد سبحانه أن التدبر والتعمق في القرآن سيؤدِّي بالإنسان إلى اليقين بأنه كلام الله، وذلك بسبب ما يرى فيه ـ كلّما ازداد في التدبّر والتأمّل فيه ـ من انسجام بعضه مع بعض، وعدم وجود أي اختلال أو اختلاف فيه.

ولولا أن كتاب الله الحكيم عميقٌ عُمْقاً لا يُدرَك له غَوْرٌ، لما أكّد سبحانه على الناس في أكثر من آية، أن يَتَدبَّروه، ويتفكّروا فيه، ويتعمقوا فيه، كي يفهموه أكثر وأفضل!

وهذه الخاصَّةُ[1]: الوضوحُ الشديد مع العُمْق الكثير، ينفرد بها كتاب الله، بل هي معجزة برأسها، وذلك لأننا عندما نتأمل كلام البشر نراه بِمجموعه ينقسم إلى قسمين:

إمّا أنه دقيق قَلمَّا يفهمه سوى الخواص من الناس، أو أنه سهل المعنى وواضِحُ العبارة، يُفيد العامّة، ولكن قلّما يستمتع به الخواص.

ولكنَّ كتابَ الله المعجز، يفهمه عامَّةُ الناس، كلٌّ بِقَدَرِهِ، ثم لا يقدر الرّاسخون الـمُتَبَحِّرون في العلم أن يبلغوا مداه، أو يُدْرِكوا غَوْرَهُ.

ولنضرِبْ لذلك مثلاً:

فَسورة (الإخلاص) المباركة المختصرة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾
﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ
يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾، يفهم منها العامِّيُّ ما يحتاجه من معرفة تنزيه الله تعالى وتوحيده، ولكن في الوقت نفسه لا يستطيع عالِمٌ مهما بَلَغَ عِلْمُهُ، أن يدَّعي بأنَّهُ لم يبق شيءٌ من أسرار هذه السورة المباركة، لم يعلمه.

ومن مارس التدبُّرَ والتعمُّق في آيات الله البيِّنات، أَيْقَنَ أَنَّ ما قلناه هو من البديهيات التي لا تحتمل الأخذ والرد.

وحكمة ذلك:

أن الله تعالى أنزل كتابه الكريم نوراً وهدى للناس كلِّهم، عوامِّهم وخواصِّهم، إذاً: لا بُدَّ من أن يجد الكلُّ فيه ضالَّته، وما هو بمسيس الحاجة إليه، ثم أن يبقى فيه من الأسرار والحِكَم، ما يَسَعَ أهل الأرض كلَّهم - جنّاً وإنساً - على مرِّ الدهور وكرِّ العصور، بل ويَفْضُلُ عنهم جميعاً كي يكون المحيطُ الوحيدُ بكلّ أَسرارِهِ، هو قائله الذي ليس كمثله شيء، تبارك اسمه، وتعالى جِدَّه، ولا إله غيره.

(١) خاصّة الشيء: ما يَخْتَصُّ بهِ دون غيره، ج خواصّ، المعجم الوسيط، ص ٢٣٨.

٣) غاية البلاغة والإيجاز، وما من كلمةٍ بل حرفٍ، إلَّا وتحتها سِرٌّ بل أسرار:

قال الله سبحانه وتعالى:

١ ـ ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف].

٢ ـ ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام].

يَصِفُ الله تعالى في هاتين الآيتين، كتابَهُ بأنه:

١) ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٢) ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾.

والمقصود بـ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ هو: بما أن الله تعالى وضع كلمات كتابه بعِلْمِهِ المحيط وحكمته البالغة، لذا لا يَقْدِرُ أحدٌ ـ من جهة العقل والدليل ـ أن يغيِّر حرفاً في آية من آيات كتاب الله، أو أَنْ يُبَدِّلَه بآخر.

وسبب هذه الحالة التي هي من خصائص كتاب الله الحكيم:

أن كتابَ الله، كلماتُه كُلُّها تامة من حيث الصدق ومن حيث العدل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾، وذلك لأن الكلام عموماً، إما خبرٌ وإما حُكْمٌ، وخَبَر الله تامُّ الصدق لا خُلف فيه أبداً، وحُكْمُه تامُّ العدل لا جور فيه مُطلقاً، والكلام التام لا يمكن التدخُّل فيه بالزيادة أو النقصان، لأن أي تدخل فيه بأيِّ وجهٍ كان، يُحَوِّلُهُ من التمام إلى النقص والخلل.

هذا من حيث المبدأ، وأمّا من حيث التطبيق، فلا يَسَعُ مجالُنا هذا الخوضَ في التفصيل، ثم بما أنَّ كتابَ الله كلَّه في درجة واحدة، فمن الصَّعْبِ اختيار آية، أو جملة لهذا الغرض، ولكن على أيٍّ، سآتي بِمثالٍ واحد فقط، هو:

أَن الله تعالى استعمل أسلوب (القَسَم) لتأكيد كلامِهِ في مواضع كثيرة، والقَسَمُ لِتأكيدِ الكلام للمخاطَبِ، أسلوبٌ شائع في كل لغات العالم، ولكن اللاّفت للنظر في هذا المجال أن الله تعالى مع أنَّ كل أقسامه[1] عظيمة وحكيمة لَم يُنَبِّهُ إلى عظمة إقسامِهِ[2]، إلَّا في موضع واحد فَحَسْبُ، وذلك في الآيات (٧٥ إلى ٨٠) من (الواقعة):

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة].

فما هي حكمة هذا التنبيه الوحيد في هذا الموضع، يا تُرى؟!

الحكمة ـ حسبما أرى والله هو العليم الحكيم ـ هي:

أن الناس في زمن نزول القرآن وبعده بقرون كثيرة، ما كانوا يعرفون وَضْعَ النُّجوم ومواقعها، كما نعلم نحن الآن، بعد اختراع المناظير (التلسكوبات) واكتشاف أسرار النجوم والمجرّات، بل كان الناس يتصوروّن أن السماء ليست سوى قُبَّةٍ وسَقْفٍ، كسقفِ البيت أو الخيمة بالنسبة للأرض وليست النجوم سوى مصابيح صغيرة، نُصِبَتْ فيها!

ولهذا نَبَّهنا الله الحكيمُ على عَظَمَةِ إقسامِهِ بمواقع النُّجوم، أي: أماكنها وطرقها ومداراتها التي تتحرَّك فيها، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾، أي: إن هذا القَسَمَ قَسَمٌ عظيم، لو يكون لكم علمٌ بمواقع النُّجوم وأسرارها، والآن في عصرنا الراهن، بعد أن اطَّلعنا على شيءٍ من أحوال النجوم والمجرّات التي تُشَكِّلها، نُدْرِكُ شيئاً من عظمة ذلك القسم الرباني!

(١) أقسام: جمعُ (قَسَمْ) المعجم الوسيط، ص٧٣٥.
(٢) إقسام: مصدر (أَقْسَمَ يُقسِمُ إقساماً) المعجم الوسيط، ص٧٣٥.

وأختم هذا الموضوع بقولي:

أَوَليس هذه معجزةً عظيمةً، ألَّا يستطيعَ أحدٌ بعد مُضِـيٍّ قرابـة أربعة عشر قرناً ونصف قرن، على بداية نزول القرآن، أَنْ يُغيِّر كَلِمَةً بل حرفاً من كتاب الله، بكلمةٍ أخرى أو حرفٍ آخـر[1]!

٤) استعمالُ كلِّ الأساليب التعبيرية:

ما من أسلوبٍ من أساليب التعبير الـمتَنوِّعة، إلَّا واستعملها كتاب الله المبارك لبيان مقاصده، ولكن بالصورة اللائقة به، وذلك لكي لا يبقى مدخلٌ ومَنفَذٌ في النفس، إلَّا ويدخلها منه كتابُ الله، إذ من الناس من يؤثر فيه أسلوب الترغيب، ومنهم من ينتفع بالترهيب، ومنهم من تكفيـه الإشارة والتلويح، ومنهم من لا بُدَّ لَهُ من التوضيح والتصريح، ومنهم مَنْ يُعْجَبُ بضرب الأمثال، ومنهم من يتأثر بالقصص القصار والطِّوال.. وهكذا.

وهذه الآيات أمثلة للأساليب المتعدِّدة التي استعملت في كتاب الله الحكيم لبيان التوحيد وأَهَميَّته، وفظاعة نقيضه، الذي هو الشرك بالله تعالى وخطورته:

١ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

٢ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

(١) ولا أقصد هنا عدم استطاعة أحدٍ تحريفَ القرآن، فهذا موضوع آخر، بل قصدي أن أحداً لا يستطيعُ ـ طالـما يحترم مقرّرات العقل ـ أن يقول: ليت الكلمة الفلانية في الآية الفلانيـة في السورة الفلانيـة، كانت مكانَها هذه الكلمة! ومن كان في رَيْب فليجرِّب نَفْسَه، ولو سِرّاً وبينه بين نفسه، كي يرى النتيجة التي قلنا!

٣ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف].

٤ ـ ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج].

٥ ـ ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام].

٦ ـ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم].

٧ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

٥) مَزْجُ المواضيع بَعْضِها ببعضٍ، بَدَل توزيعها على أبواب وفُصول:

أنزل الله الحكيمُ تبارك وتعالى كلامَه المبارك، بديعاً فَريْداً في كل شيء ومن كل النواحي، وإذا كان المعهود والوَضْعُ التقليديُّ عند الناس في وضع الكتب وتأليفها، هو: جعل محتويات الكتاب ومواضيعه[1] موزَّعة على أبواب وفصول ومباحث... إلخ، فقد اخْتار ربّ العالمين أسلوباً فريداً لكتابه الحكيم من هذه الناحية ـ كبقية النواحي ـ أيضاً، حيث مَزَج الموضوعاتِ ببَعْضِها البَعْضَ، فتجد موضوعَ الإيمان بالله تبارك وتعالى بجنب موضوع الإنفاق في سبيل الله، وموضوع الجهاد، بجنب التقوى والعبادة، ولنضرب مثلاً للتوضيح:

(١) مواضيع، جمع (موضوع)، وهذه غير كلمة (مواضع) التي هي جمع (موضع) أي المكان.

لو نظرنا إلى سورة (البقرة) مثلاً، سنجدُ أنَّ من الآية (١٧٢) إلى (١٩٦) والتي تبدأ الآية (١٧٢) بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ...﴾، وتُخْتَمُ الآية (١٩٦) بقوله تعالى: ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، اشتملت على خمسة عشر موضوعاً رئيسياً متنوِّعاً، وأما الأحكام التفصيلية فكثيرة جداً، وهذه هي عناوين تلك المواضيع الخمسة عشر، في طيِّ خمسٍ وعشرين آية مباركة فقط:

١ ـ الأمر بالأكل من الطيِّبات، والشكر لله تعالى: الآية (١٧٢).

والأمر هنا يُفيدُ الإباحَةَ.

٢ ـ بيان اللحوم الأربعة المحرَّمة، واستثناء المضطّر من الأكل منها: الآية (١٧٣).

٣ ـ بيان أن الكاتمين لحقائق كتاب الله المنزَّل تنتظرهم عاقِبَةٌ وخيمة وعقوبة أليمة، الآية (١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٦).

٤ ـ تعريف البِرّ والبارِّ بسبع عشرة خصلة أساسية: الآية (١٧٧).

٥ ـ بيان حكم القتل العمد، وحكمة ذلك الحكم: الآيتان (١٧٨ ـ ١٧٩).

٦ ـ بيان حكم الوصية وحُرْمَةِ تبديلها، وجواز الإصلاح فيها: الآيات (١٨٠ ـ ١٨١ ـ ١٨٢).

٧ ـ بيانُ وجوبِ الصِّيام (صيام شهر رمضان): الآيات (١٨٣ ـ ١٨٤ ـ ١٨٥).

٨ ـ موضوع الدعاء وكيفيته وثمرته: الآية (١٨٦).

٩ ـ بيان كيفية الصيام وكيفية تعامل الزوج مع زوجته في ليلة الصيام ونهاره، وحين الإعتكاف: الآية (١٨٧).

١٠ ـ النهي عن أكل مال الغير بالباطل، بدفع الرشوة إلى القاضي: الآية (١٨٨).

١١ ـ الجواب عن سؤال يتعلق بالأهلّة: الآية (١٨٩).

١٢ ـ بيانُ جوازِ ووجوبِ قتال مَنْ يقاتِلُ المسلمين، وحُرْمَة التعدِّي: الآيات (١٩٠ إلى ١٩٤).

١٣ ـ بيانُ وجوبِ إنفاق المال في سبيل الله (أي الجهاد المالي): الآية (١٩٥).

١٤و١٥ ـ بيانُ وجوبِ إتمام الحج والعمرة بعد الشروع فيهما، ما لم يكن هناك عذر مانع: الآية (١٩٦).

وأما ما هي حكمة ذلك الأسلوب الفريد البديع؟!

فأرى ـ والله تعالى هو العليم الحكيم ـ أنَّ هناك ثلاث حِكَم في اختيار ذلك الأسلوب:

١ ـ أن كتاب الله الحكيم هو منهاج الحياة، لذا يجب أن يكون مطابقاً للحياة[١]، والحياة تمتزج فيها المسائل وتتشابك فيها الأوضاع والأحوال، فالأكل يعقبه الصيام، والمعاملة بجنب الصلاة، وفي خِضَمِّ الحياة يجب البرُّ والإنفاق، والموت يأتي فجأةً، فتأتي الوصية قُبَيْلَها، والدعاء غذاء الروح ودواؤها دوماً.. وهكذا، فأنزل الله الحكيم كتابه الكريم ممتزجة أحكامُه وتعليماته ببعضها البعض، كما هو واقع حياة البشرية، في أحداثها ونشاطاتها المتنوِّعة المختلطة.

٢ ـ بما أن كتاب الله في الوقت الذي هو منهاج وشريعة للحياة ـ فرداً وأسرة ومجتمعاً ـ كذلك هو هداية للإنسان كفردٍ في ذاته، ثم الهداية التي تَنْمو وتتكاملُ عَبْرَ المعرفة والإيمان والعبادة والتزكية والتقوى والخلق الحسن.. هي للروح والقلب بمثابة الغذاء للجسد، وَجَليٌّ أنَّ الجَسَدَ لا يمكنه الإكتفاءُ بنوع وعنصر واحدٍ، من أنواع وعناصر الغذاء كالمواد البروتينية مثلاً، بل لا بدّ من أن يكون متنوِّعاً ومكتمل

(١) وقد نَبَّهَ الشهيدُ سيّد قطب ـ رحمه الله ـ على هذه النقطة في (في ظلال القرآن).

العناصر حتى يُشْبِعَ الجَسَدَ وينمو به، فتوجد فيه: البروتينات، والدهنيات، والنَّشويات، والفيتامينات.

وكذلك الهداية الربانية التي هي غذاء الروح والقلب ودواؤه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، يجب أنْ تكون مكتملة العناصر، كي تُشْبِعَ الروحَ، وتُطَمْئِنَ القلب من كل الجوانب، وبما أن الإنسان لا يمكنه أن يقرأ القرآنَ كلَّه مرةً واحدة، في وقت واحد وفي حالة واحدة، كي يتغذّى قَلْبُهُ بكل ما فيه من عناصر الهداية، لذا جعل سبحانه كلَّ سورةٍ من سُوَر القرآن المباركة، وَجْبَةً غذائية متكاملة العناصر للروح، ثم لكلٍّ منها طَعْمٌ ومذاقٌ خاص، ومُستوىً مُعيَّن، كي تكون في مجموعها وجباتٍ متنوِّعة كافية ووافية وشافية!

٣ ـ ليس بإمكان المسلمين أنه يحفظ كلٌّ منهم كتابَ الله كلَّه، كي يتلوه ليل نهارٍ في صلواتِهِ المفروضة والمسنونة، ويستنير بأنواره عقلُهُ وَقَلْبهُ وروحهُ، ويأخذ منه الحقائق المعرفية والإيمانية، والأحكام الشرعية، والحِكَمَ الأخلاقية، فتتزكىّ به نَفْسُهُ، ويكتسب التقوى، وينالَ الفلاح الدنيوي والأخروي، ولهذا وحتى يسع كتابُ الله الناسَ كُلَّهم بمختلف مستوياتهم، جعل سبحانه كلَّ سورةٍ من سور القرآن المباركة وكأنّها قرآنٌ برأسه، لما تحتوي عليه من الحقائق والتوجيهات الربانية، ثم كرَّر سبحانه الحقائق الإيمانية والدينية الأساسية في كل السّور تقريباً، ولكن بصيغ متعدِّدة مُتنوِّعة، وذلك كي يحصل المسلمون كلُّهم، حتى الذي تَمَكَّن من حفظ سور قلائل، على الهداية الربانية اللازمة لحياتِهِ، والمُغَذِّيَة لروحه ـ كلّ بِحَسْبِهِ ـ.

وهذه الحقيقة التي ذكرناها تَوّاً، مُتَجلّية جِداً في سورة (الفاتحة) المباركة التي سمّاها رسولُ الله ﷺ أعظم سورة في القرآن، كما جاء في هذا الحديث الذي رواه البخاري:

«عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآن قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟**» فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! إنَّكَ قُلْتَ: «**لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟ قَالَ: «الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**» (أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٦٤٧)).

وهذه هي الحكمة في جعل رسول الله ﷺ قراءة (الفاتحة) فرضاً في كلِّ صلاة، بل في كل ركعة منها[(١)].

حيث جمعت هذه السورة المباركة باختصار كل الحقائق الأساسية التي هي بمثابة الفهرس والعناوين الكلِّية لموضوعات ومحتويات سائر السور المباركة، وقد وضَّحنا هذا الموضوع في: (قصة تأليف هذه الموسوعة)[(٢)].

وسورة (الفاتحة) ليست مختصَّة بما ذكرنا، وإنَّما أشرنا إليها كمثال فَحَسْبُ، وقد نبَّهَ رسول الله ﷺ عَلى ما لبعض الآيات والسور المباركة من مكانة خاصَّة، وذلك تشجيعاً منه للمسلمين أن يحفظوها ويُعْنَوا بها عناية خاصّة، وهذه إشارة إلى بعض تلك الأحاديث الشريفة المنوِّهة ببعض الآيات والسور المباركة:

١ ـ «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٨٦٠)، عَن أَبِي هُرَيرَة ﷺ)).

٢ ـ «عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: الله لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٥٥٦)).

---

(١) «عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (٧٥٦).

(٢) في المجلَّد الأول المحتوي على الكتاب الأول: (الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق).

٣ ـ «مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخرِ سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٠٠٨)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٨٠٨) عن عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه).

٤ ـ «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تَعدلُ رُبعَ القرآن» رَوَاهُ التِّرمذيُّ برقم: (٢٨٩٤) عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وَصحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) برقم: (٥٨٦).

٥ ـ «عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥٠١٣)، وروى مُسْلِم مثله عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه).

٦ ـ «عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: أَلم تَرَ آيات أنزلت عَلَيَّ هَذهِ اللَّيلَةَ لَم يُرَ مِثْلَهُنَّ قطّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٥٥٨)).

٦) ضرب الأمثال لتصوير المعاني في قوالب محسوسة:

ضَرْبُ الأَمثالِ أحدُ أساليب التعبير التي استعملها كتابُ الله الحكيم، وحكمة ضرب الأمثال هي: توضيحُ المعنى وتجليته بأحسن صورها، لأن ضرب المثل يصوِّر المعنى والفكرة المجرّدة، في صورةٍ محسوسة يتصورها الذهن ويتخيَّلُها، ولا شك أن هذا له دور كبيرٌ في إيضاح المعنى، وإيصاله لكافة المستويات من الناس.

وقد أَوْلى كتابُ الله ضَرْبَ الأمثال عنايةً خاصة، إذ قَلَّما يوجد مقصد من المقاصد المهمّة والأساسية التي أراد الله توضيحَها للبشر، إلَّا وضرب له كتابُ الله مثلاً أو أكثر، وهذه أمثلة من أمثال القرآن العظيم، كلُّ مثالٍ لتوضيح مَقصِدٍ من مقاصده الأساسية:

أولاً: الفرق بين المؤمن الموحِّد لِرَبِّـه، والكافر المشرك به:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر].

ثانيـاً: حال ومـآل الذين يتخذون غيـر الله أولياء:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت].

ثـالـثـاً: صفة كلمة التوحيد المباركة، وكلمة الشرك الخبيثة وآثارهُما:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم].

رابعـاً: صفة الحق والباطل، وعاقبتهما:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد].

خامساً: حالة المنافقين البائسة في الدنيا، وعاقبتهم التعيسة في الآخرة:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟

فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

سادساً: حال المنفق مالَهُ رياءً، وحال من ينفق مالَه مُخْلِصاً لله تعالى:

﴿... يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة].

سابعاً: عاقبة أعمال أهل الكفر الحسنة في الآخرة، والتي تذهب أدْرَاجَ الرياح:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم].

وقد تحدثنا عن هذه الآيات في السابق، وسنتحدث عنها في مناسبات ستأتي.

٧) تنويعٌ في البيان، مع تجنُّبِ التكرار:

أحد أساليب القرآن البيانية، هو التنويعُ في كيفية عَرْض المعاني والتعبير عنها بطرق متعدِّدة، وذلك لكي يَتَبَيَّن المقصودُ بها بأفضل الصور، وقد يَحْسَبُ بعضُ من لا يتدبَّرون كتابَ الله الحكيم، ذلك التنويع تكراراً وخصوصاً في مجال القصص، ولكنَّهم مُخْطِئون في ذلك، وإنّما هناك تنويعٌ في التعبير.

وما من فكرةٍ أو قصة عُرِضتْ في أكثر من سورة أو موضع، إلَّا والعَرْضُ الجديد يحمِلُ في طيّاتِهِ الجديدَ من الحِكَمِ والأحكام والحقائقِ.

وهذه بعض الآيات التي ذكر الله تعالى فيها مسألة التنويع في البيان:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء].

٢ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف].

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء].

٤ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام].

ومعنى التصريف هو التنويع[1]، والمقصود بـ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي كل معنى بديع رائع، وكأنه مَثَلٌ مضروبٌ في وجازته وإفادته وبلاغته.

ولكن هناك بعضُ التعابير العظيمة الحاوية على مقاصد ومعاني جليلة اقتضت حكمةُ الله تعالى تكرارها لفظاً ونصاً، وذلك كاستثناء من القاعدة التي ذكرناها، وهذه أمثلة من تلك التعابير:

(١) تكرار: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ على لسانِ كلٍّ من: (نوح، هود، صالح، شُعيب) في الأعراف ـ ٥٩ ـ ٦٥ ـ ٧٣ ـ ٨٥، وكذلك في (هود) ـ ٥٠ ـ ٦٢ ـ ٨٤، على لسانِ كلٍّ من: (هود، صالح، شُعيب) ـ عليهم السلام ـ، وفي (المؤمنون) ـ ٢٣ ـ ٣٢، على لِسان (نوح) ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ ونبيٍّ آخر، لم يذكر اسمُهُ.

(٢) تكرار ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ على لسان

(١) المعجم الوسيط، ص٥١٣.

كلُّ من: (نوح، هـود، صالح، لـوط، شـعيب) ـ عليهم السلام ـ، فـي (الشـعـراء) ـ ١٠٦ إلى ١٠٩ و١٢٤ إلى ١٢٧ و١٤٢ إلى ١٤٥ و١٦١ إلى ١٦٤ و١٧٧ إلى ١٨٠.

٣) تكرار: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ في (الرحمن) (٣١) مرة.

٤) تكرار: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ فـي (القـمـر) ـ ١٧و٢٢و٣٢و٤٠ ـ أربع مرّات.

٥) تكرار: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ في (المرسلات) عشر مرات.

وكمثال للقصص التي ذكرت في كتاب الله في أكثر من سورة، وأكثر من مَرَّة، نشيرُ إلى قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإسْجادِ الله الحكيم الملائكة الكرام له تكريـماً وتبجيـلاً، وعصيان (إبليس)، ولَعْنِ الله تعالى إيّاه وَطَرْدِه من السماء، حيث وَرَدَتْ سبع مرات في سبع سورٍ، هي:

١) البقرة: الآيات (٣٤ إلى ٣٩).

٢) الأعـراف: الآيات (١١ إلى ٢٥).

٣) الحجـر: الآيات (٢٨ إلى ٤٤).

٤) الإسـراء: الآيات (٦١ إلى ٦٥).

٥) الكـهف: الآية (٥٠).

٦) طـه: الآيات (١١٥ إلى ١٢٧).

٧) ص: الآيات (٧١ إلى ٨٥).

ولكن كل مرة لـها طابعٌ خاص، وفيها حِكَمٌ وأَسْرار، كما بينّا ذلك في الفصل الثالث من الكتاب الأول، وكذلك القصص الأخرى، وان وردت في سور متعدّدة، فلا يعتبر تكرُّر ورودها تكراراً بالـمعنى الـمعهود لكلمة (تكرار)، بل هو تنويعٌ في العَرْض، وكُلُّ عرضٍ له طـابِعٌ خاص ومذاق مُميَّز، يقتضيه سياق السورة التي وردت فيه.

٨) عَدَمُ هبوط الأسلوب من القِمَّة، واستمراره على وتيـرة واحدة:

وهذه أيضاً خاصَّةٌ أخرى من الخواصِّ التي يـمتازُ بـها أسلوبُ البيان القرآني، إذ كلُّ مَنْ يتذوق ولو قليلاً من أساليب التعبيـر والبيان، يَعْرِفُ أَنَّ القرآنَ العظيم كُلَّهُ، في أَرْقى درجات سُلَّم البيان والبلاغة وسُموِّ التعبيـر، وواضحٌ أن هذا النوعَ من البيان، لن يَتَأَتَّى من غيـر الله تبارك وتعالى أبداً، وذلك لأن البَشَر تختلف درجات البيان والتعبير عندهم، تَبَعاً للحالات النفسية والمزاجية المختلفة التي تَعْتورُهم صعوداً وهبوطاً، وكلُّ من يقرأ بإمعانٍ نِتاجَ الكُتّاب والمؤلِّفيـن، يعلم هذا بوضوح، وأمّا الذين يـمارسون فنّ التعبيـر والبيان بأنفسهم، فيعلمونه بصورة أوضح.

ومن البيِّن أنَّ اختلافَ أسلوبِ البيان بين السور المكية والسُّور المدينة لا يُعَكِّر صَفْو هذه الخصيصة التي نتحدَّث عنها، وذلك لأن طبيعة المواضيع والجوانب التي تناولها السورُ المكية، والتي تدورُ عموماً حول محاور ثلاثة:

١) التوحيد: بـمعناه الشامل لخالقية الله وربوبيَّته ومالكيتِهِ وألوهيَّته وأسمائه وصفاته.

٢) النبـوَّة والوحـي.

٣) القيامـة والجـزاء.

أجل طبيعـة هذه المواضيع الإيمانية والجوانب الأساسية من دين الله الحق، تَخْتَلِفُ عن طبيعـة المواضيع والجوانب التي تتناولُـها السورُ الـمدنية، والتـي هي عموماً تدور فـي فَلَكِ التشريع والحُكْم وبيـان الأحكام، والحكمة تقتضي تخصيصَ كلِّ موضوعٍ وكل مجالٍ بِلُغَتِـهِ الخاصة، وأسلـوبه الخاص الأكثر انسجاماً مع طبيعته.

ومن الجليِّ أن الكلام مع الناس لإيقاظهـم من نوم الغفلة عن الله تعالـى، وعن المصيـر الحتمي الذي ينتظرهـم، غيـر الكلام معهـم ـ بعد إيـمانـهـم واهتدائهـم ـ لكيفية تنظيم أمور معاشهـم، وحَلِّ المشاكل التـي تعترضهـم في خِضَمِّ حياتـهم الإسلامية.

ولـهذا خاطب الله الحكيم البشر في المرحلة المكيـة، بـمثل قوله:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ
مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ
﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا
خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

ولكن في المرحلة المدنية خاطبهم بـمثل قولـه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ
﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ
كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ
أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ
عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ
أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ
نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات].

٩) كلّما تدبَّرتَ في القرآن وتَعَمَّقْتَ، وجدت فيه المزيد من الأسرار والحِكَم:

وهذه أيضاً خَصِيصَةٌ عجيـبة أخرى، انفرد بـها كتابُ الله العزيز الـمعجز، إذ كلامُ البشر على خلاف هذا، كُلَّما تدبَّـرَهُ الإنسانُ، ودقّق فيه النَّظَرَ، وجد فيه خَلَلاً، واكتشف فيه أخطاءً.

وهذا هو السرُّ في أن الله تعالى يأمر الناس مراراً، ويؤكِّد عليهم في أكثر من آية، أن يُطيلوا التفكيـرَ والتدبُّـرَ في كلامه، إذ يعلم سبحانه أنَّ كتابَه الكريم مـملوءٌ بالأسرار والأنوار والحِكَمِ والأحكام، كالبحر الزاخر بـاللّآلـيءِ

والـدُّرَر، ولكن هل يَعْثُرُ على لآليءِ البحر ودُرَرِه، إلّا الغوّاصون الذين يغوصون في أعماقه؟!

وهذه الخصيصة ـ والله الذي لا ربَّ سواه ـ لَتُعَـدُّ معجزةً في حدِّ ذاتـها في كتاب الله المبارك، إذ يَحِقُّ لنا أن نتساءَلَ هنا:

أو يجرؤُ أحدٌ من البشر أن يطلب من الناس كلِّهم، ويُلِحَّ عليهم مؤكِّداً مرّات ومرّات، أن يتأمَّلوا كتابَه أو كلامَه ويَتَدبَّروا فيـه، ويُخْبرهم مُسْبقاً: بأنهم مَهْما تأَمَّلوه وتَدبَّروه، لَمْ يَجِدوا فيه إلّا الصـدق والعدل والحق والخيـر، واقتنعوا أكثر فأكثر، بأنـه لا يوجدُ فيـه أيُّ تنـاقضٍ أو خلـلٍ أو نقصٍ؟!

كلاّ والله ما جرؤ أحد على مثل هذا قطّ، ولا يَجْرَؤُ أحَدٌ أبداً، اللَّهمَّ إلَّا من لا يحترم عقلَهُ، ولا يبالـي ما يقالُ بعد افتضاحِهِ، من جرّاء انكشافِ عُـوارِ كلامِـهِ واعوجاجه وأخطائه!

وهذه بعض الآيات التي يأمر الله تعالى فيها عبادَهَ، بتدبّر كلامِهِ والتعمّق فيه، ويخبـرهـم بأنه متى ما كان تدبُّرهـم فيه أكثر وأحسن، وكانوا أرجح عقلاً وأرسخ علماً وأوسع معرفةً، فسيقتـنعون بـحقانيّته واستقامته، وعدم وجود أيّ خللٍ أو نقصٍ منه، أكثر فأكثر.

فَلْيَتسـلَّحوا إذن بأرجح ما يـمكنهم من عقلٍ ولُبّ، وأغْزرِ ما يتيسَّرُ لهم من علمٍ ومعرفةٍ، لكي يستفيدوا من كتاب الله أكثر:

١ ـ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

٢ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

٣ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

٤ ـ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

٥ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة].

٦ ـ ﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت].

٧ ـ ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد].

٨ ـ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ].

٩ ـ ﴿. . . وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ. . .﴾ [آل عمران: ٧].

١٠ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا. . .﴾ [الكهف: ١، ٢].

١٠) جَرسُ الألفاظ يَـدُلُّ على معانيها في بعض الأحيان:

وكذلك هذه خَصيصَةٌ أخرى من خصائص الأسلوب البيانيِّ في كتاب الله الحكيم، حيث يُساعدُ ظاهِرُ بعض الكلمات، وجَرسُ التلفُّظِ بها، القارِيءَ المتأمِّلَ على فهم معانيها ويُشْعِره بمقاصدها.

وهذه أمثلة للتوضيح:

أولاً: شبَّه الله تعالى الإنسان الضالّ عن هدايته، بِمَنْ يصعد ويَعْرُج إلى السماء، تصويراً لصعوبة الإهتداء عليه، فقال:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام].

وجرسُ كلمة (يَصَّعَّدُ) يُشيرُ إلى معناها، وهو صُعوبة الصُّعود إلى السماءِ، وكلمة (يصَّعَّدُ) هي في الأصل (يَتصعَّدُ) ولكن أدغمت التاءُ في الصّاد، لتصوير معناها بجرس لفظها.

ثانيـاً: وَبَّـخَ الله العزيز الحكيم المتثـاقلين عن الجهاد والقتـال في سبيل الله قائـلاً لـهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ...﴾ [التوبة: ٣٨].

وهـا هنا يشير جرس لفظ (اثَّـاقَلْتُمْ) الذي كان في الأصل (تثاقلتم) فأدغمت التـاءُ فـي الثاء واجتـلبت له همزة الوصل، يصوِّر التلفُّظ به حال أولئك الـمتثـاقلين بلصوقهم بالأرض وصعوبة رفعهم عنها، كشيء ثقيل يصعب حمله ورَفْعُهُ!

ثالـثاً: يقول سبحانه وتعالـى على لسان نَبيِّـهِ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في جواب الملأ المستكبرين من قومه، الذين رفضوا دعوته، بذريعة كونه بشراً مثلهم، وكون أتباعه من البسطاء والمستضعفين:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود].

والشـاهد هنا هو قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ حيث يـدُلُّ جرس هذه الكلمة التي تتكون من عدّة ضمائر، وكأنَّهُ مُورِسَ الضَّغْطُ في إلصاق بعضها ببعض، وذلك تصويراً لصعوبة إلزامهم بالهداية والرحـمة الربـانية التي يرفضونـها.

رابعـاً: ويصف سبحانه حال الكافر الظالم يوم القيامة، وهو يقاسي الشدائد والأهوال في جهنّم، بقوله:

﴿...وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم].

والشـاهد هنا هو قوله تعالـى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي يشرب الكافر الجبّار العنيدُ القَيْحَ بصعوبة بالغة وجرعة جُرْعَةً، إذ التجرّع هو شُرْبُ سائلٍ مّا

شَيئاً[1] فشيئاً، وذلك لعدم تـمكُّنه من شربه مرة واحدة بسبب مَرارَتِهِ أو حَرارته أو كِلتَيْهما، أو غيرهـما من الأوصاف الكريهة في السوائل.

ويصوِّر جَرَسُ كلمةٍ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ معناها بوضوح.

خامساً: يُقسم سبحانه بالملائكة الذين يقبضون أرواح الكفّار والمؤمنين، فيقول:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾ [النازعات].

وتُصَوِّر كَلِمَةُ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ وكذلك كلمة ﴿غَرۡقٗا﴾ بِجَرَسَيْهما كيفية قبض الملائكة أرواح الكفّار بقوة وشدّة وجذب عميق.

كما أن كُلاًّ من كلمتي: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ و﴿نَشۡطٗا﴾ تصوّران بِلُطْف وخفَّة صوت جرسهما، سُهولَة ويُسْرَ قبضِ الملائكة لأرواح أهل الإيمان.

سادساً: قال سبحانه وتعالى آمراً أهل الإيمان، بأن يذكروه ويشكروه واعِداً إياهم أن يذكرهم في المقابل:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

ومن قواعد التجويد أن أحد حروف العلة الثلاثة (ا، و، ي) إذا جاء في آخر كلمةٍ، ثـم جاء بعد تلك الكلمة كلمة أخرى مبدوءة بهمزة (أ) يُمَدُّ حرف العلّة، أي الألف أو الواو أو الياء، بمقدار أربع أو خمس أو ست حركات، وبناءً عليه: فكلمتا: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ هما ممّا تنطبق عليه تلك القاعدة، وتُمَدُّ ياءُ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بمقدار أربع أو خمس أو ست حركات، ولكن كلمة ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ تُلفَظ بِسُرعةٍ وجَزْم، وبالنتيجة يصوِّر جَرَسُ الكلمتين معناهُما بالشكل التالي: يَنبغي لأهلِ الإيمان أن يُطيلُوا من ذِكْر الله تعالى ويُكثروا مِنهُ، وإذا فعلوا ذلك، فَسيذكرهم ربّهم الكريم بِسُرْعة وجَزْم!

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص١٩١، ١٩٢.

سابعاً: وكذاك تنطبق القاعدة السابقة على قوله تعالى الذي يأمر فيه أهل الإيمان بأن يدعوه ويسألوه، ولا يستكبروا عن عبادته التي الدّعاءُ هو مُخُّها[1]:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر].

فينبغي لأهل الإيمان إطالَةُ الدُّعاء أمام ربِّهم الكريم، وإذا فعلوا ذلك مخلصين وموفِّين شروطَ قبولِ الدعاء، فَسيُجيبُهُمْ رَبُّهُم حتماً وجَزْماً[2].

ونكتفي بهذه الأمثلة السبعة، وإلَّا فالأمثلة في هذا المجال كثيرة.

١١) لا يَخْلَقُ القرآن على كثرة الرَّدِّ، ولا يَمَلُّ منه قارؤُهُ:

وهذه أيضاً خصيصة أخرى من خصائص كتاب الله التي انفرد بها، وهذه الخصيصة وان كانت ألصق بجانبه البياني، ولكن لها ارتباط بكتاب الله ككل، ولا تخصُّ منه ناحية دون أخرى.

وقد جاء تعريف كتاب الله بهذه الخاصية في أحد أحاديث الرسول ﷺ واصفاً إياه: «... ولا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ..» (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٩٠٦) وَضَعَّفَهُ كل من الشيخ الألباني وحسين سليم أسد).

ويُقال خَلُقَ الثوبُ وخَلِقَ يَخْلَقُ إذا فَقَدَ جِدَّتَهَ وصار رَثَّاً أو قديماً[3]، وَقَصْدُ رَسُول الله ﷺ من هذا التعريف:

(١) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (١٤٧٩)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٢٤٧)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ. وَصَحَّحَه الألباني)

(٢) قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً خَائِبَتَيْنِ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢٣٧٦٥)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٥٥٦) وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَالحَاكِمُ برقم: (١٩٦٢) وَقَالَ: صَحِيح عَلَى شَرْط الشَّيخَين، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (١٤٨٨)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٨٧٦) عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ).

(٣) المصباح المنير، ص٩٦، لفظ: (خلق).

أن القرآن العظيم مهما أكثر الإنسانُ من تلاوته، والإستماع إليه والتدبّر فيه، فهو دَوْماً يُشْعِرُ بكونه جديداً طازجاً، فلا يصير في عينه قديماً، فاقداً لجِدَّته وحلاوته وطراوته.

وهذه الخاصية مجرَّبة مَذوقة لأهل الإيمان كلٌّ بقَدَره.

فأنا ـ تحدّثاً بنعمة الله الكريم ـ مع أنه صار لي أكثر من ربع[1] قرنٍ في خدمة كلام الله المبارك، تلاوةً وحفظاً واستماعاً ودراسة وتدبُّراً وتعلّماً وتعليماً، ولكن والذي لا ربَّ غيره، أشعر أحياناً وأنا أقرأ بعض الآيات وأتأمَّلُها، وكأنّني ما سمعتها من قبل!

وسِرُّ هذه الخاصية:

أن الله تعالى أنزل كتابه وفقاً لفطرة البشر، وما رُكِّز فيها من أشواق ونوازع وغرائز، ولهذا فهو متجاوب مع الفطرة عقلاً وقلباً ونفساً وروحاً، ومُنْسَجِمٌ معها تمام الإنسجام، حتى أن الإنسان أحياناً يقرأ آيات من هذا الكتاب العظيم المبارك، وخصوصاً الآيات التي فيها مناجاةٌ مع الله تعالى ودعاء وسؤالٌ وطلب وتضرّع، كسورة الفاتحة مثلاً، وفي خِضَمِّ التفاعل مع الآيات يشعر وكأن هذا الكلام الذي يتلوه نابعٌ من أعماق وجوده، وقد ينسى أنَّه ليس كلامَهُ هو! وذلك من شدّة قرب كتاب الله الحكيم وذكره المبارك، من فطرة الإنسان وروحه وقلبه وعقله ومشاعره، وكما أن الطعام أو الشراب، كلّما كان أَجْوَدَ وأكمل وأحسن تلبية لحاجات الجسم وأوفق لرغبته وشهيته، كلَّما كان الإنسانُ أكثَر تذوقاً له واغتباطاً به، كذلك الكلام الذي يقرأه الإنسان أو يسمَعُهُ، كلّما كان ألصَقَ بفطرته وأكثَر انسجاماً مع مشاعره، كان أكثر له اشتياقاً وأعظَمَ به التذاذاً، ولا شك أن بين اللّذات الجسمية التي يشارك الإنسان فيها الحيوانُ البهيم، وبين اللّذات الروحية التي هي من خصوصيات الإنسان، فرق عظيم.

ومن الواضح أنه لا يمكن أن يوجد كلام أقرب إلى روح المخلوق وقلبه وعقله ومشاعره، من كلام خالقه وفاطره وربّه جلّ شأنه!

---

(١) أي حين كتابة هذا الكتاب، سنة (٢٠٠٥)م.

١٢) الإعجاز الخَطِّي فـي كتاب الله الحكيم:

ونقصد بالإعجاز الخطِّي في كتاب الله الحكيم، ذلك المجال الرَّحِب الذي يجِدُهُ الخَطّاطون في مُزاولة التَفَنُّن في الخط والإبداع فيه، عندما يريدون كتابة آيات كتاب الله المبارك، ولا يجدون ذلك المجال الواسع أَمامهم في أي نَصّ آخر، حتى في الأحاديث النَّبوية الشريفة! وهذا ما أكّده لي الخطّاطون المَهَرة.

١٣) الإعجازُ الصَّوتي فـي كلام الله المبارك:

ونقصد بالإعجاز الصَّوتي أن النغمات المتعدِّدة والإيقاعات المختلفة التي يَسْمَحُ بها كلام الله المبارك، أن تُستعمل في تلاوته ـ وفي حدود القراءات المتواترة وقواعد التجويد ـ لا يَسْمَحُ بها أيُّ كلامٍ مقروءٍ آخر.

وهذا مشاهدٌ ومعاينٌ، حيث سَمَحَ كلام الله المبارك لعشرات بل مئات القُرّاء، أن يقرؤه ويُرتِّلوه بمختلف الألحان والأنغام ـ المسموح بها شرعاً والمنسجم مع جلال ومقام كتاب الله ـ، والتي تُبْرِزُ حلاوة كلام الله وتجعلهُ يؤثِّرُ في مختلف الأمزجة والمشاعر والأذواق والمشارب!

والآن:

في نهاية الكلام عن (إعجاز كتاب الله الحكيم) نتساءل مرةً أخرى:

هل إن وجوه إعجاز كتاب الله الكريم هي هذه الوجوه العشرة فحسب؟!

والجواب، كلاّ، بل وكما أَكَّدْناه في السابق مراراً نقول: إن وجوهَ إعجاز كتاب الله العزيز تَرْبو عن الحصر والعدّ، وإنّما أردنا بذكر هذه الوجوه كأمثلة لوجوه إعجاز القرآن: التنبيهَ على أن إعجازَ كتاب الله تعالى لا ينحصرُ في جانبه البياني مع أهميته، بل كتابُ الله حجةٌ على الناس كافة ومُعْجِزٌ لهم كلِّهم، بجميع شرائحهم ومستوياتهم وتخصّصاتهم وهواياتهم، وفي كل المجتمعات وعبر جميع العصور.

وواضحٌ أنه لو لم يكن كتاب الله بهذه المثابة، لما صار حجّةً على جميع الإنس والجنّ ومُعجزاً لهم كلهم، ومن ثمّ لما أمكن اعتبارُه معجزةً وبيّنة لنبوّة (محمد) خاتم النبيّين وسيّد المرسلين ﷺ وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين، في كل العصور وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم إن غير هذا لا يليق بالله الحكيم تبارك وتعالى، إذ هو لا يوجَدُ أدنى خللٍ حتّى في أصْغَر مخلوقاته، إذاً: كيف يمكن تطَرُّقِ الخلل إلى أعظم شأنٍ من شؤونه، وأبرز صفةٍ من صفاته، وهو حديثه المبارك إلى البشر وتوجيهاته العُلْويّة السّنيّة الربّانية؟!

وأودّ أن نختم الحديث عن إعجاز كتاب الله العزيز بهذه الآيات المباركات الثلاث، وتعليق مختصر عليها:

١ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء].

٢ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد].

٣ ـ ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].

١) أما آية (الأنبياء) فقد تحدّثنا عنها، سابقاً، ولكن سبب إيرادي لها هنا:

أن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾!! تعقيباً على ذكر كُلٍّ من: كيفية خلق السّموات والأرض، وكون الماءِ منشأ كل الحيوانات، يقصد به توبيخُ الكفار على عدم إيمانهم بهذا القرآن العظيم العجيب المعجز، الذي بيّن الله الحكيم في آية واحدة من آياته، كيفية خلقه

للخلق كلّه، وللأحياء جميعاً، إذ لن يتأتّى هذا من غير الله الخالق جلّ شأنه.

٢) وأما آية (الرّعد) فيبيّن فيها الله تبارك وتعالى عظمة القرآن وكونه خارقاً لكل العادات ومعجزاً نهاية الإعجاز، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إذْ جواب (لَوْ) محذوفٌ لدلالة السياق عليه وهو: لو أنه كان هناك قرآن تُزاحُ به الجبالُ عن أماكنها، أو تُخْرَقُ به الأرضُ، أو يُكَلَّمُ بهِ الموتى، لكان هو هذا القرآن الحالي فحسب.

ومعنى هذا:

أنَّ هذا القرآن يتأتى منه كل شيء عجيب وخارق للعادة، إذ هو معجزة لِذا فهو يصنع المعجزات.

وقد أورد (النيسابوري) في (أسباب النّزول) عن الزبير بن العوّام رضي الله عنه هذه القصة في مناسبة نزول هذه الآية:

«قالت قريش للنبي ﷺ (تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْكَ، وَأَنَّ سُلَيْمَانَ سُخِّرَ لَهُ الرِّيحُ وَالْجِبَالُ، وَأَنَّ مُوسَى سُخِّرَ لَهُ الْبَحْرُ، وَأَنَّ عِيسَى كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، فَادْعُ الله أَنْ يُسَيِّرَ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالَ، فتفجر لَنَا أَنْهَاراً، فَنَتَّخِذَهَا مَحَارِثَ، فَنَزْرَعَ وَنَأْكُلَ، وَإِلَّا فَادْعُ الله أَنْ يُحْيِيَ لَنَا مَوْتَانَا فَنُكَلِّمَهُمْ، وَيُكَلِّمُونَا، وَإِلاَّ فَادْعُ الله أَنْ يُصَيِّرَ هَذِهِ الصَّخْرَةَ الَّتِي تَحْتَكَ ذَهَبًا، فَنَنْحَتَ مِنْهَا، وَيُغْنِينَا عَنْ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَإِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ كَهَيْئَتِهِمْ، فَبَيْنَا نَحْنُ حَوْلَهُ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ أَعْطَانِي مَا سَأَلْتُمْ، وَلَوْ شِئْتُ لَكَانَ، وَلَكِنَّهُ خَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، فَيُؤْمِنُ مُؤْمِنُكُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يَكِلَكُمْ إِلَى مَا اخْتَرْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ، فَتَضِلُّوا عَنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، وَلاَ يُؤْمِنُ مُؤْمِنُكُمْ، فَاخْتَرْتُ بَابَ الرَّحْمَةِ، فَيُؤْمِنُ مُؤْمِنُكُمْ، وَأَخْبَرَنِي إِنْ أَعْطَاكُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ، أَنَّهُ مُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً لَا يُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا

ٱلْأَوَّلُونَۚ...﴾ [الإسراء: ٥٩]، ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ الآية»(١).

٣) وأما آية (النساء) فيُعلن فيها ربّ العالمين جلّ شأنه أنه إنْ كان الكفار ينكرون كتابه الكريم، وكونه مُنَزَّلاً من عنده، فهو يشهد لكتابه إذ أنزله بعلمه وكذلك الملائكة الكرام يشهدون، والله تعالى كافٍ للشهادة لكتابه وحقانيته، والشاهد الذي قَصَدناه في الآية المباركة هنا:

أن الله تعالى بعد أن ذكر شهادته لكتابه، قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، وهذا يعني ـ كما أرى والله تعالى هو العليم الحكيم ـ أن شهادة الله تبارك وتعالى لكتابه وكونه حقاً، تتمثّلُ في كون القرآن نابعاً من علمه سبحانه، وبما أن علم الله تعالى كسائر صفاته لا حدَّ له ولا نهاية، إذاً: فالقرآن فيه من العلوم والمعارف ما لا حَصْرَ له ولا غاية، وهذا هو الذي جعله مُعْجِزاً غاية الإعجاز!

أجل كتاب الله الكريم مُعْجِزٌ بالغ الإعجاز، بل هو يصنع المعجزات في حياة البشر، معجزات هي أكبر من زَحْزَحَةِ الجبال عن أماكنها، وتقطيع الأرض، والتكلُّم مع الموتى ـ ولكن ـ أي صنع المعجزات في حياة البشر ـ بشرط، وهو:

أن يُعامَل ذلك الكلام الرباني المبارك العلي الحكيم العظيم، بما يستحقه، وكما يليق به من التعامل!

إذاً:

فَلْنَبْحَثْ في المبحث الخامس والأخير، موضوع كيفية التعامل مع كتاب الله الكريم بإذن الله تعالى.

---

(١) (الإستيعاب في بيان الأسباب: ج٢، ص٣٨٥، حيث قال: أَخرجه أبو يعلى في المسند رقم: (٦٧٩)، ومن طريقه: الواحدي في (أسباب النزول) ص١٨٥، وابنُ مردويه في تفسيره...، وذكره السيوطي في (الدّر المنثور) (٦٥٢/٤) وزاد نسبتَهُ لأبي نُعَيم الأصفهاني في (الدلائل).

المبحث الخامس

كيف نتعامَلُ مع كتاب الله الكريم؟!

ذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، أن الإيمان بكتب الله تعالى، هو التصديق بها والتعامل معها وفق ما أمر الله الحكيم به، وها نحن الآن نوضح كيفية التعامل الشرعي مع القرآن العظيم، آخر كتب الله والمصدِّق بها والمهيمن عليها جميعاً.

وسنتناول هذا الموضوع في سبعة مطالب:

١) التأدُّب والتعظيم.

٢) التلاوة والإستماع.

٣) التفكُّر والتدبُّر.

٤) التأثُّر والتذكُّر.

٥) الإتِّباع والتسليم.

٦) التزكية والتعليم.

٧) الإصلاح والتحكيم.

وقد رتَّبنا هذه المطالب السبعة ترتيباً متدرِّجاً، وذلك لأن الخطوة الأولى للتعامل الصحيح مع كتاب الله الكريم، هي أن نتأدَّب معه ونوقِّرهُ ونُعظِّمه، ثم بعد ذلك يأتي دور التلاوة المرتَّلة أو الإستماع الجيِّد، ثم لا بدّ

مع التلاوة أو الإستماع مع التدبُّر والتفكّر، إذ هو بيت القصيد من الإطّلاع على كتاب الله تلاوة أو استماعاً، ثم إن ثـمرة التفكّر والتدبّر هي التأثر والتذكّر، ومَن تأثَّر وتذكَّر، فَسـيُثْمِرُ فيه ذلك الإتّباع والتسليم، ثـم من استـسلـم لـكـتـاب الله واتَّبَعَه بـحـقٍ، فـلا بـدَّ مِن أن يـقـوم بـمـا قـام بـه رسولُ الله ﷺ من تزكية الناس وتعليمهم، ثـم في نـهاية المطاف تأتـي مرحلة الإصلاح ـ أي إصلاح المجتمع ـ على أساس كتاب الله وتحكيمه فيهم، وفي جميع جوانب حياتـهم: تصوراتٍ، وقيماً، وموازين، وشعائر، وآدابـاً، وشرائع..

ونَبـدأ الآن بالمطلب الأول بإذن الله وتوفيقه:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١) التـأدُّب والتعظيم

انَّ أساس التعامل الصَّحيح مع كتاب الله الكريم، هو أنْ نتأدَّب مَعَهُ، وأنْ نُعَظِّمَهُ ونُوَقِّره ونُكْرِمَه، تعظيماً وتوقيراً وإكراماً لائقاً به وبمقامه الرفيع العظيم.

وتأدُّب الإنسان مع كتاب الله تعالى وتعظيمه له، يكون على قَدَر معرفته وإيمانه به وبمُنزِّله العليِّ العظيم جلَّ شأنه وتبارك اسمه.

وعندما يُفكِّر الإنسان بجِدّ في شأنِ القرآن العظيم، وإنزال الله تعالى لَهُ بواسطة أشرف ملائكته وأجلِّهم شأناً عنده: جبريل عليه السلام، على قلب خاتم أنبيائه، وأقرب أوليائه، وأفضل عباده (محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب) ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

أجلْ عندما يفكِّر الإنسان بِجِدٍّ في شأن القرآن العظيم، يكادُ أن يضيق نطاق العقل والتصوُّر عن استيعاب هذا الأمر الجلَلِ! أن يتكلَّم رب العالمين العليِّ العظيم الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى، ثم ينقل المَلَكُ الكريم جبريل ذلك الكلام المبارك إلى عبده المصطفى، كي يقرأه على الناس ويَطَّلعوا على أوامر ربهم، ونواهيه، وتوجيهاته، وما يريده منهم، بشأن كيفية تمضية حياتهم الأرضية، لكي ينالوا ثوابَه ورضوانَه الذي يوجبه فضلُهُ في حياتهم الأخرى، ويكونوا بمنجاةٍ من سَخَطِه وعِقابه وعذابه الذي

يوجبه عَدْلُهُ! هذا والله لأمرٌ عظيمٌ عظيمٌ! ولهذا قال سبحانه بهذا الصَّدد:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر].

إذاً: فالله تعالى يريدُ منّا ـ أي الإرادة الشرعية ـ أن نتفكّر في شأن القرآن وعظمة حَدَثِ إنزالِهِ له على البشر.

وقد حَمِدَ الله الحميد المجيد تبارك وتعالى نفسه على إنزالِهِ القرآن، فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

وكذلك لما وصف نفسه بالرحمة المطلقة في بداية سورة (الرحمن) التي يُعدِّدُ فيها نعمه الدنيوية والأخروية والمادّية والمعنوية التي أنعم بها على الجن والإنس، يذكر في بداية نِعَمِهِ، تعليمَهُ للقرآن ـ أي للجن والإنس ـ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن].

وقد قَدَّمَ سبحانه ذكر تعليم القرآن عند سرد نعمه، حتى على ذكر خلق الإنسان وتعليمه النُّطْقَ والبيان، وحكمة ذلك، ـ والله هو العليم الحكيم ـ هي:

أن الهداية الربّانية المتمثّلة في وحيه وكلامه، هي التي تجعل الإنسان يَسْعَدُ بوجوده أولاً، ثم بسائر النعم الأخرى ثانياً، وإلَّا فبدون هداية الله والإستمساك بكتابه الكريم، يَشْقى شقاءً عظيماً، وليس يفقدُ كلَّ النّعم الأخرى ـ ومن ضمنها بل أوَّلها وجودُهُ ـ فَحَسْبُ، بلْ وتنقلِبُ تلك النعم كلها في حقه، نِقَماً ويخسر خسارة لا خسارة بعدها، كما قال تعالى:

﴿...وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى].

إذاً: فَلْنتأدَّب مع كتاب الله الكريم غاية التأدّب، ولْنُعظِّمْهُ نهاية التعظيم، وكيف لا! وهل هناك ما هو أعظم من كلام الله المبارك وآياته البيِّنات وذكره الحكيم؟!

وقد وصف الله تعالى كتابه بأوصاف جليلة عظيمة منها: العلّو والعظمة والحكمة والعزّة والكرم..ألخ.

ولْنَعلمْ يقيناً بأن أدبنا مع كتاب الله وتعظيمنا له، يكون بحسب ما عندنا من المعرفة والإيمان بالله والعبودية له والتقوى منه.

٢) التـلاوة والإستماع

أوَّل ما يقـوم به العبدُ تـجاه كتاب الله الكريـم، بعد أن يسـتقرَّ في قلبه حُبُّه وتعظيمه وإجلالُهُ، هو تلاوته، أو الإستماع لتلاوته من غيره، وهذه بعض الآيات بـهذا الصَّدد:

١ ـ ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ الكهف.

٢ ـ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [العنكبوت: ٢٧].

٣ ـ ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل].

٤ ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل].

٥ ـ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف].

وتُفيـدُنا هذه الآيـات الحقائق التـاليـة، فـي مجال تلاوة كتاب الله والإستماع إليه:

١ ـ قراءة كتاب الله واجبة على المسلمين:

كما يدلّ عليه قوله تعالـى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقولـه: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [العنكبوت]، والخطاب وإن كان مع النبـيِّ ﷺ، ولكن كل ما هو خطابٌ له فهو أيضاً خطابٌ لأمته، إلَّا ما خصَّـتْهُ قرينة به ﷺ.

وقراءة كلام الله، واجِبٌ عَيْنيٌ على كل مسلمٍ، ولكن يتأدَّى الحَدُّ الأقل لهذا الواجب، بتلاوتهم له في الصَّلاة.

٢ ـ قراءة القرآن بالترتيل، هي الطريقة اللاّئقة بتلاوة كتاب الله:

كما يدلّ عليه قوله تعالى:

﴿. . . وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وقد وصفت (أم سلمة) أم المؤمنين ﵂ قراءة رسول الله ﷺ أنّها كانت مُرَتَّلة واضحة، كما قال (النووي) في (التبيان في آداب حملة القرآن):

«ثَبَتَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂: أنّها نَعَتَتْ قِرَاءَةِ رَسُولِ الله ﷺ قِرَاءَةً مُفسَّرَةً حَرْفاً حَرْفاً» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدُ، وَالنَّسائيُّ برقم: (١٠٢٢) وَالتِّرمِذيُّ برقم: (٢٩٢٣) وحسَّنه، وَقالَ الشيخ الألباني ضَعيفٌ، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف).

والمقصود بكلمة (الترتيل) هو الوضوح والتُّؤدَةُ وتحسين القراءة[١] من حيث إخراج الحروف من مخارجها الصَّحيحة، وإعطاء كل حرفٍ وكلمة حقَّها في التلفظ، وكذلك مراعاة القواعد الأساسية التي وضعها العلماء لتحسين تلاوة كتاب الله، والتي تعرف بـ(قواعد تجويد القرآن).

٣ ـ الإستعاذة بالله تعالى قبل الشروع بالقراءة:

كما يدلّ عليه قوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل].

والصيغة المشهورة للإستعاذة هي:

«أَعُوذُ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» (رَوَاهُ البُخَاريُّ برقم: (٥٧٦٤)،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٤١، لفظ: (رتل)،

وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٨١٢) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، بمناسبة تلاحي رجلين).

وقد اختار بعض العلماء صيغة: «أَعُوذُ بِالله اَلسَّمِيعِ اَلْعَلِيمِ مِنَ اَلشَّيْطَانِ اَلرَّجِيم».

واختار بعضهم هذه الصيغة: «أَعُوذُ بالله اَلسَّمِيعِ اَلْعَلِيمِ مِنَ اَلشَّيْطَانِ اَلرَّجِيم، مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ» (رَوَاهُ أهل السنن الأربعة، وهذا اللفظ للترمذي برقم: (٢٤٢)، وَقَالَ: هُوَ أَشْهَرُ شيءٍ في هذا الباب).

٤ ـ وجوب الإنصات والإستماع عند قراءة القرآن:

كما يدلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف].

والإنصات هو السكوت مع الإستماع[1]، والإستماعُ سَماعٌ مع متابعة وتدبّر[2]. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بعد أمره بالإنصات والإستماع، فيه بشارة عظيمة لكل مَنْ يتنصَّت لتلاوة كتاب الله ويستمع باهتمام وتدبّر.

والظاهر أن الإنصات والإستماع الواجب، هو إنصات واستماع المؤمنين لقراءة الإمام في الصلاة، وذلك لأن قراءة رسول الله ﷺ للقرآن على أصحابه ﵃ كانت في الأعم الأغلب في الصلوات، ومعلومٌ أنه لا يمكن للإنسان أن يُنْصِت ويستمع لكل من يسمعه يتلو كتاب الله، إذاً: فليس المقصودُ في الآية المباركة كلّ حالات سَماعِ قراءة القرآن.

هذا ومعلوم أن التلاوة الصّحيحة الحسنة لكتاب الله، وان كانت واجبة ومَطلوبة، لأنَّ القراءة الصّحيحة هي أساس الفهم السَّليم، ثم ان القرآن العظيم مُتَعبَّدٌ بتلاوته، وان لم يَتيسَّرْ للإنسان فَهْمُهُ والتدبُّر فيه، بل حتى إذا

(١) المعجم الوسيط، ص٩٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤٩.

لـم يُحسـنِ قراءته، وكانـت لـه فيـها أخطاءٌ غيـر متعمَّدة، حيـث قال رسول الله ﷺ بـهذا الصّدد:

* «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ ألـم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ» (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٩١٠)، عَنْ عَبْدِالله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ وحسَّنَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) برقم: (٣٣٢٧)).

* «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَتَعْتَعُ[1] فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ لَهُ أَجْرَانِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٨٩٨)، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ).

أجل وان كان هذا هو شأن قراءة القرآن العظيم، ولكن الـمبالغة في الإهتمام بالتلاوة على حساب الجوانب الأخرى، التي تَجِبُ مُراعاتُها في التعامل مع القرآن، خطـأٌ، بل ينبغـي أن يُعطى كل جانبٍ من جوانب التعامل مع كتاب الله، حَقَّـه من غيـر إفراطٍ ولا تفريط.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) تَعْتَعَ فُلان في كلامه: تردد في عي، وتَعْتَع الشيءَ: قَلْقَلَهُ وحرَّكه بِعُنْفٍ، المعجم الوسيط، ص٨٥.

٣) التفكُّر والتدبُّر

لا تؤتي تلاوةُ القرآن الكريم ثِمارَها المطلوبة مهما كانت مُرتَّلة ومُجَوَّدة، ما لم يصاحِبْها التفكّر والتدبّر، أي التَّعمُّق في معاني الكلمات والجمل والآيات والسياقات، ومناسبة الآيات بعضها مع بعضٍ، لنيل الأنوار وفهم الحكم والأسرار، التي يَشْتَمِلُ عليها كلام الله المبارك.

ولهذا أمر الله تعالى تالِيي كلامِهِ، بالتفكّر والتدبّر والتفقّه فيه، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

٢ ـ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

٣ ـ ﴿...قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

وَجليٌّ أن سَعَةَ معرفة الإنسان، وكثرةَ معلوماته، وإلمامَهُ بمختلف مجالات المعرفة البشرية، تساعِدُهُ أيّما مُساعدة لِتَمكُّنِه في فَهْمِ حِكَمِ كتاب الله، ونيل أنواره، ولهذا ربط الله تعالى درك مرامي كلامه بالعلمِ وأهل العلم، حيث قال:

١ ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

٢ ـ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ].

ولكن لا تتم الإستفادة المطلوبة من الحقائق والعلوم والمعارف المكنوزة في كتاب الله، إلّا إذا توفّر ـ بالإضافة إلى استعمال العقل والتسلّح بالعلم والمعرفة ـ شرطان آخران:

أولهما: الإيمان بالله تعالى والإرتباط الوثيق به طاعةً وعبادةً وتقوىً، وذلك لأن الإنسان حتى بالنسبة لكلام الناس، كلَّما كان أقرب من المتكلِّم وأعرف به وألصق بأحواله، كلَّما كان أفْهَمَ لِمَرامي كلامِهِ، ولهذا ترى الأصدقاء يفهم بعضهم بَعْضاً بمجرَّد الإشارة، وهذا هو السِّرُّ في أن الله تعالى كثيراً ما يُخصِّصُ أهلَ الإيمان والتقوى، بالإهتداءِ بكتابه وصيرورته هدىً ورحمة وشفاءً لهم، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

٣ ـ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ...﴾ [فصلت: ٤٤].

ثانيهما: التحرُّر العقليُّ والعاطفي من المعتقدات والأفكار والآراء والعادات والأعراف الباطلة، الموروثة من الآباء والأسلاف، لأنَّ من لم يتحرّر عقلياً وقَلْبياً من هذه الأشياء، صارتْ له حِجاباً كثيفاً يحجبُ عنه أنوارَ كتاب الله تعالى، كما قال سبحانه:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء].

إذ المقصود بذلك الحجاب المستور، وتلك الأَكِنَّةِ، وذلك الوَقْرِ، هو تلك العقائد والأفكار والعوائد الجاهلية الموروثة المترسِّخة التي حالت بين أولئك الكفار، وبين فهمهم لكتاب الله ونيل هدايته والتنوّر بأنواره.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٤) التـأثُّـر والتذكُّر

إذا ما قرأ الإنسانُ كِتابَ الله الكريـم، مُراعياً الشروط والآداب المارّ ذكرها، فهـو يُورِثُـهُ بإذن الله التأثُّرَ والتذكّر، ويُثْمِـرُهُما فيه.

ونقصد بالتـأثر: الإنفعالَ بـما يحتوي عليه كتاب الله من ذكر أسـماءِ الله تعالـى الحُسْنـى، وصفاته العُلـى، وشؤونه المثْلى، وخالقيته ومالكيته وربوبيّته لكل شيء، ثـم ألوهيته وولايته وحاكميته، ثـم ذكر الجنة والنـار... إلخ.

ونقصد بالتذكّر، حُصولَ التفاعل مع كتاب الله تعالى، والحقائق والحِكَم والأحكام التي يشتمل عليها، من الإيمان بالله وتوحيده وعبادتِهِ، والإيـمان باليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله، والأوامر والنواهي والحلال والحرام، والفضائل والرذائل، وتوطين العزم على امتثال الأوامر واجتناب النَّواهي، والإقتصار على الحلال وتجنُّب الحرام، والتحـلِّي بالفضائل والتخلِّي عن الرّذائل... إلخ.

ومن نافلة القول أنّ تأثُّر الإنسان بكلام الله وتذكُّره به، يكون على قَدَرِ وبَحَسَبِ ما عنده من الإيمان والتقوى، وهذا هو السرُّ ـ كما قلناهُ من قبل مِراراً ـ في تخصيص الله تعالى الإهتداءَ بكتابِهِ بأهل الإيمان والتقوى.

وهذه بعض الآيات يُصوِّر الله الحكيمُ فيها أروعَ تصويرٍ، كيفية تـأثر عباده الـمتقين وتذكّرهم، بكتابـه المبارك ونوره الـمبيـن:

١ ـ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

٣ ـ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة].

أما آية (الزمر) فَتُبيِّن كيفية تأثُّرِ المؤمنين الخائفين من ربهم بكتاب الله، حيث تقشعرُّ جلودهُم، وتضطرب أبدانهم عند تلاوتهم له، أو استماعهم إليه، هذا في المرحلة الأولى، ثم في المرحلة التالية، تنزل عليهم السكينة والرحمة وتبدأ قلوبهُم وجلودُهم بالتليُّن والسّكون والهدوءِ، والشعور بالراحة الروحية والطمأنينة القلبية.

وأما آية (الفرقان) فتبيِّن كيفية تذكّر (عباد الرحمن) بكتاب الله، خصوصاً من الناحية الفكرية، فتصفهم بأنهم يتعامَلون مع آيات الله بآذانٍ مُرْهفَة وأعين مفتوحة.

وأما آيتا (السجدة) فتشرحان كيفية تذكّر المؤمنين العابدين بكتاب الله، وتوضِّحانِهِ في سبعةِ مواقف أو سبع حالات هي:

١ ـ الإسراع في السجود عند تلاوتهم أو سَماعِهم له: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾.

٢ ـ تنزيه الله تعالى والثناء عليه: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٣ ـ عدم الإستكبار، سواء تجاه آيات الله وأحكامه، أو تجاه خلقه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٤ ـ إلْزامُ أنفسهم مَشَقَّةَ القيام من النوم للتهجّد وصلاة اللّيل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

وهذه الجملة المباركة أصدق تعبير وأروعه، لحالة استيقاظ الإنسان لقيام اللّيل وتأرجُحِهِ ـ أحياناً ـ بين داعية النوم والراحة من طَرَفٍ، والقيام للصلاة من طرفٍ آخر، ثم ترجيح القيام والنهوض.

٥ ـ دعاءُ الربّ والمناجاة معه: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾.

٦ ـ البقاء بين الخوف والرجاء، الخوف من عدل الله وعذابه، والطَّمَعِ في رحمته وفضله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾.

٧ ـ الإنفاق من عطاء الله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

فيجمعون إلى تقواهم من الله، الإحسان إلى خلقه، لِينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل].

نعم، هذه هي كيفية التأثُّر بكتاب الله تعالى، وقرائن التذكُّر به.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٥) الإتِّباع والتسليم

واتّباع الإنسان المسلم ـ أو المجتمع المسلم ـ لكتاب الله الكريم وتسليمه له، هو أن يلتزم بكلّ ما في كتاب الله ـ حسب الإمكان والوسع ـ من حقائق وأحكام وحِكَم وتعليمات، ثم أن يكون في قلبه وسرِّه: مُنقاداً مُستسلماً راضياً مُقتنعاً ـ بل مُغتبطاً ـ بكُلِّ ما في كتاب الله المبارك، سواء في مجال المعرفة والإيمان، أو في مجال الأحكام والحِكَمِ والإرشاد، أو في مجال القصص والأخبار، أو غير ذلك.

وبما أنّنا قد تحدثنا عن هذا الموضوع في الكتاب الثاني من هذه الموسوعة، وكذلك لنا عودة إليه في الفصل الأول من الباب الثالث ـ أي الكتاب التاسع ـ في مبحث خاص، نكتفي منه هنا بالتذكير بهذه الآيات المباركة:

١ ـ ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف].

٢ ـ ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام].

٤ ـ ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس].

٥ ـ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

وفي ضوء هذه الآيات نقول بإيجاز:

انّ المسلمَ المتَّبعَ للقرآن والمستسلمَ له، هو الذي يتحقَّقُ فيه كلٌّ من:

١ ـ الإقتناعُ العقلي التام.

٢ ـ والرّضى القلبيُّ المطلق.

٣ ـ والإقرارُ الصادق باللّسان.

٤ ـ والإلتزامُ الكامل ـ قَدْرَ المستطاع ـ بالجوارح فردياً وجماعياً.

لكلّ ما جاء به كتاب الله الكريم، من حقائق وأحكام وحِكَم وتعاليم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٦) التزكيـة والتعليم

ونقصد بـهما، أنَّ صاحب القرآن الذي استقرَّت حقائقه في عقلـه وقلبـهِ معرفـةً وإيـماناً، ثم انعكست أنوارُهُ على ظاهره طاعة واتّباعاً، محالٌ عليه أن يصبـر على واقع مجتمعه الـمُزْري البعيد عن القرآن وهدايتـه، وذلك كواقع عصرنا الذي نعيش فيه، والذي ينطبق على أكثر المسلمين المحسوبين على النبـيِّ الخاتـم ﷺ قول الله تعالـى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان]. بل كل مَنْ حَظِي بـهداية الله، وتنـوَّر باطناً وظـاهراً بنور الحق، لا جرم يفكّر ثـم يسعى جاهداً أن يُحْـظِيَ مَنْ حوله بـمثل ما حَظِـيَ به، وأن ينـوِّرهم بنور الله الذي ليس بعده نور، كـما قال تـعالـى: ﴿...أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور]، لذا يتصدَّى بكل ما أوتـي من قوة لتزكية مجتمعه أفراداً ومجموعات، بـما في كتاب الله الحكيم من الحقائق المعرفية والإيـمانية، ولتعليمهم ما فيه من الأحكام الشرعية والحِكَم الخُلُـقية والأدبيـة، إذْ قد ذكرنا سابقاً أن الله تعالـى لَخَّصَ وظائف رسوله الأمين ﷺ في أربعة أشياء، في أربعـة مواضع، في كتابـه المبيـن[(١)]:

١ ـ تـلاوة آيات الله على الناس.

٢ ـ تزكيتـه إيـاهم.

(١) وهي: البقرة: ١٢٩و١٥١، آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢.

٣ ـ تعليمه الكتاب إياهم.

٤ ـ تعليمه الحكمة إياهم.

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

ومن الواضح أن وظيفة حامل القرآن، ليست سوى وظيفة رسول الله ﷺ إذ حامِلُ القرآن الحق، هو الوارث الحق لرسول الله ﷺ، إذ لم يترك رسول الله لأمته ميراثاً سوى دين الله الحق المتمثل في كتاب الله الذي بيَّنه[١] بسُنَّته، لذا ليس وارث رسول الله ﷺ إلَّا العالم بدين الله والعارفُ بكتابه، والعامل به، والمبلِّغ له.

والمقصود بـ(تزكية حامل القرآن للمجتمع) هو قيامُهُ بتنقية أذهانهم وتصفية قلوبهم من كل ما هو جاهلي (أي غير شرعي) من المعتقدات والأفكار والتصورات والقيم والموازين والعادات، ثم القيام بتنوير عقولهم وقلوبهم بحقائق المعرفة الصحيحة والإيمان الحق، والتصورات والقيم والموازين النابعة من كتاب الله الكريم وسنَّة رسول الله ﷺ.

كما أن المقصود بـ(تعليمه المجتمع الكتاب والحكمة) هو قيامه بتبيين أحكام كتاب الله المنظِّمة لجميع شؤون حياتهم الشخصية والأسرية والجماعية والدولية، وحِكَمِهِ المُهَذّبة لأخلاقهم وتصرُّفاتهم الشخصيّة وآدابهم ومعاملاتهم الجماعية.

ويسلُكُ حاملُ القرآن للقيام بوظيفتي: (التزكية والتعليم) مختلف الطُّرُقِ الشرعية، مُستخدِماً كلّ الوسائل التي يُبيحها الشَّرعُ، والتي كثيراً ما يطرأ عليها التغيُّر، بسبب تطوّر حياة المجتمع وطِراز معيشتهِ، ولكن ينبغي

---

(١) سنبحث في مبحث خاص في الفصل الأول من الباب الثالث، (أي في الكتاب التاسع من هذه الموسوعة) كيفية ارتباط السنة بالكتاب، ومعنى كون السنة مُبيِّنة للقرآن العظيم، بتوفيق الله الكريم.

له أن يكون على يقين تامٍ، بأن أنـجح الأساليب وأكثرها تأثيـراً وبركة، هو:

التأثيـرُ على الناس بلسان الحال والفِعـال، قبل البيـان والأقوال، وصدق من قال في هذا الـمجـال:

(عَمَلُ رَجُـلٍ في ألْفِ رَجُلٍ، أبلغُ من قول ألفِ رَجُـلٍ في رَجُـلٍ).

ونـختم هذا الموضوع بحديث رسول الله ﷺ مِسْك الختام: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٧٣٩)، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٧) الإصلاح والتحكيم

إذا كانت وظيفة (التزكية والتعليم) يقوم بها حامِلُ القرآن ـ غالباً ـ تـجاه أفراد مجتمعه، فإن وظيفة (الإصلاح والتحكيم) هي الـهدف الذي يَرْنُـو إليه ببصره على مستوى المجتمع ككل، وجليٌّ أن القيام بإصلاح المجتمع وتحكيم كتاب الله عليه، لا يتِمُّ دون أن تسبِقَهُ خطوة تزكية الأفراد وتعليمهم، أي تربيتهم على الإيمان والإسلام، ومعلومٌ أنّنا لا نقصد هنا بكلمة (الأفراد) كلَّ أفراد المجتمع، إذ هذا مـحال وضرب من الخيال، ولكن عندما يراد تغييـر مجتمع ما، وإصلاحه وتـهيئتـه، ليحكمه كتابُ الله وتُطبَّق عليه شريعته، فلا بد من تربيَّة نسبة معقولة من الأفراد، يـمكنهم حملُ أعباءِ العمل الإسلامي وتغيير وجهة المجتمع، من كل ما هو غيـر إسلامي وغير شرعي، إلى ما هو إسلامي شرعي، في جميع نواحي الحياة، وتقدير هذه النِّسبة، وتوقيت الشروع بكل مرحلة من مراحل العمل الإصلاحي الإسلامي، يخضع لاجتهاد حَمَلَةِ القرآن الفقهاء في الدين والخبـراء بالحياة والمجتمع.

والآن لنلقـي الضوء على مفهوم كلمتـي: (الإصلاح) و(التحكيم):

أ ـ الإصـلاح[١]:

إصلاح المجتمع بإيجاز يعني: جعل المجتمع صالحاً، والصالح عكس

(١) سنتحدث بإذن الله عن مفهوم (الإصلاح) وعكسه (الإفساد) في نهاية المطلب الثالث من المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثالث (أي في الكتاب العاشر من هذه الموسوعة)، بشيء من التفصيل.

الفاسد، فإصلاحُ المجتمع هو القيام بِجَعْلِ المجتمع صالحاً في كل الجوانب:

إيمانياً وفكرياً وعِبادياً وخلقياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وإعلامياً... إلخ.

ونستدلّ على شمولية معنى كلمة الإصلاح ومفهومه بأمرين:

أولاً: الظاهر المتبادِرُ إلى الذهن من مفهوم الكلمة عند إطلاقها:

وذلك لأن (الإصلاح) إفعال من الصَّلاح، أي جعل الشيء (صالحاً)، وإنّما يَصْلُح المجتمع ويُصْبِحُ صالحاً في ميزان دين الله الحق، عندما ينعكس نورُ كتاب الله الكريم على حياته بكافّة جوانبها، كما أنَّ الفرد الصالح هو الذي يتوجّه بِكُلِّيَّتِهِ نحو الله تعالى ويستسلِمُ له بباطنه وظاهره، ولهذا يمدح الله أنبياءه الكرام: لوطاً ثم إسماعيل وإدريس وذا الكفل - عليهم السلام - بكونهم داخلين في زمرة الصالحين:

١ - ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء].

٢ - ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء].

وكذلك يدعوه عبده ونبيّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من ضمن دُعاءٍ له، أن يدخلَهُ برحمته في عباده الصالحين:

٣ - ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل].

ومن البيِّن أنّ الأنبياء - عليهم السلام - كانوا أكثر الناس استسلاماً لله تعالى ولدينه وشرعه باطناً وظاهراً، ومنه اكتسبوا عبادتهم الخالصة لله تعالى، ومن ثَمَّ صلاحَهم التام.

ثانيـاً: تعريف نبـي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ للإصلاح:

كما هو واضحٌ في الآيـات (٨٤ إلـى ٨٨) من (هـود) التـي تتحدّث عن طرفٍ من قصـة نبـي الله الحليم الحكيم شعيـب عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواره ودعوتـه الإصلاحية مع قومـه (مَدْيـن).

حيث يدعوهم أولاً إلـى عبادة الله تعالى وعدم الإشراك به.

ثـم ينهاهم عن تنقيص الكيل والـميزان، ويذكِّرهـم بنعـم الله عليهم ويخـوِّفهم بعذابـه وعقابـه.

ثـم يعود مؤكِّداً، فيأمرهـم بتوفيـة الكيل والميزان بالقسط.

وكذلك ينهاهم عن بخس أشياء النـاس، وهذا شامل للأشياء المادية والمعنوية.

ثـم ينهاهم عن الإفساد ونشر الفساد في الأرض.

ثـم يوجِّههم إلى طلب الرزق الحلال الطيِّـب.

ثـم يختم قوله، بأنَّه ليس عليهم حفيظاً، أي: ليس هو الذي يُجازيهم بعد مراقبـة أعمالـهم وأحوالـهم، بل هو يُبَلِّغُهـم رسالة الله فحسب، وأما مجازاتـهم، فشـأن الله تعالـى وحده.

ثـم بعد كلِّ ما مرَّ ذكره، والذي هو شامل للعقيدة والعبادة والإقتصاد والسياسية، والناحية الأخلاقيـة والإجتماعيـة، وبعد أن يجيبه قومـه جوابـاً تـهكُّمياً، يَنْضَحُ جهلاً وحـماقةً وسُوءَ أدبٍ، يعـود إلـى مخاطبـة قومـه ملخِّصاً لـهم برنامـجه النَّبـويَّ الإصلاحي بقولـه:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هـود].

إذاً: إصلاحُ المجتمع، هو جعله مجتمعاً صالحاً رشيداً، وذلك ببناءِ كل شؤونه من جميع جوانب الحياة، على أساس دين الله القيِّم وشرعه الحكيم لا غير.

ب ـ التحكيم:

أي تحكيم كتاب الله في حياة المجتمع، والمقصود به هو جعل كتاب الله وأحكامه العادلة الحكيمة حاكِماً وحَكَماً على كل شؤون المجتمع، بحيث لا يَشُذُّ عنها شيء.

وبما أننا قد فصّلنا القول في هذا الموضوع، في كل من الفصل الأول والثاني من هذا الباب ـ أي الكتابين: الثاني والثالث من هذه الموسوعة ـ وكذلك لنا عودة إليه في الفصل الثالث من الباب الثالث ـ أي الكتاب الحادي عشر ـ فلا أخوض هنا في تفاصيله، ونكتفي بالتذكير ببعض الآيات الحكيمة فيه:

١ ـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا . . .﴾ [المائدة: ٤٨].

٢ ـ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة].

٣ ـ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

٤ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ . . .﴾ [النساء: ١٠٥].

٥ ـ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ النور.

ومن الواضح أنَّ تحكيم كتاب الله وشريعته الحكيمة المنبثقة منه، وإصلاح المجتمع به، ليس عملاً سهلاً، يتم بين ليلة وضحاها وبجَرَّةِ قلم، بل يحتاج إلى عملٍ جِدّي وتهيئة أجواءٍ، وتمهيداتٍ ومقدّماتٍ، ولكن هذا أيضاً لا يعني أنه عَمَلٌ صَعْبُ المنال أو ضربٌ من الخيال، بل هو عملٌ مَيسور بإذن الله ذي الجلال، إذا ما تحرَّكت له عزائِمُ أهل الإيمان وهِمَمُ الرجال.

ثم هو ليس شيئاً يملك المسلمين تجاهَهُ الخِيارَ، بل هو شَرْطٌ لازمٌ لاعتبارهم من أهل الإيمان، كما قال ربُّنا الكريم العظيم:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

وقال:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

ولا شك أنَّ حامِلَ القرآن وحملة القرآن، أولى الناس بإصلاح المجتمع بتحكيم كتاب الله تعالى عليه، إذ لم ينزل الله كتابه الكريم، وأمر بتلاوته والإستماع إليه ثم التفكر والتدبّر فيه، إلَّا من أجل التعبّد به والإلتزام بأحكامه وحِكَمِه وتعاليمه على كافة المستويات.

ونقول في ختام موضوع (التعامل مع القرآن العظيم):

إنّ الذي لا يسعى جُهْدَه لاتِّباع كتاب الله والإلتزام بأحكامه ـ بعد تعلّم قراءته وفهمه ـ في خاصة نفسه ومن هم تحت ولايته، ثم لا يبذل أقصى ما في وسعِهِ من جهدٍ لإقامة شعائره وتحكيم شرائعه وإصلاح مجتمعه به وتنويره بنوره، لا يستطيع أن يقول: إنّني أتأدَّبُ مع كتاب الله وأُعظِّمُهُ وأُبَجِّلُهُ، وإن قرأه ما قرأَهُ آناءَ اللّيل وأطراف النّهار، اللَّهم إلَّا يكون من ذوي الأعذار الذين لا يمكنهم سوى قراءَتِهِ وحفظ ألفاظِهِ!

أعاننا الله الكريم جميعاً على التأدُّب مع كتابه العظيم، أدباً يليق به، وأن نوقِّرَهُ ونُعظِّمَهَ حق التوقير والتعظيم، آمين.

وبهذا نختم هذا الكتاب الخامس، وننتقل بعون الله الوهّاب إلى الكتاب السادس المُخصَّص لِبَحْثِ الإيمان بالرسل والأنبياء الكرام، على نَبِّينا وعليهم الصلاة والبركات والسلام.

ليلة الجمعة المباركة
٢٤ ذي الحجة ١٤٢٥هـ/٣ شباط ٢٠٠٥م
سجن كروبر

❏ ❏ ❏ ❏ ❏ ❏

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑